خطأ مقصود

خطأ مقصود (رواية)

عليا أحمد

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: سمير محرز

All rights reserved. No part of this book may be reproduced. stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-407-8

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2021 /9 /5268)

813.9

أبو حصوة، عليا أحمد ناصر

خطأ مقصود / عليا أحمد ناصر أبو حصوة – عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(242) ص

ر. إ: 5268/ 9/ 2021

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عليا أحمد

خطأ مقصود

رواية

الإهداء

إلى روح ناصر الذي ما زال يشاركني بطولة مغامراتي،
إلى رفيق طفولتي وعرّابي، الرجل الذي انتهت حياته لكن ذكرياتي معه لم تنته،
ناصر الذي ما زال ينتظرُ عدالة القدر، والعدالة في أوطاننا تحتاجُ كثيرًا من الصبر!

في الطابق السابع والعشرين من ناطحة سحاب تُقبِّل السماء، استيقظتُ على الغيوم التي تحلِّقُ حولي، الضباب الذي كان يزورني مع الرعود، والشمس التي تقبِّلُ زجاج النوافذ في فندق الماريوت المقابل لمبني الذهب في وارسو العاصمة البولندية، حيثُ الفقرُ يجلس على مقربةٍ كبيرة من البذخ، حيثُ الطبيعة الساحرة تحارب التطاول الإنساني عليها، وحيثُ البساطةُ تغسل قلبكَ من عجرفة الحقائب المرقطة، قررتُ أن أمسكَ شاشتي الصغيرة لأكتب!

كل مكانٍ زرتُه ترك داخلي حنينًا كبيرًا لأكتب وطني أكثر، وكأنكَ كلَّما أوغلتَ في التنقُّل والاغتراب اشتقتَ مكانكَ الأول أكثر، وكلَّما تعرَّفت لغاتٍ أكثر زاد اشتياقكَ لتكتب لغتكَ الأم، المضحك أنني أنهيتُ هذه الرواية بلوحة مفاتيحَ لا تحمل أحرفًا عربية، وكان كل الاعتماد يقع على ذاكرتي في التنقُّل بين الأحرف، ليس صعبًا أن تقتني لوحة مفاتيح بأحرف عربية، لكن الصعب أن تنقِّبَ لتجدها، أن تستميت لتكتبها، أن تواجه ذاكرتكَ وهذا الخيط اللامرئي من الذاكرة الذي يربطني بلغتي ووطني وأمي، وكانت تلك الأخطاء بمثابة صعقات للذاكرة كي لا تَنسى!

يجدر أن أذكر أن هذه الرواية لا تمتُّ للواقع بِصِلة، وأنها من وحي قراءاتي، واستنتاجاتي، وأن أي تشابه بأسماء العائلات والواقع، ليس إلا محض صدفة!

دُمتم بحب..

عليا أحمد

بداية العاصفة..
إنها تمطر ذكريات

مكالمة هاتفية واحدة، تكفي لتجعل القصة تبدأ، مكالمة هاتفية تكفي لجعل عالم ينقلب رأسًا على عقب، مكالمات ترفعنا ومكالمات قد تهبط بنا للحضيض، مكالمات تؤرخ حياتنا، ومكالمات تبقى عالقة في الذاكرة بعدما لم نكن نتخيَّلها قد تحدث، آهٍ من مكالمات جعلتنا نقول ليتها لم تأتِ رغم انتظارنا الطويل لها! مكالماتٍ حملتْ لنا خبر فراق أحدهم! ومكالماتٍ زفَّت لنا وجودهم، وأصعب المكالمات تلك التي تنتهي بكَ أمام الله في تضرُّع لا ينتهي كي يحفظ لك عمرَ من انتهى عمره!

يأتي صوته:

- ناصر أظنها بحاجتكَ، ما عادت تتحدث، ما عادت تنطق، لم أفهم ما حدث معها ولماذا دخلت المشفى، أرجوك ساعدني هي بالكاد تأكل! واليوم وجدتُها تصرخ بطريقة هستيرية، أخذت الكثير من الحبوب المنوِّمة وقد شكَّ الطبيب أنها قد تكون محاولة انتحار.
- سآتي فورًا، أرسل لي العنوان.

دقائق من عمري كانت أطول مما أتخيل، حينما قالوا لي إنها في المشفى قبل يومين، كنتُ في حالة من الشلل، هذه المرأة هي عالمي الذي أستيقظ لأجله، يبدأ نهاري بهدف سماع خبر عنها، ويظلمُ هذا الكون كثيرًا بغياب ضحكتها، حبلٌ سرِّي لم يُقطع يومًا، بيني وبينها تاريخ، فكيف

يكون حال من قالوا إن تاريخه يضيع؟!

زُرتُها في المشفى وكنتُ كالناسك في معبدها، ضعُفتْ، وجهها شاحب، الجميع يناديها بالطبيبة الذكية، تلك التي أنهت متطلباتها سريعًا لتلتحق بتدريبها في الطب النفسي، الجميع يعرفها في هذا المشفى، لكنها غائبة عن الوعي، لم تكن تعي شيئًا في غرفة ضمَّت كل من يحبُّها، وحينما انتهى وقت الزيارة وقرروا الانسحاب واحدًا تلو الآخر، قررتُ أن أتصنَّع الرحيل، حينما غادر الجميع من غرفتها، عدتُ لأمسكَ يدها، اسمها على المعصم، عليا الناصري... أتُراني أهملتُها؟ أكنتُ خير أبٍ لها؟ أكنتُ خير أخ؟ خير صديق؟ ما أصعب أن تسأل هذا السؤال لذاتك أمام عينين مغمضتين، انحنيتُ لأقبِّل يدها واقتربتُ من أذنها همستُ لها:

- افتحي عينيكِ يا عزيزتي، وأعدكِ ألا نقفز في حفرة الطين هذه مرّة أخرى، أتذكرينها؟

العنوان، بيتها الذي لم أزرهُ من قبل، انقطاعٌ طويل أعلم، أعتذرُ يا حبيبتي كنتُ أضعف من أن أقترب، الشقة في الطابق الثاني، البناء أبيضُ كالياسمين الذي كان يزيِّن شرفتكِ دومًا، والزينة على باب البيت، هو ذوقكِ الجميل في كل شيء، قلقٌ عليكِ لكن شوقي لتفاصيل حياتكِ يكاد يفضحني، أقرع الجرس الذي كان يغني ببطء فوق نبضات قلبي الذي يسبقني، يَفتح الباب ذاك الذي سرقكِ مني، أصافحه وأبحث فيه عن شيء أحبَبْتِه أنتِ! أبحث عن شيء جعلكِ تختارينه؟!

أدخل وأنا أواري فضولي نحو أشيائكِ، لوحاتٍ اخترتها، ساعة ذهبية معلقة: كم مرَّة نظرتِ إليها؟ أريكة احتضَنَتْكِ دون أن أكون بجانبكِ، كتبٌ مبعثرة هنا وهناك، مكتبٌ قرب شرفة؛ أيكون مكانكِ المفضل؟ مقرٌّ سريٌّ للكاتبة الصغيرة التي زرعتُها داخلكِ، أنا الذي كنتُ أزرعُ داخلكِ عشقي للكتب، عشقي لامرأة تمسك القلم وتكتب، فأصبحتِ هي! أكنتِ تحاولين جذب انتباهي لسحركِ حينما تكتبين؟ لستِ بحاجة لقتلي أكثر، متورطٌ فيكِ لحدٍّ يفوقُ كل أحزاني، وما أكثرها! أنتِ تعلمين.

يجلس معي ويتحدث بكلمات كثيرة ومقدمات أكثر، أحاول التركيز مع هذا الزوج القلق على زوجته، لكنني عاشقٌ منذ الأزل، عاشقٌ ما عاد قادرًا على الصبر عنها، عن امرأة هي كل شيء في حياتي.. أحاول التركيز معه لكن أشياءكِ سيدتي تحاصرني، قلمكِ، عطركِ، وشاحٌ معلَّقٌ، شمعةٌ برتقالية، ما عدتُ قادرًا على التركيز، ما عدتُ قادرًا على التصدِّي لحضوركِ اللامرئي هذا، لماذا تتأخرين؟ لماذا لم تخرجي بعد؟ يقول هذا الرجل إنكِ تغيرتِ كثيرًا، لا تقبلين الجلوس برفقة أحد، تفقدين شهيَّتكِ للحياة، ثم يقول لي إن الطبيب كان يملك شكوكًا أنكِ حاولت الانتحار بأخذكِ جرعة كبيرة من المسكن.

- ناصر أنتَ تعرف تاريخها، وتعرفُ كيف يمكن أن أشعر بعدما يقوله الطبيب و..

أقطع عليه الكثير من الحوارات لأسأله:

- هل أستطيع رؤيتها؟

- هي لا تعلم بأنني هاتفتكَ، سأترككما معًا، ناصر أنتَ أخوها، أنتَ أقرب شخص إليها، أرجوكَ حاول أن تفهم منها ما يحدث، كلُّ ما فهمتهُ أنها كانت في جلسة مع مريض ستيني، وأنه غادر مكتب الطبيبة ليقول إنها سقطت أرضًا. قالت لي السكرتيرة إنها كانت أول زيارة للمريض، وإنه خرج غير مكترث حتى للطبيبة التي سقطت بحضوره، غادر وكأن الأمر لا يهمه، وإن السكرتيرة هرعت لطلب سيارة الإسعاف.

كنتُ أحاول ربط الأحداث، أحاول أن... ثم..

- ألم تعرف اسم المريض..؟
- لم أستفسر عنه، لكنني أستطيع أن أهاتف السكرتيرة لأستعلم عنه.
- ليتكَ تفعل!

يغيب لينا ديها، وأبقى جالسًا فوق الأريكة أفكر بما حدث في غيابي، أعوام مرَّت على آخر لقاء بيننا، كنتُ أهربُ فيها من الماضي، من الكوارث التي كانت تلاحقنا، كنتُ أحميها أو هذا الذي ظننتني أفعله، لكن هل حقًّا لهذا المريض علاقةٌ بالأمر؟

تأتي برفقة أوس، تتكئ على ذراعه، ضفيرة شعرها الذي قصَّته في غيابي تنام على كتفها، وجهها ذابلٌ متعب، تتفاجأ بوجودي، وتتبدَّل الملامح، ضحكتها تشرق، ترتمي بأحضاني وتبكي.

- أتغيبُ عني كل هذا يا ناصر؟ أنا؟ أنسيتني حقًا؟

تتجمع الدموع في عيوني، وأصمت، ماذا أقول؟ بماذا أجيبها! أنا الذي قاطعتها كل هذه السنوات، ترتمي على سنوات الغياب التي لم أكن فيها وتبكي.

- ما بكِ، ما الذي يحدث؟

تبقى صامتة تنظرُ في عينيَّ، يوحِّدنا الألم ولو أنكروا جميعًا! ذات البوابة تُلقى عليها كل أخطاء العالم! كيف لا! هم الذين ألقوا بنا عليها! بوابة الخطيئة ونحن الذين وُلدنا من رحم الخطأ لرحم حياةٍ خطأ!! تبكي وأمسكُ بيديها كأنهما وطني الوحيد، أضمُّها، أبقيها بين ذراعيَّ، هذا الحزن الذي يبكي في عينيكِ هو ذاته الذي يسكنني!

أرجوكِ لا تبكي!

كنتُ أهمسُ في قلبي، وألوذُ بالدوران في محراب صمتي!

غادَرَنا أوس، وبدأت أتسلل لقلبها، بعد غياب أربعة أعوام عنها، سؤالٌ وحيد يرقص في عقلي: «أأكون خسرتُ ثقتها؟».

- عليا، أنا الذي غرستُ داخلكِ الحياة بيدي، أعرفُ تمامًا ما زرعتُ داخلكِ، لم أزرع داخلكِ إلا التمسُّك بهذا العمر الذي لم يتمسَّك بنا، هذه الحياة لم نجدها هكذا! نحنُ مُنِحناها بعبثيَّة، أكادُ لا أعرفكِ الآن، ما الذي حدث؟

دموعها المسكوبة الآن قد تشعل كل حقول القمح في هذا العالم...

- ماذا حدث؟ أتسألني؟ حدث أنني تلك التي تخلَّيتَ عنها فجأة، حاولتُ تجاهل غيابكَ، حاولتُ تجاهل قطيعتك، وقد قيل إن الكره والحب وجهان لعملة واحدة، هل حقًا كرهتني؟

تسألني ثانيةً وهي تنظرُ في عيني..

- هذا الماضي الذي لا يكفُّ عن التأثير علينا، ولماذا نحن؟

لا أريدكِ أن تفكري بهذه الطريقة، ألم تكوني دومًا من يقول اصنع تاريخك بيدك، ما همَّك تاريخ الهزائم من قبلك، كلُّنا مهزومون يا صديقتي، كلُّنا ورثنا شيئًا من الخيبة، لكنَّها الدافع الذي صنع منكِ طبيبة ناجحة وسيصنع الكاتبة التي تحلمين يومًا ما!

لا تجيب، تبقى صامتة، حزنها الكبير الذي أراه يشعرني بالعجز.. أسألها:

- هل خسرتُ ثقتكِ لهذا الحد؟

تضحك بسخرية كبيرة:

- الكارثة أنكَ صنعتني، علَّمتني، إن خسرتُ ثقتي بك، خسرتُ ذاتي، في قربكَ كنتُ أنسى أنني أعاني من متلازمة اليتم، كنتُ أنسى تشوُّهات الماضي، لكن هي أنا التي تصرُّ الأقدار على قتلها! هي أنا التي قررتَ أن تتبرأ منها، وتتركها لهذا الانتقام!

أقلقتني كلمتها، كلمة الانتقام هذه تعني الكثير، وقد لا تعني شيئًا، تعني أنني نجحتُ في أن أحميها، وقد تعني أنني سيُّد الفشل!

- انتقام؟

تصمت، وتزيح نظرها عني، تقف وتقابل الشرفة، تنظر في هذا المدى الكبير، السماء شاحبة! ورغم ذلك أنتِ والشرفة ووطني ثلاثيةٌ لا يفهمها إلا عاشقٌ اسمه أنا! أقف قريبًا منها، أمسكُ يدها وأسألها:

- هل حقًّا كنتِ تفكرين بالانتحار؟

تبقى صامتة، تحدِّقُ بي، تفكِّر كثيرًا، لكنها أضعف من لمسة يدي، أضعف من أن تخفي ذلك عني أنا، تحاول سحب يدها لكنني أُبقيها... محاولة أخيرة مني...

- كنَّا نشترك في كل شيء، الأقدار كانت تقرر أن تجمعني بكِ، والآن تقررين أن تصمتي، من الذي يهجر الآخر قولي لي؟
- ما دمتَ مصرًّا سأسألكَ السؤال الذي طرحه عليَّ ذاك الذي زارني يبحثُ عن طبيب يساعده، هل أنت جاهزٌ للدمار الذي سيأتيكَ جرَّاء ما سأقوله لك؟
- هل أنتِ طرفٌ فيه؟
- للأسف أنا بطلةٌ لهذا الخراب.

بابتسامة من يضع رصاصةً في رأسه:

- لطالما هو معكِ، أنا جاهزٌ دومًا، أحبُّ الخراب الذي سيجعلني شريكًا لكِ!

تهبطُ دمعةً على خدها، تسحب يدها وتتوجه للمكتب، تفتح الدرج وتخرج قصاصة ورق، تناولني إياها باستسلام كبير..

الاسم: راغب العلي... الهاتف... العنوان!

كانت صدمة أن أقرأ هذا الاسم للمرَّة الثانية في حياتي، فضولي لأعرف كيف وصلت إليها الورقة يحاول مماطلة الشكوك، ورغم كل هذا الفضول الذي يعصف بي، تتجاهل صدمتي الأولى، تناولني مخطوطًا، وتهبط دموعها محاولةً كتم كلمات لم أسمعها من قبل، لم تكن لتجرؤ أن تقولها، أن تعترف بها، أنظر للمخطوط، هذا العنوان أعرفه، أعرفه جيدًا كما أعرف يدي، أعرف ما فيه كلمة كلمة، أعرف حجمه وعدد صفحاته أعرف اسم بطلته الوحيدة، هل ينسى الإنسان كتاباته؟ هل أنسى اعترافاتي؟ وتاريخي؟ أمسك المخطوط أفتحه محاولًا استبقاء أمل أخير بأنهُ ليس هو، أو أنها لم تقرأ ما فيه، أحدِّق بها بعينين مصعوقتين لا تصدِّقان ما يحدث، وهي التي تسمَّرت في مكانها دون أن تتجمَّد دموعها، ما وجدتهُ للتو يقلب كل شيء في حياتي، يغيِّر رأيي في كثير من الحقائق، ويبعث داخلي شكوكًا بأنها حقًا كادت تفعلها! كادت تنتحر! أنظر لها بعينين تبحثان فيها عن دليل براءة من جنون الظنون والشكوك التي تعصف فوق جزيرة أفكاري! تقرأُ لي ما كتبت! وكأنها لم تكتفِ بقتلي، لتسير فوق جثماني بصوتها الجميل!

الإهداء

لامرأةٍ لن تتكرر ربَّيتها على يدي

وإذا بها تصبح عالمي...

إلى عليا، حينما قال لي الغريب، اسمها عليا، ظننتُ أنه اسم أمي وأبي وتاريخي، أنا الذي كنتُ أنتظر العالم لينصفني بكِ... وقد كان!

الخطأ الأول...
هل شعرتِ بآخر قُبلة؟

عمَّان 1986 ديسمبر...

الوقتُ فجرٌ وضجيج صاخب في الخارج، يطرقون على الأبواب التي تكاد تتحطم، صراخٌ وأصوات تنادي بفتح الباب:

- افتح الباب الآن نعلم أنكَ هنا باسل الفوزي اخرج الآن قبل أن يتم تحطيم الأبواب.

ما كدتُ أفتح الباب حتى دخلت عليَّ مجموعة مسلحة من عناصر الشرطة، دقائق وكان البيت مقلوبًا رأسًا على عقب وداليا تجحظُ عيناها شيئًا فشيئًا، استعانت بالمقعد لتتمالك ارتجاف روحها وقلقها الذي كان ظاهرًا في نظراتها لي، كان هناك شرطي قد وضع يدي للخلف وآخر وضع الأصفاد حولهما، أحدهم يخرِّب ويقلِّب الملفات في الخزانة والآخر يدقق ويقرأ، شيئًا فشيئًا أنظر لداليا، تضع يدها على رحمها الذي كان يحمل ثمرة تسعة شهور ستأتي في أي لحظة!

ما زال حديث الليالي السابقة في أذني، كل ليلة أحضنها لي وأضع يدي على رحمها، تهمس هي في أذني:

- هل تعدني أن تبقى معنا؟

أنظر للأرض الآن؟! وقد كان كلُّ ما سمعه جنيني مني كذبة!!

سريعًا يمسكون الملفات ويسحبونني لباب الشقة، كنتُ هادئًا، سرتُ بكل هدوئي، توقفت داليا وسحبت حذاءً لي من خزانة بجانب الباب، حاول أحدهم إيقافها بعنف، ورآها آخر فسمح لها بإشارةٍ لزميله بأن يهدأ، انحنتْ أمامي ككل العمَّانيات اللواتي يعشقن الانحناء أمام حبيب، بكل كبرياء تنحني، شامخةٌ حتى بانحنائها، وضعت الحذاء أمام قدمي، دسستُ قدمي فيه والشرطي ما زال قابضًا على القيود وعلى كتفي، يخشى أن أتبخَّر، كانت داليا أمامي تمامًا قبَّلتُها على رأسها، قبل أن تشعرَ بها تم سحبي!

هل شعرتِ بها؟ قُبلتي تلك يا داليا كانت وما زالت آخر شيء لمستهُ منكِ، قُبلتي تلك كانت وجعًا، كلَّما تذكرتها احترقت شفاهي، احترقت روحي، وكلَّما أذكركِ ما زلتُ ألمسُ شفتي، وكأنها حدثت للتو، أثر جبينك المرتعد البارد على شفتي، وكأنني أعانق جبينك كلَّما لمستُ شفتي، باردةٌ زنزانتي دون رسائلكِ، دون صوت العود وصوت ضحكتكِ، لا بأس أن نموت قليلًا حتى يحيا أبناؤنا حياة أفضل، ألم تقولي لي ذلك يومًا!

كنتُ أعرفُ أنني لن أراكِ قريبًا، فتهمتي واضحة، أنتِ أكثر من عشِق جرائمي، والحمد لله أنني تمكنتُ من درء الشُّبهات عنكِ وعن إيمان وغيركما كُثْر من مجموعة الشباب التي كانت تتبنَّى أفكاري، بدأتُ العمل السياسيِّ أثناء الجامعة، وكنتُ من المتحمسين للنضال وللتغيير، كان والدي مثلي الأعلى في نضاله السياسي، وحينما يقولون لك إنك تولدُ

عربيًّا وتتجرَّعُ السياسة مع حليب الأمهات صدِّقهم! تتشكَّلُ ملامحكَ وأنتَ في عمر الأشهر وتتكوَّن انتماءاتكَ وأنت تراهق، ثم إما أن تموتَ على قيد صمت وإمّا أن تصبح سجينًا سياسيًّا، لكن الذين وصلوا للقصور وللبزَّاتِ السوداء والسيارات المدفوعة لم يكونوا يومًا سياسيين حقًّا!

المناضل لا يأخذ أجرًا، إنما أجرهُ وطنٌ يرتقي! كان هذا ميزان والدي الذي كان يزرعه داخلي حتى آخر لحظات حياته، قبل أن يموت في أحد الانفجارات التي كانت تهزُّ عمَّان بين الحين والآخر، والتي تمت نسبتها لبعض الأحزاب، جريمة حزب واحد قضت على البقية، لاحقًا تم حلّ جميع الأحزاب بناءً على قانون الطوارئ والأحكام العرفيَّة التي اكتسحت المشهد آنذاك، بمنع تشكيل أي حزبٍ سياسي، بسبب التجاوزات التي ارتكبتها بعض الأحزاب التي يراها البعض قومية عربية، ويراها آخرون تعدّيًا صريحًا على سيادة دولة!

جريمة الأردن دومًا التي اقترفتها تقسيمات التاريخ أنه بلدٌ توأم لآخر تمَّ احتلاله، تخيَّل ضفتين ونهر يفصلُ بين توأمين، جاء المحتل الغاصب ووضع يدهُ على إحدى الضفتين، فما كان من السكَّان إلا الهرب للضفة الأخرى، وما كان من شعبين إلا أن يكونا واحدًا، قد تتوحَّد اللغات والثقافات والحضارات لكن الأحلام لا يمكن أن تتشابه! البعض يحلم بالعودة! ويطالب بها! والبعض أحبَّ البقاء والتذكُّر! وآخرون استغلوا المشهد وبدؤوا ينادون بفكرة وطن بديل!! دون أن يعوا أن الأوطان لا يمكن أن تتبدَّل وأن من وُلِدَ غربي الضفة سيبقى غربيًا حتى لو أنجب

حفيده العاشر شرقَها! فما زالت دماؤه تنبضُ بحب فلسطين! وأنه لا يمكن أن ننسى، لأننا إن نسينا أضعنا قضيتنا!

بقي شعوري بالعجز كأبناء أمتي يكبر، لهذا قلتُ إنها جريمة وطن، الأوطان ترتكب جرائم أحيانًا حينما يبقى جزءٌ منها مهزومًا والآخر حيًّا، ستبقى تنزفُ لأجل توأمك، واكتشفتُ بأن ما درسناهُ وتعلَّمناهُ كان مُصادرًا في تلك الفترة في وطني، لم يكن سهلًا أن يصدقوا بأنني وحيد في هذا الحزب، وأن نشاطي السياسي الذي كان منافيًا للقانون في الأردن في تلك الفترة كان منبثقًا من نشاط فردي نحو الحرية والعدالة وحق الشعوب في المشاركة السياسية، تعرَّضتُ للكثير من الاستجواب، عنيف وغير عنيف، أنا ما زلتُ أحبُّ وطني وأحبُّ كل من يخدم فيه، لن أُجرِّم ما فعلهُ بي المحقق، ولا المسؤول عن استنطاقي، هما يقومان بعملهما، تمامًا كما كنتُ أقومُ بعملي، وقد يتفاجأ المُحقق، دون أن أنبس ببنت شفة! دون أن أحكي اسمًا، حتى لو اضطُرِرتُ للبقاء في حبسي الفردي هذا بقية عمري!

كانت مسيرة والدي المشرِّفة، ورقة إطلاق سراحي، خرجتُ من السجن بعد عامين، لم أكن أعرفُ فيهما شيئًا عن الخارج، أنتَ سجينٌ سياسي! هذا يُفقدكَ حتى حقوق المساجين الآخرين! عرفتُ أن داليا أنجبت طفلًا لكنني لم أعرف أي شيء آخر ولم تصلني منها أيَّ رسائل خلال فترة سجني!

كنتُ مشتاقًا لها، مشتاقٌ لعمَّانيتي التي لا تشبه أيًّا من النساء! مشتاقٌ لأمي التي أحرقها موت والدي وها هي تحترقُ من جينات ابنها السياسيَّة!

أعطوني فردتي الحذاء ذاته على باب السجن! أمسكته وترقرقت الدموع في عيني، الآن أستطيع الذهاب لحبيبتي، الآن أستطيع أن أحمل طفلي الذي حرموني منه! كانت جريمتي أنني أحب الوطن! نعم يا أمي وهذا كان ذنب زوجتي وطفلي، إن حبَّ الأوطان جريمة، بعض الأوطان تنفيك حبًّا وبعضها تُميتكَ!

كل يومٍ كنتُ أتخيَّلكِ تحملين فيه طفلنا، هل أسميته «ناصر» كما أردتُ حقًا؟

كنتِ تريدين اسمًا يساريًّا كـ«رأفت»، وكنتُ أريدهُ ناصر، نسبة للرئيس جمال عبدالناصر، ثم اتفقنا ألا نتفق على شيء لهذه اللحظة ولنترك الأمر للقدر!

على باب السجن قابلتُ إيمان! شريكتنا وصديقتنا وشاهدٌ على قصتنا! خفتُ حينما رأيتها، لستِ هنا لستِ معها، أخبرتني بصوتٍ غريب أن الجميع ينتظرني في بيت أمي!

قلتُ في قلبي لا بدَّ أن مكروهًا حدث!

نظرتُ في عينيها، ترتدي ثوبًا داكنًا طويلًا، شعرها قصير ولا مساحيق على وجهها عكس المعتاد، وتبدو ملامحها مختلفة جدًّا، تجلس خلف عربة القيادة، إيمان الكركيّة، أول امرأةٍ تقود السيَّارة في زوايا الكرك، أوَّل امرأةٍ تشارك في حزب سياسي مع داليا! كانت صداقتنا أعظم صداقة، وكانت شراكتنا أعظم شراكة، كنتُ غائبًا في الشوارع والجبال، طريقٌ طويل والحياة فيه تسير، هل يعلمُ أحد من تلك الوجوه من أنت؟ ولماذا

تـم اعتقالـك؟! «لا تهـدر وقتـكَ بالـدفاع عـن حقـوق جاهـل».. آخـر مـا نصحني إياه صديقٌ في الحزب قبل أن يعتزل العمل السياسي، أذكرهُ جيدًا حينمـا جـاءني وآثـار الكـدمات على وجهـه، هجمـت عليـه مجموعـة مـن أصحاب المحلات المتضررين من المظاهرات والوقفات التي كنَّا نقوم بها، هم يريدون بيع بضاعتهم، لا يريدون مظاهرات! هل حقًّا أضعتُ وقتي لأجل شعوب مستسلمة!

يلفتُ نظري مدخل جبل القلعة، أطلب من إيمان التوقف هناك قليلًا، لتبدأ الحديث:

- كيف حالكَ؟

تسألني دون أن تزيح عينيها عن الطريق!

- بخير الحمد لله، أين داليا لماذا لم تأتِ؟ أين أمي؟
- الجميع بخير. قالتها على عجل!
- تخفين شيئًا عني!
- ماذا قد أخفي يا باسل؟
- لمـاذا لـم تصـل إليَّ أي رسـالة مـن داليـا؟ أيـن هـي؟ كنـتُ أظنـهم يصـادرون الرسـائل الخاصـة بـي، لكـن الآن ليسـت هنـا، هـل هـي بخير؟
- الجميع بخير ها قد وصلنا القلعة.

بدأ قلبي يخفق بسرعة، أصرخ:

- إيمان لا تطيلي عذابي يا صديقتي، حدث شيء!

توقفت السيَّارة، قلعتي أحبُّ الأماكن على قلبي، كنَّا نجلس هنا، نخطط هنا، نتفق على محتوى المنشورات، وأحببتُ داليا هنا، جبلنا المفضل! قلعتنا كما كنَّا نسميه!

جبل القلعة هو قلعة كل عمَّاني، هنا كنَّا نسهرُ الليالي ونردد الأغاني، نتبادلُ رسائل الحب ومنشورات الحزب، نخطط للقادم، ونعلن مبادئنا على الملأ تحت مسمَّى حزب العدالة، كانت داليا تُحضر عودها وتبدأ العزف، إيمان تغني، أنا والآخرون ننتشي بفرقة تحاول التمرُّد، تحاول التأثير، تحاول المطالبة بحرية أكبر، بدور شعبي أكبر، الكتب التي كنَّا نتبادلها، الأحداث السياسة في المنطقة وقضيَّة وطن يتقاسم معنا ذات النهر، اللجوء والمخيمات والظلم والفقر، كلَّها ظروف دفعتنا للتفكير في الحزب، ما زلتُ أراها كأن عيني لم ترمش بعدها قط، داليا بشعرها القصير المتطاير، حاجبين حادَّين وعينين لوزيتين وعنق طويل، ترتدي وشاحًا للرقبة معظم الوقت كي تخفي بقعة بنيَّة على جانب رقبتها اليمين، كنتُ حينما أقبِّلها أبدأ بتقبيلها من تلك النقطة بالذات، هذا الذي تظنينه عيبًا كان بالنسبة لي غرامًا، بل كمالًا عن الغير، ميِّزة لا تمتلكها الكثيرات، هذه علامة تميِّزكِ، تجعلني أعشق أكثر، أتورَّط أكثر! حبيبتي كانت تعشق العمل السيَّاسي، متمرِّدة، مثقفة، جميلة، كل ما كنتُ أعشق وجدته فيها!

أذكر أوّل لقاء في يوم الفلكلور في الجامعة، إذ يأتي كلّ طالب بزيٍّ تقليديٍّ يمثّل مدينته، وكان هناك الكثير من الجنسيّات من دول عربيّة.

كنتُ أرتدي قميصًا وبنطالًا عادةَ أهل السَّلط حينَها، مع حطَّة وعقال مائل قليلًا، أمّا تلك الجميلة فكانت ترتدي زيًّا سلطيًّا بامتياز، العصبة الحمراء المعقودة على شعرها الدَّاكن، تتدلّى على جبينها حَلَقات ذهبيَّة من العُصملِّيّات التي تتبارى النِّساء بكثرتهنّ، وبوزنهنّ! لكنَّ حبيبتي ترتدي التَّقليدَ منها، عُصمليَّات حبيبتي كانت بلا قيمة، ومع ذلك كانت أغلى من الألماس! فهذا الرَّأس الّذي وُضعنَ فوقه منحهنَّ أغلى قيمة، عيناها وذلك الثَّوب المطرَّز بخيطٍ أحمرَ كالدَّم وآخر ذهبيٍّ كالشَّمس على أرضٍ سوداء كليلِ عينيها، خصرُها الّذي احتضنه حزامٌ تتدلَّى منه السَّلاسل تضيقُ معه عيناي دون أن أرى غيرها، وأخيرًا خلخال ذهبيٌّ لا يملكُ صوتًا لكنَّه يملك بريقًا سحرني، هو لا يملك صوتًا لكنَّ أجراسه تدقُّ في قلبي وعقلي!

عمَّانيَّتي ترتدي ثوبًا سلطيًّا، أتُراها تفكِّرُ بقتلي حبًّا! ولماذا ثوب سلطيٌّ؟! أتُراها كانت تنسجُ نعشَ عزوبيَّتي؟ ها هو الجواب قادم، أنا أتورَّطُ أكثر، ومَلَكُ الموت يمتصُّ آخر رغبات لي في العيشِ وحيدًا بعيدًا عن عينيها!

أذكرُ أنَّ إحدى عصملِّياتها سقطت دون أن تتنبه، ولأنني كنتُ لا أبعدُ عيني عنها تنبَّهتُ لما سقط، هي فرصتي الآن اقتربت منها أشحذ صوتي ليخرج...

- عذرًا سقطت منكِ هذه!

تلتفتُ إلي ويغرقني موجُ عينيها، تتحدَّث لكنني لا أسمع شيئًا، هل يسمعُ من يغرق في ماء الحب، فقدتُ قدرتي على السمع! تداركت:

- لم أفهم.

- أجابت:

- هي ليست حقيقية، مجرد اكسسوار، لكن شكرًا لك.

تناولتها سريعًا، أحاول أن أستغلَّ الثواني الخمس القادمة في جملة لصالحي كي أستبقيها، سريعًا أجبتها:

- قيمتها كبرت حينما لامست هذا الجبين.

كانت تريد أن تقول شيئًا لكن ردِّي لعثمها، دون أن تنبس بحرف، أظنها استسلمت في تلك اللحظة، كيوبيد أوصل سهمي!

رأيتها تبتعد وصديقتها بعد حوار طال قليلًا ولا أتذكر شيئًا منه، لكنها بقيت تراقب عيني اللتين تحاولان التغذِّي على كل التفاصيل، حتى لا تجوع ذاكرتي بعد دقيقة وقد حدث فور أن غابت عن عيني!

حينما كانت تمسكُ العود لتعزف وتدندن، كنتُ أقول في عقلي إنني لن أخسر هذه المرأة مهما كلَّفني أمري، وإن هذه حربٌ لن أسمح لأحد بأن يفوز بها غيري، شعرها الداكن، وجيدها المضيء، لون عينيها، انكسارها حينما تعزف الوطن، انتصارها حينما تعزف الحب وهي التي تعلم كم سهمًا أصابت في الهوى قبلي، كلُّنا ضحايا لرمش عينيها!

ثم بكل انكسار تغني:

فوق إلنا خِل فوق... يبا فوق إلنا خل فوق

مدري لمع خده... يبا مدري القمر فوق

صوتها الحزين، وعذاب قلبي لها، بها، معها، يجعلني لا أنسى أنني كنتُ أحيا جزءًا من جنةِ الأرض معها، وحينما تراني حزينًا كانت تعلم كيف تجعلني أسعد رجل في العالم، كانت تمسك العود وتدندن ذات اللحن وتبدأ الغناء...

بالله يا مجرى الماي... يابا سلِّم عليهم

صعبه الغربة علي... اشتقنا إليهم إليهم...

حينما بدأتُ فكرة الحزب، كان الأمر مجرَّد تطلعات وأحلام، لم أكن أعلم أن مجموعتنا المكونة من خمسة أشخاص رئيسيين ستستقطب أكثر من مئة شخص خلال شهرين فقط، هذا الإجماع جعلنا نصبح أقوى، نطالب بعودة قانون الأحزاب، نطالب بضرورة المشاركة الحزبية في الحكم، كنَّا نقرأ عن التجارب الحزبية في دول أخرى وأنها نوع من أنواع إشراك جيل الشباب في إدارة البلاد، انتشرت منشورات الحزب بين الجامعات والمعاهد التي تجمع كل من يطمح للتغيير، سرعان ما زاد العدد، أصبحنا نقيم فعاليات؛ كأن نجتمع في ساحة جبل القلعة نعزف الموسيقى ننشد لعمَّان وللأردن، وأنا أحيانًا أكثر أنشدُ لوطني التي تحتضن العود، كانت تعلم أنني أحبها وتتجاهل، تتصنَّع أنها لا تعلم أو لا تشعر، أو أنها تنتظرُ أن أعلنهُ انهزامًا وانكسارًا واستسلامًا أمام حصن عينيها، كنَّا نحضِّر لاجتماع مع الحزب في يوم ما، حينما غادر الجميع وبقينا أنا وداليا وإيمان التي سرعان ما اعتذرت لتتركنا لخلوتنا، أستغل الظرف لأبدأ حوارًا معها:

- كان عزفكِ جميلًا جدًّا، أحببته.

تضحك وتنظر في عيني:

- لا أظنكَ قلتَ لي عكس هذا يومًا.
- لماذا تضحكين أنا لا أجاملُ في مثل هذه الأمور، قد لا أفقه الكثير في السلَّم الموسيقي، والنوتات الموسيقية، لكنني الخبير في سلم القلوب، وهذا الإحساس الذي يغزو قلبي كلما سمع هذا العزف. هل عندكِ شك؟

تتسعُ ضحكتها لتقول: من قال إنني أشكُّ في هذا؟ أنتَ حقًّا أكثر من يقرأ البشر ويشعر بهم، أنتَ الباسل دومًا.

- ماذا عنكِ؟
- أنا، ماذا تقصد؟
- ألا تجيدين قراءة البشر؟

تضحك ثانيةً وقد فهمت ما أقصد خصوصًا أنني بدأتُ أقتربُ منها!

- أنا أجيد قراءتكَ على الأقل!
- وماذا تقرئين الآن في عيني؟
- أرى الكثير: طموحات، أحلامًا، أزهارًا تتفتَّح، وأمطارً ستسقط، رعودًا مختبئة وقليلًا من الأمواج العالية.

أقترب منها أكثر وأنا أسبحُ في عينيها، تضع عينيها أرضًا وتصمت.

- لماذا لا تكملين؟

ترفعُ عينيها لتجدني أقرب مما تتخيَّل! تتلعثم ويأسرها الخجل:

- ماذا تريد أنتَ؟

- أريدكِ! ألم تقرئي ذلك في طموحي وأحلامي، ألم تتنبهي لحروف اسمكِ المنقوشة فوق أوراق الأزهار، أنتِ الشتاء الذي أخبئ لهُ كل هذه الأمطار والرعود، ألم تقرئي شواطئ ذاك الموج العالي؟!

تحمرُّ وجنتاها مع حجم الحقائق التي وُضِعتْ أمامها اليوم، تبقى صامتة

- إن كانت لديكِ ذات الرغبة، سيكون لنا زفاف الأسبوع المقبل.

تردُّ والضحكة المختبئة تكاد تنفجر:

- أنت مجنون.

- ماذا قلتِ؟

تمسك عودها وتبدأ بالعزف والغناء

خدك لمع يا هواي عيني.... وضوا على البلاد

ما أقدر أصبِّر الروح.... عيني وأتحمل بعاد

والله معذبني بعيونه الحلوة..

بعد أقل من أسبوع كانت الجاهة التي تضم كبار عشيرتنا تطرق أبواب عشيرتها، رغم أن والدي قد توفي منذُ زمن وهو وحيد جدي، إلا أن أولاد العمومة والأقارب من جدي ما زالوا يقومون بواجبهم على أكمل وجه وفاءً لوالدي الطيب رحمه الله، نحن الأردنيين حينما نفكِّر بتكوين عائلة جديدة، نعودُ لعادات قديمة، نعودُ للجذر وكأننا نذكِّر هذا البيت الجديد

الذي سيفتتحه عاشقان جديدان أنكما نواة لشجرة في حقلنا، في أرضنا، فلا تكونا إلا جمالًا ولا تقبلا بغير الجمال ليبقى أريج اسم عائلتنا فوَّاحًا كالمسك، كل الملابس التقليدية، البدلات، الحطَّات، العباءات تتزيَّنُ على طريق طويل، شوارع السلط لحدود باب حارتكم في عمَّان تتزيَّن بموكبنا المتعجِّل لتصبحي منَّا، ما أسعدني اليوم وأنتِ تصبحين منَّا من الفوزيين! تصبحين زوجتي، تصبحين سلطيَّة وتودِّعين عمَّان تودِّعين عادات العمَّانيَّات، ترتدين الثوب السلطي في كلِّ الأوقات وتزينين رأسكِ بالعصبة الحمراء في كل عيد، رائحة القهوة والهيل تعمُّ الحارات والبيت الكبير الذي استقبلنا كباره بكل ترحاب، ابتساماتهم سلامهم الحار وعناقهم لنا وكأنهم يعرفوننا منذ زمن، كانت داليا تعيشُ في بيت خالتها بعدما استشهد والدها في معركة الكرامة، والدتها تزوجتْ وسافرت برفقة زوجها للعراق، تزورها داليا كل فترة، ومن هنا أحبَّت الطرب العراقي الأصيل، وكانت تعشق غناء سعدون جابر وناظم الغزالي وتردد الكثير من أغانيهما.

وضعنا فنجان القهوة أمام كبير عائلتكم وأعلنَّا عن مطلبنا، وجاء الجواب بأن نشرب قهوتنا، وأن داليا أصبحت حبيبتي وخطيبتي ومليكتي أمام الجميع، كان حفل الزفاف حديث أهل السلط، بسهرات توديع العزوبية، لليلة حنة العروس وتوديع صديقاتها، ثم مأدبة الطعام التي أصر أصدقاء وأقرباء والدي القيام بها قائلين إنه دَين عليهم لوالدي رحمه الله.

العادات التي نرثها قد تقتلنا أحيانًا، لصعوبة تطبيقها، لكن نموتُ ونجوع دون أن نقصِّر بهذه العادات، أذكر حينما توفي والدي رحمه الله، بقي الأصدقاء والأقارب يتناوبون على إرسال الطعام لنا، حتى مرَّ خمسة عشر يومًا، وبعدها بدأنا نعتذر من الآخرين فقد أثقلوا على أنفسهم وعلينا بطيب كرمهم، وكنَّا في لحظات الحزن تلك بحاجة لخصوصية لا أكثر.

انتصرنا للحب وانهزمنا في السياسة، من قال إنكَ قد تحقق كل أحلامك على هذا الكوكب! قد تحدث مع البعض لكنني متأكدٌ أن الأغلبية لا.

وكان حبُّنا كافيًا يا داليا كي أبقى العمر كلَّه سعيدًا، كنتُ أتعلَّقُ بكِ كل يومٍ أكثر، هذا المزيج الذي تحملينه يجعلني أتورَّطُ بكِ أكثر: جيناتكِ، قفزاتكِ، ضحكاتكِ، روتينكِ الصاخب. كانت ذلك النوع من النساء الذي لا يجعلكَ تملُّ أبدًا، معها أصبحتُ مختلفًا جدًّا، رجلًا لا يتوقف، لا يعرف الاستسلام، أخرج لاجتماعات الحزب، ثم أطبع المنشورات، ثم نذهب لنناقش قضايا المنطقة وأهمها قضية فلسطين، كنتُ أعمل في المحاماة وأزاول المهنة في مكتب مع صديق لوالدي، أساعده في القضايا البسيطة، وأتمرَّنُ على يديه، كانت الحياة تبني أمامي جسورًا كبيرة، لكن!

توقفت السيارة في جبل القلعة، قلعتنا يا داليا، لكنني، هنا، يتوقف قلبي أيضًا، يتوقف نبض حبي في ذات المكان الذي قلتُ لكِ فيه أحبكِ أول مرَّة، في ذات المكان الذي شهِدَ على أول عناق وأول قُبلة، تخيلي، اليوم،

تقول لي إيمان بكل بساطة، العمر لك! داليا توفَّاها الله، أصابها نزيف شديد خلال الولادة ولم يتمكن الأطباء من فعل شيء لها.

ينهارُ داخلي كله، وأبقى صنما.

لا دموع، لا شيء، تحاول إيمان الحديث معي لكن حينما تسمع هكذا خبر تتوقف عن تذكُّر ما حدث أو ما قد يحدث بعدها، حينما يصل إليك خبر موتِ أحد كان يشاركك كل شيء، يحدثُ حِدادٌ معيَّن داخلك، ويدخل ذهنك في «كوما» الماضي، لا تريد أن تتذكر الآن أو اللحظة، لكنكَ تفكر في كل لحظة سابقة كان المتوفَّى فيها، كوما! ألا تريد التفكير في المستقبل فمن كان يبنيه معكَ تخلَّى فأي مستقبل بقي؟! أصمت، لا أبكي، الرجل العربي لا يبكي، كان هذا أول درسٍ علَّمتني إياه أمي، أكثر شيءٍ ردَّدته على مسامعي حينما استشهد والدي، وأكثر شيءٍ قد يخنقني، قد يجعلني لا أنسى! هو تلك الدموع التي اختنقت في مقلتي دون أن تهبط، دموعٌ تبقى داخلك تنتظرُ مكانًا معتمًا مُنزويًا لا أحد فيه، باردًا كئيبًا كأرواحنا حينما تتحوَّل لرجال! ليتهم تركوا لنا الدموع مع النساء، ماذا كان سيحدث لو بكينا!

أتنهارُ الجبال مع بكائنا، أم ستنفجر السدود؟ والكوارث أتراها ستهبط؟

توسَّلتُ إيمان أن تتركني وحدي قليلًا، أنا في جبل القلعة أبحثُ عن حصنٍ يواري دموعي، لكن حتى قلاعنا مُنهارة، حصوننا مدمَّرة يا داليا.

لم يبقَ من هذه القلعة سوى بضعة أعمدة، وجسدي بحاجة لعامودٍ كي يتكئ عليه، حقًّا هذه هي قصتنا، انتهى! مشهدٌ حزين وتُغلق الستارة فوق هذا المسرح، هل أستطيع حتى أن أقول لماذا؟

لستُ الكاتب، لستُ المخرج، أنا ممثلٌ ضعيف لا حول لي ولا قوة، كُتِبَتْ قصتنا بيدٍ قدرية، وها أنا أعيشُ الدور، يُفرضُ عليَّ دون أن أختاره، تمامًا كما يُفرضُ الموت على ضحكة عينيكِ يا داليا، كيف له أن يغتال عينيكِ كيف؟

أبحثُ عن مكانٍ يواري ضعفي فلا أجد، أنا المقهور، ماذا صنعتُ ليكون اختباري بهذا الحجم؟ أقبلُ أن ينهار حزبي، وأن يتم التخلِّي عني في العمل، أقبلُ أن تسوء أوضاعكم الماديَّة في غيابي وهذا أسوأ سيناريو قد يهبطُ في خيالي حينما أفكر بكم، لكن أن يزوركم شبح الموت!

أواصلُ السير حول الأعمدة في الساحة المتعبة، أين هم المقاتلون؟ أريدُ أن يصيبني سهمٌ ناري فألحق حبيبتي للسماء، أصرخُ ها أنا هنا أنظر للسماء وأصرخ: «اقتلوني الآن انتقموا منِّي الآن، لكن اتركوا داليا»! وتهبط أول دمعة عاجزة عن الوقوف خلف جدارها، مقهورٌ قلبي يا الله، أشكو لكَ القدر، مقهورٌ قلبي يا الله، مقهورٌ قلبي يا ربي!

أين هي الألغامُ المزروعة في الأرض، ما عادت تنفجر بي؟ أين هي السيوف التي كانت تتطاير فوق قلعة العمونيين هذه! أريدُ أن يقتلني سيفٌ روماني علَّ عمَّانيتي تقبل بي طيرًا رفيقًا لها!

أنا يا داليا اليوم أعلنُ كل الهزائم، قتلوني بهذا السجن! قتلوني حينما منعوني أن أراكِ، قتلوني حينما غادرتِ هكذا، وكأنني لا أعنيكِ! وكأنني لا أعني شيئًا لقلبكِ، رحلتِ... كيف؟ لا بدَّ أن هناك خللا؟ خطأ مقصودًا أو غير مقصود، لا يهمني؟! لا بدَّ أن هناك خطأ؟!

تضعُ يدها على كتفي، أرفعُ رأسي وأهذي: داليا!

تبكي إيمان وتحاول أن تسندني بعد أن وجدتني أنكمش على ذاتي خلف إحدى الصخور، تقودُني لبيت أمي في السلط، أدخل البيت الكئيب، رائحة الصمت تخيِّم على المكان، الظلمة في كل زاوية، شعرتُ لحظتها أنني أشتاقُ الزنزانة التي قضيتُ فيها عامين، كنتُ أظنهما أسوأ عامين من عمري، لم أكن أعلم أن عمري أصبح هو السيئ، لا الزنزانة!

جاءت أمي تحضنني، كبُرت أمي فجأة، لا أعلم لكنني استيقظتُ فجأة على شعرها الأبيض، رجفة يديها وهي تناولني كأسًا من الماء، كانت تبكي بين يدي حينما سمعتُ خطوات طفل صغير ركض لحضن إيمان متجاهلًا إياي، رأيتُ عيني داليا في عينيه، حاولت إيمان أن تخفف عن والدتي التي وضعت عينيها في الأرض بدورها، تخفي دموعًا عن الطفلين، أظن الآخر أنا بطبيعة الحال، ثم جاء صوت إيمان

- هذا ناصر... عرفنا من داليا أنَّكما اتفقتما على اسم ناصر.

كنتُ متماسكًا قبل هذا، كنتُ متماسكًا قبل أن تدور الأرض بي وأشعر بأن هذا الكوكب ما عاد يعنيني، كمية الصدمات والكدمات تجعلني أخفُّ وزنًا، تجعلني أطير وأحلِّق عاليًا، وكأنني في فضاء داليا.

أمسكته بين يدي، بدأ يبكي، لكنني لم أكن لأهتم، عانقته وبدأتُ أبحثُ لوجهي عن مكانٍ بين دموعه، علَّني أخفي دموعي عن أمي.. عن إيمان.. عن الرجولة التي تحدِّقُ بي في عيون النساء حولي!

شعره كشعر داليا، عيناهُ تشبهان عينيها، وبشرته الجميلة الناعمة تجعلني أشتاق لعمَّانيتي التي تركتني للعذاب والقهر واليُتم!

الخطأ الأجمل...
من نحن؟

اسمي ناصر، وتلك عليا الناصري، أختي وأجملُ شيء ورثتهُ في هذا العمر!

الناصري هو اسمٌ وهمي وقد يكون قدريًّا، ليربطني بامرأة طوال عمري، كنتُ الأخ الأب وكل شيء في حياتها!

حينما ألقوها على ذلك الباب كنتُ خلف النافذة كان عمري وقتها ثماني سنوات، لكنني لم أنسى ما حدث!

كنتُ طفلًا عنيدًا شقيًّا، أسبب الكثير من المتاعب في الميتم على حد تعبير الآنسة إيمان مسؤولة الميتم! حينما وجدتني الأخيرة على باب الميتم كما تقول، وقد كان يوم ثلاثاء، كانت هناك رسالة مُلقاه بين قطع الملابس الفخمة التي وُجِدتْ معي!

«انتظريني كلَّ ثلاثاء كي نحكي للقمر عن الوفاء».

هكذا كانت الرسالة، وهنا كانت بداية الحكاية التي ما زلتُ أحملها لهذا اليوم في جيب صدري، كان يوم الثلاثاء يومًا عاديًّا لكل البشر لكنه بالنسبة لي يومٌ متعبٌ جدًّا، هو يومٌ يحمل كل الأسرار بين ثناياه، قد يأتي أحدهم اليوم ليسأل عني! كنتُ أظن أن أمي ستعود يوم الثلاثاء، أو أن والدي سيعود؟ لا بدَّ أن أحدًا سيأتي! وإلا لماذا تركوا هذه الرسالة؟!

لماذا تركوا هذا الألم واختفوا؟!

من كتب الرسالة يحكي عن الوفاء؟ كيف يكون وفيًّا من يلقي طفلًا على هذا الباب؟!

كل يوم ثلاثاء كنتُ البريء الذي يقضي ليلته على النافذة ينتظر قدوم أحدهم! كل خيال يمر على هذا الباب كان يمثل بصيص أمل سرعان ما يختفي!

موجعٌ هو الانتظار، مؤلمٌ هو الصبر، ما أمرَّها أيامنا المجهولة! ما أصعبها ذكرياتنا! هو يوم ثلاثاء جديد وأنا أراقب البوابَّة، أصبحت الساعة التاسعة ثم العاشرة إنها الحادية عشرة، ثم يغلبني النعاس، دون أن يأتي أحد! يوم آخر وانتكاسةٌ أخرى، لماذا يا قلبي تنتظر بعد هذا أن يأتي أحدهم!

لماذا تجرجر أذيال الخيبات، أتحبُّ أن يطول بكاؤكَ على الأطلال، يجيبني صوت روحي بأن البكاء الذي أحياه على الأطلال هو ما قد ينسيني هذا المكان وهذه الزوايا. هذا البكاء الذي أحياه على الأطلال ينسيني كل برودة تسير في جسدي دون أن أحكيها لأم، دون أن أدثرها بنظرة أب دون أن أشكوها لغير قلبي!

أنشغلُ بعدها بعقلي الطفولي لأبدأ عدَّ الأعمدة في الممر الذي أجلس فيه، أتلفَّت حولي، أنظر لكلمات القرآن المرسومة على لوحة معلَّقة، النباتات الجميلة التي تزيِّن الشرفة، وخطٍّ من النمل يتسلق حول النافذة، يذهب

ويجيء، أفكّر هل هذا النمل لهُ عائلة ككل الأولاد في مدرستي، هل يوجد نملة تركها والدها وحيدة أمام بيت نمل آخر؟! ربما هناك واحدة تشبهني، تنتظر أن تأتي عائلتها.

أسند جسدي المتدثِّر بالأمل، بعدما أغفو على حلم وأستيقظ على سراب، أنفضُ عن كتفيَّ كل ما علِقَ بهما من أحلام محطَّمة، وألتفت للممر متوجهًا لغرفة النوم الخاصة بي قبل أن يقطع الليل صوت محرك سيَّارة!! أفتح عينيَّ أتراني سمعتُ صوت محرّك سيَّارة أم هو الوهم؟ فقد تكرر الموقف كثيرًا معي وكثيرًا ما كنتُ ألتفت لأجد اللا شيء، لقد اعتدتُ أوهام أذنيَّ، ولن أثق بهما بعد اليوم، أخشى الالتفات ككل مرَّة أتلقَّى خيبة، خطوتان ثانيتان، صوتٌ آخر ثم ذات السؤال... أهو وهم أم حقيقة؟

تتوقف السيارة بجانب البوابة، وقبل أن أتأكد من هوية الشخص القادم أركض لباب الممر المؤدي لبهو الحديقة، أسابق الريح وأهمس «لقد عادت أمي، لقد عادَ أبي». كنتُ متأكدًا أن من كتب الرسالة كتبها لأنه وفيٌّ جدًّا، وأن قلبي الذي ينبض الآن داخلي ليس إلا قلب أمي وأبي، هي هنا هو هنا، تدمع عيناي وأفكر بشكل عناقهما، أفكرُ بدفء كفَّيهما، باتساع أحضانهما، بأنني أمتلك هذا الحضن ولا أتسوَّله، أهمس: كنتُ متأكدًا أنكِ ستأتين، متأكدٌ أنكَ هنا يا أبي، أمي لا يمكن أن تنسيني؟!

آه يا أمي الدموع تغمرني، قلبي ينفجر، وجسدي يشهق بحثًا عنكما، أتظنون أحضان معلمات دار الرعاية هذه قد تكفي، أتظنُّون أني قد أسعدُ هنا لحظة وأنا بعيدٌ عنكما، لا عذر لكما في ميزان يُتمي!

لا شيء في هذا العالم قد يُشبِعَ حاجتي لعناقٍ واحدٍ معكما، كل جوع هذا العالم ينمو هنا في صدري، أسقيه ببرودة الشوق الذي لا يرتوي، أطعمه بؤسي في صقيع انتظاركما، أجلده بنومي بجانب النافذة كل ثلاثاء، جوعي يتحوَّل لشرٍّ صغير وحقد كبير سيزول حالما أرتمي هناك في أحضانكما.

ما أن فُتِحت البوابة المطلة على الحديقة، حتى أُفاجأ بسلَّة صغيرة بيد أحدهم، ثمانية أعوام تشهد على خراب بني البشر، ثمانية أعوام تتحطم أمام قسوة هذا العالم! يتفاجأ المجهول الجديد باقتحام طفل لمكان جريمته، من يتوقع هنا في قرية في زوايا عمَّان، الساعة الواحدة والنصف ليلًا في هذا الوقت من شهر ديسمبر، لا أظنه تخيَّل أنني قد أوجد هنا، أنا لستُ شبحًا، أنا طفل بعينين سوداوين وشعر بني وبشرة بيضاء أفتح فمي أمام الصدمة! أمام الكارثة، أمام شخص يشبه أمي يشبه أبي، عيناه مرتابتان ولثام يغطي باقي ملامح الوجه! أأنساهما عينيك؟

لو جلدوني؟ لو قتلوني؟ لو غيبوني ما نسيت تلك العينين! أأنسى التاريخ والجغرافيا اللذين شكَّلا كل مستقبلي؟ أأنسى الوحيد الذي جاء على غير موعده، ليصنع كل مواعيدي، جاء بغير يومهِ ليصنع كل أيامي، أأنساهما عينيك؟ لو صلبوني؟ لو استأصلوا كل ما أملك من ذاكرة، ما

ظننتُ أفقدهما. تسري القشعريرة في جسدي ويضع هذا المجهول الذي لم يتردد بالاقتراب مني، يضع السلة أمامي، بعينين داميتين!

الآن أرى عينيه بعدما أصبح على بُعد ثلاث خطوات مني، عيناهُ كانتا وستبقيان سر عمري، ليتني كنتُ أكبر قليلًا حتى أفهم سرَّ عينيه، ليتني كنتُ أقرأ العيون لحظتها لأفهم اللغة التي كان يتحدث بها! اقترب مني وضع السلَّة أمامي وأمسك بيدي، خفت وسرت قشعريرة في جسدي، وضع يدي فوق السلة وكأنه يقول لي اعتن بها، وكلمتان: «اسمُها عليا». ثم صمت للأبد.

كان صوته غريبًا قويًّا، باكيًا مخيفًا، خائفًا متعبًا! كنتُ طفلًا لكنني شعرتُ بكل هذا!

أنا أهبكَ إياها!

أهبكَ ما فيها، ضعها في عينيك! ضعها فوق قلبك، فوق راحتكَ، فوق رأسكَ، فوق ذاتكَ، فوق كل ما قد تظنُّه مهمًّا حينما تكبر، ومهما كنت وأينما حللت، كن لها!

كُن أباها أخاها أمَّها، كن عائلتها، كن عالمها، كن كل شيء فيها.

وضعتُ عيني على السلة وإذا بغطاء أبيض يغطي ما فيها، رفعتُ الغطاء وإذا بوجه أقلُّ ما يُقال عنه إنه ملاك يغطُّ بالنوم، لا يعلم ما يجري حوله، ينام قانعًا بأن ربًّا في السماء يدبِّرُ الأمر له، يرسم تفاصيلَ عنه، يرتب الأحداث له، يرتب أوجاعه وآلامه واختباره وسعادته وأمله ورغباته، كانت فتاة وقبعتها المصنوعة من الصوف الوردي، تسحرُ بياض جبينها،

بزهرة من نفس لون القبعة على الطرف اليمين، رفعتُ رأسي لأجد أن هذا المجهول أصبح داخل سيارته، ينظر لي من خلف عجلة القيادة! ويتأملني! يفكِّر بأن يعود لأخذ السلَّة، ثم يضرب رأسهُ ثم يمسح دموعه، يمسح دموعه ويشير لي بالوداع.

كان أغربَ لقاء قد يحدث مع أحدهم، كان أقصر وأعمق لقاء، لا تُقالُ فيه كلمات، لكنه يحمل في كل لحظة منه ألف كلمة وجملة، ألف شعور ورغبة، أنا الذي جئتُ أركضُ لألقي بذاتي في أحضان أمي وأبحثُ عن أبي، عن شيء يربطني بالماضي، شيء يربطني بتاريخي، إذا بي أصبح أمًا وأبًا وأخًا لهذا الكائن! هذه الملاك الصغير التي تنام هنا في سلة تجمعُ عالمي!

من أنتِ ما اسمكِ؟ أهو عليا حقًّا؟ أسمعته حقًّا؟! أنا في لحظتي هذه أشكك في كل شيء أسمعه، أشكُّ بذاتي! أشكُّ بكِ! أشكُّ بأن هذا العالم قد أنصفنا! أو قد يفهمنا! قد أوجدنا لنحيا غير الشقاء، لكن لا تخافي، أنتِ هنا، وأنا سأتولى عنكِ كل شيء!

في صباح اليوم التالي كان أن استيقظت الدارُ كلُّها على صراخ الآنسة سناء المسؤولة عن الرعاية الجسدية لأطفال الدار، هي التي كانت توقظنا صباحًا لنباشر برنامجنا المعتاد، برنامج يبدأ بالاهتمام بالنظافة الشخصية، ثم التوجه إلى صالة الإفطار، ثم صالة التعلُّم مع معلمات متطوعات، والأطفال الأكبر عمرًا يتوجهون للحافلة التي تنقلهم للمدرسة الحكومية القريبة من دار الرعاية.

لكنها تفاجأت بطفلة تنام في سريري، لم تكن قادرة على كتم صراخها فقد كانت المفاجأة أكبر من استيعاب الآنسة سناء!

حاولتُ تهدئة كل الهلع المنطلق منها:

- كفي عن الصراخ رجاءً، ستوقظين الطفلة.

تجيبني بخوف شديد: «ماذا فعلت؟ من أين أتيتَ بها؟ أنت أشقى مما تخيلتُ! أجب عن أسئلتي بسرعة».

تدخل الغرفة السيدة إيمان مديرة الدار، تتفاجأ هي الأخرى بوجود طفلة تنام على سريري، لكنها تصمت وتنظر في كل الوجوه التي تحاصرنا، بقية أطفال الدار والآنسة سناء ثم السيدة إيمان، أصمت وأنظر في عيني الطفلة، تلك الطفلة ليست المسيح لتتكلَّم لكنني أنظر في عينيها وكأن التاريخ يبدأ من هنا، ستقلب تاريخي ليصبح ما قبل عليا وما بعد عليا!

تطلب السيِّدة إيمان مني الحضور على انفراد في مكتبها، هي تعلم أنني لا أحب الحديث أمام جموع، وهي تعرفني كما تعرف يدها، يستحيل أن أفعل شيئًا خاطئًا، أنا شقي أحيانًا لكنني لا يمكن أن أؤذي أحدًا، أسيرُ قلقًا للغرفة بعدما أخذت السيِّدة إيمان الطفلة بين يديها وسارت بجانبي، تجلس على الأريكة وتدعوني للجلوس بجانبها، الطفلة ما زالت تغفو وكأنها لم تنم الليل بطوله، تضع الآنسة إيمان يدها على رأسي، ثم تسألني:

- هل جاء أحدهم بالأمس؟!

أنا أعلم أنها تقصد عائلتي، فقد كانت تعلم بأنني سرقتُ الرسالة من صندوق الملفات الخاص بي، وأنني منذُ تعلَّمتُ القراءة، كنتُ أبحث دومًا عن كتب جديدة وأوراق وصحف ممزقة أو أي شيء لأقرأه، لكنها لم تتوقع أن أصل يومًا للملفات الخاصة بكل طفل في الميتم، وأن أصل لرسالة وحيدة كانت في ثيابي حينما تخلَّت عائلتي عني، هي تعلم أنني منذُ أشهر بدأتُ في الجلوس قرب النافذة كل يوم ثلاثاء، كانت تعلم بانتظاري الذي لا يعلمهُ أحد!

- جاء رجل غريب ووضع هذه الطفلة أمامي.

ألم يأت أشخاص آخرون معه، هل جاءت والدة الطفلة؟

- لم يأت أحد، فقط رجل.

ثم انفجرتُ في البكاء لن تأخذيها بعيدًا عني أليس كذلك؟

شعرت الخالة إيمان بالذنب لما حدث معي، كنتُ ألمس الحزن في عينيها..

- لن آخذها منك لا تخف، هي شقيقتك الجديدة يا ناصر، ومن الآن فصاعدًا ستكون أولويتك.

أشرقت ابتسامة على وجهي ودموعي ما زالت عالقة على خدي، كانت ابتسامتي مفاجئة للسيِّدة إيمان، فقد كانت أول ابتسامة ظهرت على وجهي منذُ زمن!

الخالة إيمان

ابتسامة جعلتني أؤمن أن هذه الفتاة ستقلب حياة ناصر رأسًا على عقب! كنتُ قلقة عليه، لكنني مع هذا الفرح الطفولي الذي أشرق على وجهه شعرت بالطمأنينة، وكانت توقعاتي تتحقق، جاءت عليا لتقلب حياة ناصر رأسًا على عقب، جاءت لتزرع في روحه الحنان الذي افتقده، جاءت لتنفخ في روحه روحًا وفي قلبه قلبًا وفي وجوده وجودًا، كان لا ينام دون أن يطمئن أنها تغفو بأمان في سريرها قربي، فقد قررتُ الاحتفاظ بالطفلة في سرير قريب مني نظرًا لفرق العمر بينها وبين الأطفال الآخرين، كان الميتم يضم مجموعة لا تقل عن 33 طفلًا، من عمر 4 أعوام حتى 14 عامًا، يتوزعون في شقتين كل شقة 4 غرف.

كان ناصر في غرفة برفقة كل من علي (12 عامًا) وخالد (10أعوام) ومهنَّد (8 أعوام).

باقي شقق السكن كان يتوزع فيها الذكور والإناث بحسب الأعمار والجنس..

لكن عليا التي كانت وحيدة بعمر الأيام، تستمتع بكامل الاهتمام مني ومن المربيات، جاءت عليا لتقلب حياة ناصر، والطفل اللامسؤول فجأة أصبح مسؤولًا، الطفل الذي يتعارك مع الكبير والصغير أصبح وديعًا، أصبح محبوبًا، أصبح كبيرًا مُهتمًا مُحِبًّا. ما أعظمه من وجود! ما أعظمها

من لحظة تلك التي رمتكِ في طريقه! وهل يتغير الإنسان هكذا لمجرَّد أن يوجد أحدهم في حياته!

في صباح اليوم التالي كنتُ قد استيقظت من نومي لأجد أن عليا ليست في سريرها، قلقت للحظات ثم خطر لي أن أذهب لغرفة ناصر، وكما توقعت لقد وجدتها في أحضان ذلك الأب الصغير، كان يضعها على سريره وينام عند قدميها كالحارس لأميرة، اقتربتُ فوجدت الطفلة مستيقظة تضحك لكل ما حولها، عيناها بلورتان بلون أسود لامع، بشرة بيضاء وشعر بني يميل للسواد، ضحكتُ للطفلة وحين اقتربتُ لأحملها وجدت ناصر يستيقظ، ينظر لكلٍ منَّا ويبتسم خجلًا، سألته: لماذا لم تتركها في سريرها؟

يجيبني بخجل:

- لقد استيقظت تبكي ليلًا، وتسللتُ إليها لأرى إن كنتِ استيقظتِ؟!
- وماذا فعلت لجعلها تهدأ؟
- حملتها وأخذتها لسريري حتى لا توقظكِ! وأخذتُ لها بعض الحليب من المطبخ.
- لكنني أخشى أن تؤذيها يا ناصر، هي ما زالت بعمر الأشهر وأنتَ لا تعرف شيئًا عن الاهتمام بالأطفال، ما زلتَ طفلًا يا صغيري.

وقبل أن أنهي كلامي لاحظتُ ملامحه تتغير، لاحظتُ عينيه الدامعتين، لاحظتُ ارتجاف صوته.

- خالة إيمان أنا أريد الاهتمام بها، هي أختي الآن، أرجوكِ ساعديني كي أبقى بجانبها.

بصمتٍ كبير ودهشة شديدة، حملتُ الطفلة وعيني ناصر تراقبانها ثم قلتُ له: اتبعني.

ذهبتُ لغرفتها ووضعتُ الطفلة في سريرها الذي تناوب على استخدامه نصف أطفال الدار حينما كانوا في ذلك العمر! وتوجهتُ للمطبخ قلتُ له:

- ما دُمتَ ستكون مسؤولًا عنها فسأعلمكَ كيف تعقِّم قارورتها، وكيف تحضر لها وجباتها، كيف تتوجه للخالة سناء في أوقات دراستك لتهتم بها إذا لم أكن موجودة.

ضحك ناصر وهو يراقبني ويسجِّل في عقله كل ما أفعله، وأنا بدوري أراقب الفرح الذي يطغى عليه وأخشاه.

عدتُ لغرفتي أفكرُ بهذا الطفل، يرن الهاتف النقَّال ثم يغزو قلبي صوته البعيد، أتوتَّر، أتأكد من عدم وجود أحد قربي، جاء صوته ليزرع الفوضى في أواخر شتائي، يا لصوته الذي لم يتغير يومًا! متعبٌ مُثقلٌ بأشياء كثيرة، سريعٌ غير مهتمٍ بنبضات قلبي ولا يسأل عن روحي، مُهلكٌ مُعذِّبٌ لكل شراييني، أنا اليتيمةُ دون هذا الصوت، أنا الوحيدة التي تستجدي

اهتمامكَ يا صديقي الذي لا يعلم! يا سرِّي الذي يأتي مع كل اتصال، يا ماء روحي، وخطئي الوحيد الذي لا يُغتَفر، متى تشعُر؟

- كيف حالك إيمان؟
- ألا تشعر بأن العالم توقَّف فجأة؟ كيف حالي وأنا التي ما عُدتُ أراكَ أمامي، ما عدتُ أحصلُ على شيء غير صوتكَ، ما عدتُ أعرف كيف ألتقيك، كيف أستنجد بك إذا ما أصبح هذا الواقع ثقيلًا، إذا ما أردتُ أن أبكي على ذراعك، إذا ما قررتُ أن أضعفَ يومًا لأمرضَ، وهذه الأمانة تمنعني؟

تنهيدة صمت ثم اعتراف:

- ما أكبر حاجتي لكِ لو تعرفين؟ ما أكبر حزني بعيدًا عنكم!
- متى العودة؟ ألم يحن وقت العودة؟
- ليس بعد، أنا منبوذٌ يا إيماني! أنا منبوذٌ من وطني من حكومات وطني! من زوجتي التي توفَّيت مبكرًا، منبوذ من امرأةٍ تركت لي طفلًا لا ذنب له سوى أن أكون والدهُ! أنا منبوذٌ من ذاتي حتى! لا أحد يريدني!
- أتقول هذا الكلام لي؟ أتحرقُ روحي بكَ يا صديقي الوحيد!
- أنتِ الوحيدة دون هذا العالم، كنتِ سندي، كاتمة سرِّي، وأمي، أم طفلي، وشاهدٌ وحيد على ما حدث ويحدث، نحن بحاجة دائمة لكِ يا صديقتي!

- هل تكفي كلمة اشتياق واحدة، لا أظن كل أشعار الشوق تفيد ما نحياه الآن، طفلكَ الذي ما زال ينتظر كل يوم ثلاثاء، ما زال يفكر بك، ما زال يشتاقكَ، متى العودة؟ قد بدأ ينشغل عن حبه لكَ ولوالدته بطفلة صغيرة كان هو من صادفها على باب الدار.
- أيُّ طفلة؟ هل وجدَ أختًا أخيرًا؟
- نعم، لكنني لا أراهُ فقط تغيَّر تغيُّرًا بسيطًا، ناصر أصبح طفلًا آخر، وكأنه فجأة نضج، فجأة أصبح مسؤولًا، فجأة أصبح كبيرًا، فقد شهِدَ لحظة وضع أحدهم لهذه الطفلة على باب الدار، ولا أخفيك أقلقني هذا!
- لا تقلقي يا إيمان، حينما نولد في أوطان كأوطاننا نولد كبارًا، نحنُ لا نمرُّ بمراحل الطفولة التي يعيشونها في المجتمعات الغربية! بل ننضجُ وتصبح لنا قضايا نرثها دون أوراق ملكية!
- كيف لا أقلق، هو ناصر طفلي الذي لم أنجبه.
- كل أطفال الدار لن يجدوا أحنَّ من قلبكِ يا إيماني، هذا أحد أهم الأسباب التي جعلتني أختاركِ لهذه المهمَّة الصعبة، كانت الدار هي أهم مشاريع حزبنا؟ أنا وأنتِ ودواليا! كنَّا نصنع أحلامنا بتأنٍّ، هل أخطأنا يومًا يا إيمان بأحلامنا التي كّبُرَت قليلًا؟!
- آه يا باسل... كلُّ ما أعرفه أن ثلاثتنا أفنينا حياتنا لأهداف نبيلة وقد تكون دواليا أعظمنا تضحيةً.

تتوقف الكلمات ويعمُّ الصمت لثوان ويستجمع صوته:

- آهٍ يا داليا! ماذا صنعتِ بنا!
- تشتاقها؟
- أشتاقها؟ أتسألين؟ كما أشتاقُ أن أحضن ناصر لصدري، كما أشتاقُ أن أحضن كل شبرٍ في وطني، في أرضي، ليتهم عرفوا أنهم حينما طاردوني ووضعوا اسمي فوق لوائحهم، أعدموني ألف مرَّة! قتلوني ألف مرَّة!

أنا يا عزيزتي أموتُ هنا، أحيا نعم لكن عقلي هناك معكم، قلبي معكم، لا أملك إلا وظيفتي وشقتي القاتمة وسيارتي التي لا تغني.. كثيرٌ من الجماد فقط كثير من الجماد دونكم!

- ليتكَ تبحث عن حل؟ أتظن أننا نستطيع أن نتواصل مع أحدهم؟
- تعرفين رأيي بهذا الأمر، لن أعتذر يومًا عن ممارسة حقي، نتصل بهم لنخبرهم أننا نعتذر لأننا طالبنا بحق سياسي مشروع؟ نعتذر أننا مارسنا الديمقراطية التي ينص عليها دستور بلادنا؟ أم نعتذر لأننا كنَّا نرى الفساد يأكل الأرض والشعب، وقررنا أن نحارب الفاسدين فأحرقونا! أنا أفضِّل موتي كل يوم على أن أعود لأعتذر، أنا هنا أكتب وأمارس نشاطي بحريَّة أكبر، حتى لو تم إلغاء حزب العدالة في منظورهم! الحزب ليس إلا أنا، والعدالة ما زالت في منظوري مختلفةً عن كل ما يقولون ويفعلون! يصعب أن أتواصل

مع أي طرف، هي قضيتي يا إيماني! هي قضيتي! وما فعلوه بي وبزوجتي... أظنه فات الأوان!

- ما زلت كما أنتَ! لم ولن تتغير! شامخًا دومًا وستبقى! وعذابك هذا ستراه قريبًا نجاحًا! سيتغير الوضع صدقني!
- أتمنى ذلك، اهتمي بنفسك، اهتمي بناصري، أبعديه عن السياسة، واتركيه يرسم، يغني، يكتب الشعر لكن لا سياسة!

أغلق سماعة الهاتف لكن قلبي ما زال يحلِّق خلفه ومعه، لن يعود قلبي لموقعه، فقد كَبُرَ هذا السر، وناصر ما زال يسأل، أنظر من النافذة وأرى ناصر يسيرُ بجانب الآنسة سناء هي تحملُ عليا بين يديها وهو يحاول أن يداعبها دون أن تفهم ما يفعل! لطالما كنتَ مميزًا عندي يا ناصر، لطالما كنتُ أرعى فيكَ والدكَ الذي ترككَ أمانة أثقلت كاهلي دومًا، أنا التي ما نسيتهُ يومًا، وكأنني ورثتُ حُبَّهُ على شكل طفل أهتمُّ به، أصبحتُ أمًّا دون أن أنجبه!

أرى عينيكَ يا باسل في عينيه، أداعبُ شعر ناصر وكأنني أضع يدي على شعركَ. ما أصعب أن تعشق لهذا الحد! أنا أراكَ يا حبيبي كل يوم! كل يوم!

أنا الجبانة التي لم تعترف لكَ بحبٍ يومًا، حينما قابلتك يوم النشاط برفقة داليا توقف قلبي، أحببتُك ولاحظتُ أنكَ معجبٌ بداليا، آثرتُ الصمت، والاحتفاظ بهذا الحب سرًّا، كنتُ أقول في قلبي إن الحبَّ الذي

ينبض في قلبٍ وحيد سيتبخَّر قريبًا، حدث الزواج وكنتُ الشاهدة على سعادة صديقتي ورجلٍ أعجبني، كنتُ شاهدة على قصتكما وكأنني ملاك الحب الذي يحرس العشَّاق ويتألم عنهم، حتى انقلبت حياتكما رأسًا على عقب، وظننتُ أنني ألقيْتُ عليكما تعويذة بدل أن ألقي صلاةً لتحميكما، شعرتُ بالحزن وبدأتُ بالتكفير عن ذنبٍ في عقلي لا يعلم به أحدٌ حتى أنتَ ليومنا هذا!

أخطاءٌ لذيذة..
عليا وناصر

كم كان عمركِ حينما ارتفعت حرارتك بعدما لعبنا بمياه المطر، هل تذكرين؟ حتمًا لا وكيف لبنت ثلاثة أعوام أن تتذكر؟ كان المطر غزيرًا وكانت فكرتي أن أصطحبكِ للحديقة. كنتُ في العاشرة من عمري، أمسكتِ بكلتا يدي وبدأتِ تقفزين في حفرةٍ تجمَّعت بها المياه، كنتِ في قمة السعادة والضحك، ولأن كل ما تفعلينه بالنسبة لي سعادة، قررتُ القفزَ معكِ، كل الطين والوحل لم يكن ليلوِّثنا بل كان يوحِّدنا لذاتِ النَّسب، لذات الجذور، لذات اللحظة التي تم فيها خلقُ روحينا، وجاءت الخالة إيمان معاتبةً لي، أهكذا تكونُ مسؤولًا عنها يا ناصر؟ أتمنى أن لا تُصابا بالبرد بعد كل هذا اللعب! لم أفهم ما قد يحدث بعدها، لكنني ليومنا هذا يا حلوتي ما عدتُ أقفزُ بأي حفرة ماء، ما عدتُ أراها متعة، ما عدتُ أشعرها سعادة!

كيف قد يسعدني ما أتعبكِ يومًا، ارتفعت الحرارة ليلتها، وكانت كل العيون تجلدني! وجهكِ كقطعةٍ من الجمر مُحمرٌّ، والخالة إيمان تركضُ بكِ للطبيب، وألحقها وهي تصرخُ بي: «ابقَ هناك لا تتبعني»، وأنا الذي سيموت لو لم يطمئن عليكِ، كيف أتركُ دُنياي؟! صعدتُ في سيارة الخالة إيمان التي وضعتكِ في حضني مستسلمة للأمر، وصعدت بدورها خلف

عجلة القيادة لتسابق الرياح، وصلنا للطبيب الذي سهرنا في عيادته للفجر كي نطمئن عليكِ!

كنتُ أمسكِ يدكِ الصغيرة بين يدي أحاول امتصاص كل تلك الحرارة منكِ، لحظتها فقط عرفتُ ما أظلمَ هذا العالم دون ضحكة عليا! دون عيني عليا! غابت ضحكتكِ عني يا صغيرتي! افتحيهما وأعدكِ أن أحميهما مني! مني ومنكِ!

كان عمركِ ستة أعوام وكنتُ ثلاثة عشر عامًا حينما قالوا لي لن تستطيع حملها بعد اليوم، لن تستطيع قراءة قصة ما قبل النوم لها في غرفة الخالة إيمان، ولن تستطيع دخول غرفتها فقد تم نقلكِ لغرفة أخرى، وقد تم دمجكِ مع فتاتين في عمر السابعة والعاشرة، لكن عيني ما كانتا تفارقان بابكِ، وحينما نستيقظ أسابق ذاتي لأتجهز سريعًا وأهبط السلالم لأقف قرب بابكِ بانتظار أن يُفتَح، لتشرق شمسي أنا، لتبدأ حياتي أنا، ولتزقزق العصافير في نبضي فأحيا! رأسٌ صغيرٌ يطلُّ على عالمي بزيِّ المدرسة، فستانٌ أزرق وجوارب بيضاء، حذاء أسود، ربطة رأس بيضاء وشعركِ الأسود المُرتَّب للتو، كنتِ تتأخرين، تُبطئين شروقكِ، وبكسلٍ لذيذ تسيرين، وكأنكِ لا تأبهين بكل الخلايا التي في جسدي تنتظر شروقكِ..

- صباحُ الخير عليا
- صباح النور ناصر

تمسكُ يدي بيدها الصغيرة الدافئة...

- تأخرتِ...
- أبدًا لكنني نمتُ متأخرة قليلًا، لم أعتد أن أنامَ دون قصةٍ تقرؤها لي!
- أعلم وأنا حزينٌ لذلكَ يا صغيرتي لكن لا تقلقي.. كنتُ أفكر في ذلك بالأمس، أظنني سأعلمكِ شيئًا أفضل من ذلك، سأعلمكِ القراءة سريعًا، لن تحتاجي لأسماكي بعد اليوم، ستتعلمين الصيد بنفسكِ، وستسبقين كل من في الفصل، بعدها ستقرئين القصص وحدكِ؟ لن تحتاجي لي أو لأي أحد كي تنامي، ما رأيكِ؟

ضحكت لقصة السمكات تلك وقالت:

- نعم، أريد أن أقرأ مثلكَ متى سنبدأ؟
- اليوم حينما تعودين من المدرسة بعد الغداء مباشرةً، والآن إلى وجبة الإفطار، كي لا نتأخر عن الحافلة.

بضحكة بريئة وعينين استيقظتا للتو تفلتُ يدي وتركض.. «سأسبقكَ ككل يوم»!

أضحكُ وأنا أحاولُ التظاهر بالركض خلفها، وهي تطيرُ كالفراشة سعيدةً بأنها تفوز بالسباق، اسبقيني يا أجمل ما في دنياي، ليتكِ تسبقينني دومًا، ما أسعدني بتأخري فيكِ!

بدأتُ تعليمكِ الحروف الأبجدية، وأنا الذي أعيشُ لأسمع صوتَ قلبي تلفظهُ أصوات حروفكِ، أنا أعلِّمكِ كيف تلفظين الحروف، وأنتِ تُعلِّمين قلبي كيف يتشكَّل فوق أحبالكِ الصوتية، كيف يكون ليِّنًا بحروف اللين التي تلفظين، وكيف يمتدُ صبري بين مدودكِ، كيف يذوب مع كل ألفٍ وباء، مع كل تاءٍ وياء، آهٍ يا حرف الهاء ماذا فعلتَ بي؟ أضعُ يدي أمام شفتيْ وأقول لكِ يجب أن تشعري بأنفاسكِ حينما تلفظين الهاء، لتمسكي يدي وتضعيها أمام شفتيكِ، وتسألينني بكل براءةٍ هكذا: هاااء! ما كنتُ أعلم أنني سأبني لي ذاكرةً مرتبكةً معكَ يا حرف الهاء! ما كنتُ أعلمُ أن حصةَ الحروف هذه مع صغيرتي ستلاحقني مع كل فعلٍ أكتبه وأقرؤه! وستبني لي سياجًا فقط على مقاس أمواجٍ صوتية علياويَّة. ما أجمل ما أسَّسهُ داخلي حبُّكِ، يا طالبةً علَّمتني كيف أقرأُ قدري وهي التي لم تكن تقرأُ بعد!

كتبتِ اليوم أولى كلماتكِ، كتبتِ ماما ثم بابا، كتبتِ اسمكِ وكتبتِ اسمي بعدها، رسائلكِ الصغيرة ملأت غرفتي وغرفة الخالة إيمان، ولوحاتكِ ملأت جدران الدار، ما أجمل خربشاتكِ! يا الله كم أطلتُ التحديق بها، كم كنتُ أبحثُ عن خيالي بين تفاصيلها، كم كنتُ أحمقَ معكِ! وحدكِ التي سمحتُ لها بأن تجعلني أحمق، بأن ترسمني فقط أحمق! ها أنتِ تخطين أولى رسائلكِ يا جميلتي، وتكتبين عزيزي ناصر، صديقي ناصر... أخي ناصر، كم أحببتُها رسائلكِ تلك، أنتِ تدفنين

سعادتي بين تلك الحروف، فوق تلك الظروف التي تلصقينها من ورق، أذكرُ أنني قررتُ يومًا أن أشتري لكِ قلمًا ودفترًا لتكتبي مذكراتكِ كهديَّةٍ ليوم ميلادكِ، نعم يوم ميلاد صغيرتي هو ذلك اليوم الذي وُضِعتْ فيه على باب الدار، في السادس والعشرين من ديسمبر، نحنُ الذين لا نملكُ يومًا محددًا وتاريخًا محددًا للولادة، نملكُ أكثر من ميلاد، نولدُ حينما يضعوننا على باب الدار دون أن يقتلونا! نولدُ حينما نعشق أول عشق، نولدُ حينما نجدُ لنا أبًا أو أمًّا، نولدُ حينما يحدث لنا شيء يراه البشر عاديًا، لكن، لنا، هو حتمًا استثناء!!!

كانت الخالة إيمان تعطيني مصروفي من والدي الكفيل الذي لم أرهُ يومًا، كل ما أعرف عنه أن اسمه جواد الخير، لا أعلم إن كان اسمهُ حقيقيًّا أم لا، لكنهُ كان جوادي الذي يجعلني أؤمن بأن في هذا الوجود شعاعًا من الخير في كثير المجهول الذي نحياه، حصلتُ على المال وطلبتُ إذنًا من الخالة إيمان التي وافقت على أن ينتظرني سائق الحافلة بعد المدرسة، وغادرتُ المدرسة يومها لأشتري لمدللتي بكل المال ما تحتاجه لرسائلها: أقلامًا ملوَّنة ودفاتر للرسائل ومغلفات جميلة، وكأنني أشتري لذاتي، اكتفيتُ بقلمٍ جديد لي فقد كنتُ بدأتُ الكتابة كثيرًا، بدأتُ أكتب مخطوطًا من مذكراتي مع صغيرتي، أسرار مراهقة أحكيها للورقة ولا موعد تسليم لها، رسائلي لكِ لا تحتمل موعد تسليم عاجل. حينما وصلتُ الدار، كانت عليا بانتظاري ودموعها على خدها، والخالة إيمان

تحاول تهدئتها، وحالما رأتني قفزت من حضن الخالة وركضت نحوي، ألقيتُ بكل ما كنتُ أحمل في يديَّ وألقيتُ كلَّ ما كنتُ أحمل من قواعد للدار، ألقيتُ كل بؤسي وأنا أعانق ملاكي التي تشبَّثت بعنقي ودفنت رأسها فوق كتفي، ماذا حدث؟

- لماذا كل هذا البكاء ماذا حدث؟
- لا تتركني يا ناصر، يريدون أن يأخذوني بعيدًا عنك؟ ألا يعلمون أنني لا أستطيع العيش دونك؟

قلبي توقف مع تلك الكلمات، عيوني ستقفز لتنبش كل ما يخفونه الآن من أسرار، صرختُ بالجميع وأنا أحامي عن فتاتي:

- من يريد أخذكِ؟

هنا جاء صوت الخالة إيمان ليقطع صوت بكاء عليا:

- لا أحد سيأخذها ناصر، لكن هناك عائلة كانت تبحث عن طفل للتبني، وجاؤوا لزيارة الدار ككل الزيارات التقليدية، والأم أحبت أن تجالس عليا وتتحدث معها، وقد سألتني إن كان من الممكن أن نقوم بمعاملة للتبني إذ ستتمكن من توفير مكان أفضل وبيئة أفضل لها، وأنا كنتُ أسألها رأيها فقط!

لم أكن لأفكر بشيء لحظتها إلا دموعكِ يا قمري، كيف كان هيجان بُركاني كيف صرختُ وبكيتُ وقتها، كيف ضممتكِ لصدري وتوحدت

دموعنا ليتجمع كل من في الدار حولنا ويبدؤوا البكاء علينا، هم يبكوننا ويبكون أنفسهم! يبكون عجزهم عن تغيير واقع مرير خُلِقَ لنا، وهنا جاء صوت الخالة إيمان لينهي كل هذا الصراخ والبكاء:

- لن أرسل أحدًا لأي مكان، لا تقلقوا لستُ أنانيَّةً لكن عليكم أن تفكروا بأنها فرصة! أنا لن أدوم لكم جميعًا على أي حال! أنا أفكِّرُ بكم أكثر مما أفكِّر بذاتي!

استغربت كلمات الخالة إيمان، شعرتُ لحظتها أنني لستُ هنا، لستُ أنا، ليست الدار، ليست الحياة! أنا فقط مع صغيرتي، مع حلمي وسأبقى معها، لن أسمح لدموعها أن تنزل ثانيةً! لن أسمح لها بأن تبتعد!

هدأت عليا بعدها، وتناولنا الغداء جميعًا لكن الصمت كان غالبًا على المكان، الجميع هادئ، لحظات وجاءت هبة شريكة عليا في غرفتها، كنَّا اتفقنا أن تحضر الكيكة لنفاجئ صغيرتي، نسينا كل مخططات عيد الميلاد مع هذه الصدمة!

- عيد ميلاد سعيد عليا.

بعينين منتفختين تتفاجأ عليا، تدهشها الكيكة والشموع، نبدأ بأغنية عيد الميلاد، ويجتمع الجميع لتفرح ملاكي، تضحك أخيرًا وقد نسيت كل ما أوجعها قبل قليل، لكنني لم أنسَ، لا أستطيع أن أنسى، أحضرتُ لها الهديَّة، اشتعلت النيران في عيني صغيرتي، لم أكن أعلم أنني لحظتها

منحتُ أعظم كاتبة في تاريخي أول دفاتر وأول ظروف رسائل! رسائلها! رسائلنا! ما أعظمها رسائلنا يا عليا! تاريخها طويل وأنا لا أتعبُ منها! لا أملُّها!

رسائلنا هذه هي ما بقي شاهدًا لهذه اللحظة على كل شيء!

الخطأ الثالث...

هل تقتل رصاصة واحدة ثلاثة أشخاص؟ ربَّما!

رصاصة واحدة، وانتهى كل شيء!

سمعتُ صوتَ الرصاصة وأنا أغادرُ بيتي متجهًا نحو فرقتي التي تنتظرني، وفور أن وصلتُ إلى عتبة سيارة الجيش التي كان يقودها صديقي وشخصان آخران معنا في ذات الشعبة العسكرية، هرعنا للبيت لنرى ما لم أظنه يحدث يومًا!

مسدسٌ بالقرب منها، ممدَّدةٌ وبحيرة الدماء تغطي الأرض، رصاصة اخترقت قلبها، رصاصة واحدة، كانت تكفي لموْتِ ثلاثتنا، رصاصة واحدة كانت تكفي!

يصرخ أحمد بي أسعف الجنين! احملها إلى المستشفى! لم أكن أفهم ما يقول، أيُّ جنين؟ كنتُ جالسًا أُحدِّقُ بها! أفكِّرُ بأنني لم أعرفها يومًا!! وأن ما أراهُ الآن هو فقط حلم.. يسحبها صديقي من بين يدي، يحملها ويركض وهو يصرخ لنسعف الجنين! الجنين ما زال على قيد الحياة حتمًا، يقفز إلى السيارة ويصرخ بأحد الضباط أن يبقى معي والآخر يساعده في نقل رغد للمشفى!

أنا، فقط، لستُ راغبًا في التصديق... صمت المكان مؤذٍ جدًّا!!! لستُ راغبًا في إكمال ما بدأناه! لستُ راغبًا بعد اليوم! حتى اسمي لم يعد راغب! لم تعودي هنا!

لا رغد، هذا يعني حياة خالية من الحياة، أنا الذي قتلتكِ، إنهُ خطئي!

لا أعلم كم مرَّ من الوقت وأنا أجلسُ هكذا، وذاك الذي يجلسُ بجانبي ينفث سجائره مشمئزا من دمائكِ التي تغطي الأرض وتغطي ثيابي!

هو زميل لي، طوال حياتنا لم نتحدث أنا وهو إلا جملا قصيرة بحكم العمل!

هو الآن جالسٌ في بيتي، شاهدٌ على موتنا! يجلسُ بحذائه القذر على مقعدكِ، يدخِّن السجائر المحرَّمة في بيتنا! ويحدِّقُ بي، يتابع فيلمًا أنا بطله!

ماذا علي أن أفعل لأجعل هذا الفيلم ممتعًا لهُ يا رغد؟!

هل كان يجب أن أطيل بكائي ثم أستجدي منه سيجارة وأن أجلس وأحدثهُ عنكِ! هل سيفهم هذا الغريب أيًّا من كلماتي؟ أيًّا من رغباتي؟ هل سيفهم قصة عشقنا، ثم احتراقنا، ثم يأسكِ وهروبكِ مني؟! هذا فيلم هادئٌ وأنتِ لا تحبين الهدوء!

ما رأيكِ يا رغد أن أتناول مسدسكِ الذي ما زال أمامي، والذي لم أكن أعلم أنكِ ستحتاجينه لشيء كهذا يومًا وإلا لما تركته بين يديكِ كإرثٍ من والدكِ؟!

ما رأيكِ أن أضعه الآن في فمي، فتخرج الرصاصة من رأسي، لأنضم لكِ حتى لو متأخرًا في حفلةِ الانتصار التي حققتها للتو؟! كم هو جميلٌ أن أتواجد معكِ حيثما تكونين!

انتهاءٌ لذيذ، جبانٌ لكنه يغريني كثيرًا، وأنا الذي ظننتُ ما قد نرثهُ عن أهلنا قد يعطينا أمجادًا وأعمارًا طويلة! أضحك! نعم أنا أضحك! يظن الجالسُ أمامي أنني جُنِنْتُ، وبرود ملامحه الشقراء يقتلني! ماذا كنتُ أظن، ما ورثناهُ عن عائلاتنا سيُخلِّدُنا، نسيتُ أننا كُنَّا وسنبقى دومًا استثناء!

أم تراني أضعه على قلبي؟! تمامًا كما فعلتِ! في مكانكِ هنا؟ وصوت النار ذاته.

هكذا سيكون فيلمًا غير عاديّ! مجنون كقصتنا! ككل شيءٍ بيننا! كوداعكِ لي الذي لم أظنه وداعًا لكثرة غبائي! لن أسامح ذاتي على غبائي ذاك! لن أسامحني! كنتِ تعانقينني بطريقة مختلفة، كنتِ تضمينني بطريقة لم أفهمها! برودة أصابعك التي عشقتها دومًا، لم تثر شكوك محقق مثلي، أنا الغبي الذي لا يستحقكِ، كيف لم أنتبه؟!

هل تعلمين أنني الآن أشعرُ بأنني أريد قتل كل هذا العالم، لماذا أنا الذي يجب أن تموتَ حياته وحده؟ لماذا أنا من يجب أن يعاني؟ لا أعلم لماذا أشعرُ برغبة كبيرة لأن أقتل هذا الجالس فوق مقعدكِ أيضًا، الذي لا يلتزم بأيٍّ من قوانينكِ في بيتنا! سأقتله فهو بسجائره العفنة يقضي على رائحة بيتنا الدافئ! وطين حذائه قد لوَّث بيتنا يا حبيبتي! سأثأرُ لكِ منه ومني! هو لوَّث بيتنا وأنا الذي لوثتُ حياتك بهذا الخراب، كنتُ طوال

حياتي أخشى من هذه الحماقات التي تعترينني، لكنني أمسكُ المسدس وأُصوِّبه نحو رأسه، وهو كالمشدوه يضيعُ اللون من وجهه، يلقي بالسيجارة يرفع يده يحاول تهدئتي لكنني!

يقطعُ علينا رنين الهاتف، وكأول مرةٍ أشعرُ فيها بأن الله موجود! أنظر باتجاه الهاتف الذي كان بجانب مقعده، أنظرُ بعينيه وكأنه يستغيثني كي يجيب الهاتف!

أعطيه هزةً من رأسي بأن يجيب والمسدس ما زال مصوَّبًا نحوه!

لا بأس، مكالمة هاتفية قبل أن نموت كلينا يا عزيزتي! لن يتغير شيء، أليس كذلك يا رغدي؟! يقطع الصمت صراخٌ على الهاتف، ويحاول هو استرجاع صوته، العرق يتصبب من جبينه، وصوته المُرتجف يتلعثمُ وهو ينقل ما يسمع على الهاتف:

- الجن.. ال... الجنين.. أنقذوه، إن... إنها بخير... إنها بالمشفى... إنها أنثى!

رغد أنا نسيتُ حتى أنكِ تحملين طفلًا لنا، نسيتُ أنكِ تصنعين المعجزات وتتحكمين في حياتي حتى في آخر أنفاسكِ، تتجمَّع أولى الدموع في عيني!

أخيرًا أنا أشعر من جديد، قلتُ لكِ لا أعلم كم مرَّ عليَّ من الوقت الذي ظننتُ فيه أنني متُّ، أنا الذي لا يعلم بعدُ أيَّ الأخطاء ارتكب، ولماذا يحدث لي هذا، ألم تعديني أننا سنشيخُ معًا، ألم تقولي أعشقكَ

اليوم وأبقى بجانبك للأبد! لماذا جعلتِ أبدنا قصيرًا لهذا الحد، وأنا الذي ظننتكِ لا تموتين بسهولة! لماذا يا رغد؟

أيُّ إحساس بالذنب هذا الذي يجعلكِ تموتين هكذا دون أن تفكري بي! هو إرثُ والدكِ المشؤوم الذي لاحقكِ، لستِ أول امرأةٍ يموتُ والدها وهي بعيدةٌ عنه، فلماذا تعاقبينني بهذا؟ لماذا تعاقبين طفلتنا التي لم تتمكن من التنفُّس إلا حينما وضعوها فوق صدركِ الخالي من النبض، لقد أوهموها أنكِ على قيد الحياة، وأحمد يحملها بين يديه ويضعها في حضني، يحاول مواساتي، يحاول إرجاعي عن جنوني، أنا الذي سيجُن، بماذا أخطأت؟ أنا الذي خذلتُكِ ألف مرة دون أن أعلم، كيف لي أن أفهم أنكِ قد تستسلمين بسهولة لكل تلك الأوهام؟! يقول الطبيب إن الاكتئاب الحاد قد يدفع المرأة لقتل نفسها، وإن هذا الهرمون الذي يتحكم بكِ كان يدفعكِ نحو اليأس، هو يؤكدُ لي أنني من قتلكِ! قال لي طبيبكِ النفسي حينما اختلى بي، ستفقد شهيتها للكلام، ستفقد شهيتها للطعام، ستفقد شهيتها للضحك، كلُّ هذا طبيعي، فقط حاول إعطاءها مساحة من الاهتمام دون أن تُشعرها، هل اهتممتُ بكِ كما يجب؟!

هل عانقتكِ كما يجب؟ هل قبَّلتُكِ كما يجب؟ آهٍ ماذا فعلتِ بي يا يقيني الوحيد! سأُجن، كل فعل معكِ بدأ يُصبحُ فعلًا ناقصًا في نظري، أنا لم أهتم بكِ كما يجب! لم أتمكن من أن أنسيكِ كل أحزانك، وأنا الذي ظننتُ أنكِ أصبحتِ بخير! أنكِ لا تحتاجين للأطباء بعد اليوم، لماذا يا رغد تقتلينا؟ وهذه الصغيرة التي يضعونها بين يدي ماذا أقول لها؟

أأقول لها كان لكِ أمّ ولكنها استسلمَت؟

أم أقول لها أنا والدكِ الذي لم يتمكن من حماية حب حياته؟ والدكِ الذي قتل والدتكِ حبًّا، ليتني حينما رأيتكِ يا رغد ذاك اليوم في مكتب صديقي تركتكِ وانصرفت، ليتني لم أشارك معه في تلك المحاضرة لمتطلَّب العلوم العسكرية التي عُقِدتْ في جامعتكِ، ليتني لم أستمع لزميلي لنشرب فنجان قهوة في مكتبه، ليتكِ لم تأتي لإعطائه تقريرًا يحكي غيابكِ عن اختباره، لكنتِ الآن على قيد حياة مع رجلٍ أقلُّ ما يُقال عنه إنهُ من ذات ديانتكِ، سيحبه والدكِ، وتدعوه والدتكِ لتناول الغداء مع العائلة، لما كانوا أبعدوكِ عنهم، لبقيتِ جزءًا من جمالهم بعيدًا عن قُبْحي، من أنا حتى أتحمل موْتَ والدكِ وأنتِ منبوذةٌ هنا عندي، هل خذلتكِ لأنني أحببتكِ؟ لماذا الآن تُريننني انتقامًا؟! لماذا الآن تنظرين لي وكأنني حماقة! أنا الحب يا رغد وموْت والدكِ هذا ليس ذنبنا! ليس جريمتنا، أنا الذي ما كنتُ أستطيع إلا أن أتحمل ضرباتك وصراخ قهركِ وأظافركِ تترك أثرها فوق عنقي وصدري، اصرخي..

أفرغي كل ما يقهركِ فوق صدري، اقتلي كل شيء لكن لا تموتي!

لا تموتي!! أفكرُ بأنني أريدُ الهرب من كل شيء، أريدُ الهرب من كل هذا العالم، يهتم أحمد بإجراءات المستشفى والدفن، يضع الطفلة في يدي ويقول لي: «اعتن بها»، تُدفن زوجتي وأحملُ طفلتي لبيتٍ بارد، أرضهُ ما زالت ملطخَّة بالدماء، هل يمكن أن يُقال عنه «بيت»، هو انتقام والدكِ منَّا، رجل حياتكِ الأول، ها هو يسرقكِ مني بعدما سرقتكِ منه!

لا أستطيع أن ألوم قلبكِ أكثر، قد اخترتُ امرأةً أعلم أنها أطيب قلب فوق هذا الكوكب، وأعلم أنكِ إذ تقتلين نفسكِ فهذا الوفاء الذي تفتدين به حبكِ الأول، نعم أبرر لكِ انتحاركِ، أنا الذي سيكون معكِ حتى في قرارات تقتلنا! سأكون دومًا إلى جانبكِ، كنتُ أحاولُ انتشالكِ من أحزانكِ بحبي، لكنني لم أنجح، أعترفُ أنكِ كنتِ دومًا رُبَّان السفينة، وأنني يا رغد كنتُ تابعًا لكِ، كنتُ أشاركِ وأتبعكِ أكثر، أستسلمُ لكِ أكثر، وأعشقكِ أكثر!

أسمع صرير الباب، جاءت التي رفضتنا منذ البداية، جاءت التي كرهتنا، جاءت التي تحبُّ عادات مجتمعها أكثر من حُبِّنا!

تدخل متوجسةً من منظر الدماء، الشقة التي لم تعد تشبه بيت الحب الذي دخلته قبل اليوم، زارتنا قبل ثلاثة أعوام ناصحةً لنا، تطالبنا بالطلاق وعودة رغد لعائلتها، ابن عمِّها لن يتركنا في شأننا، سيفعل، سيهدد، سيدمِّر!

وكان ردِّي أن تبقى بعيدة، وأن تبقى على الحياد حتى لا تتورَّط في قضَّتنا، تم نبذ رغد ابنة مادبا من عائلتها، تبرّؤوا منها فقد تزوجت مسلمًا، بالمقابل أنا طالبتُ والدتي بالابتعاد فلا أريدُ أن يلحقها أذى من ابنها النابلسي الذي استشهد والده في قضية والآن يحارب هو في قضيَّة أخرى!

ما زلتُ أذكرُ ما قلتُ: من قال إنني أهتم يا أمي؟ من قال إنني أهتم وأنا أهيم بتلك التي أمامي؟ هل تظنين أنني جبان حقًّا يا أمي؟ لقد ربَّيتِ داخلي رجلًا لا يتخلى قبل أن أكون عاشقًا لا يستسلم. كيف تطالبينني

بإعادتها لأهلها، للقبيلة، لابن العم الذي لا تحبه؟ تركنا لكم أسماء عائلاتنا وديناتنا! نحن اتخذنا الحب لقبًا وديانة.

تبدأ بأنينها المكتوم وهي تراني أحمل الطفلة بين ذراعي وبقعة الدماء ما وجدتْ أحدًا لينظفها، حضنتني، قبَّلتني، قبَّلت يديَّ وقدميَّ وحضنت طفلتي، بكتْ كما لم أرها تبكي أبي من قبْل، بكت النزوح والحرب، بكتْ النكبة والنكسة، بكت البيت القديم، بكت حظي وحظها وحظ أبي قبلنا، وبكت معه الشوق لأهل لم تعد تعلم مصيرهم، بكتْ وبدأت تساعدني لأستند عليها، ما زلتُ طفلًا يا أمي، هل ظننتِ حقًا أنني رجل؟ المصائب تعيدنا أطفالًا! الكوارث تعيدنا أطفالًا، وكأنها صفعات تذكِّرنا بأن النضج الذي لطالما حلمتم بأن تكونوه هو هذه الصفعات، لماذا كنَّا نتعجَّل أن نكبر! لماذا تعجّلنا أن نجلس في مقعد السيارة الأمامي؟ ليتنا بقينا دومًا نتقاتل في المقاعد الخلفية، نزدحم فيها، وأكبرُ همٍّ لنا الجلوس قرب النافذة التي تطل على عالمٍ كبير نتأمله من خلف زجاج فقط! نتأملُ فيه المارَّة على الطرقات، والكثير من الأدوار، النصوص، الروايات، خلف كل وجه، خلف كل عين وكل إيحاء هناك قصة، لم يكن لنا دور في أيٍّ منها، كنَّا نتمتَّع بمشاهدةٍ مجانيِّة تنتهي بغفوة قرب النافذة! والآن حينما تحقق الحلم ونضجت جلستَ في المقعد الأمامي، نيْلُ هذا الشرف يعني أن تبدأ بتحمُّل الكوارث التي ستحدث، أنتَ في المقدِّمة، الآن تجلس فيها، هل أنت جاهزٌ لتتلقى أولى الكدمات، لا تنس ربط حزام الحنان، كانت أمي هذه حزام أماني دومًا.

غفوتُ في حضن أمي، وحضن صغيرتي، أنا أضعف الآن من أن أحمي أحدًا، فكيف أكون مسؤولًا عنكما! غفوتُ مكسورًا، متعبًا من كل هذا العالم، خسرتُ حربي قبل أن أبدأها، خسرتُ قلبي وحبي وحياتي، لا أصعب من أن تودِّع سبب حياتكَ مبكِّرًا، رصاصة قتلت ثلاثًا! قتلت ثلاثًا! رصاصة استنزفتنا، أحرقتنا.

استيقظتُ على صوتها يبكي، من أنتِ؟

جاءت أمي تحمل قارورة الحليب بين يديها، كنتُ أنظرُ إلى الطفلة وأحاول أن أتجاهل من هي! كلَّما رأيتها شعرتُ بأن هناك كارثة في ذاكرتي تريد أن تظهر، أمي هنا، هل هو وقت الذهاب للجامعة؟ ستعد الإفطار لنا ومن ثم أنطلق لجامعتي لدراستي وحلمي، لكن صوت بكاء هذا الطفل يوقظ حلمي، أنظر ثانيةً، أراها، عيناي في عينيها.. صورتنا معلَّقة على الحائط، ثوب زفاف أبيض بسيط، شعرها بني طويل جدًّا، وضحكة تشبه ضحكة الأطفال في أول أيامهم، أذكرُ يومها كيف كنَّا نرقص، كيف أعطتكِ صديقتكِ الثوب، وكيف أخذتُ من أحمد بعض النقود لأستأجر لنا بيتًا، وكيف ارتدينا ملابسنا، وكيف قام أصدقاؤنا في الجامعة بالتبرُّع لعمل حفل صغير في مقهى قريب من الجامعة، الصورة تحمل عيوننا وعيوننا تحمل سعادة تكفي كل هذا الكوكب، أضحك لحظتها، وأظنُّ أن والدتي تنبهت لضحكي فسألتني:

- هل أنتَ بخير؟

هززتُ رأسي دون أن أفقد الصورة تمامًا، لكن حتى والدتي هنا ماذا تفعل؟ تزعجني بالسؤال؟ ثم الطفلة تبكي من جديد، لا أستطيع أن أبقى مع الصورة أكثر، ضجة الطفلة تستوقفني، طفلة من هذه؟ وأين حبيبتي أين التي في الصورة؟ ثم تهبط الحقيقة فجأة، تصفعني، وتبدأ الدموع بإحراق وجنتي، وبعدها تلتفت لي أمي لترى دموعا ونحيبًا صامتًا! تهمس لي:

- لا تفعل بنفسكَ هذا يا ولدي هوِّن عليك.
- ليتها عادت لعائلتها ذاك اليوم، ليتني ما أبقيتها عندي، ليتني لم أكن رجلًا وتنازلتُ عنها، كانت ستبقى مع عائلتها أو على قيد الحياة حتى مع رجل لا تحبه!
- هي أقدار، كل كلمات ليت هذه لن تفيد، لم يعد لها حياة هنا!
- أين أخطأت قولي لي يا أمي؟ لقد عشقتها، الآن قلبي يحترق يا الله! لا أظن شيئًا سيداوي جراحي هذه. لن تغفر لي هذه الطفلة! لن تغفر لي!
- لا بأس يا بني، لا تفعل هذا بنفسك، إن كنتَ لا تهتم لنفسك فلتهتم لأمر الطفلة المسكينة التي لا أم تهتم بها. ماذا ستسميها؟

ضحك وهو يجفف دموعه:

- كانت تريد أن تسميها «عليا» إذا ما كانت فتاة، وإذا كان صبيًّا كانت تحب أن تناديه عادل!
- إذن اسمها عليا.

حرَّكتُ رأسي المثقل بالألم والخوف... نعم هي عليا!

- راغب أعلم أن الوقت غير مناسب للحديث عن هذا، لكن أخشى عليك ردة فعل ابن عمِّها المجنون!

خطأ لا يشبه باقي الأخطاء..
التخلِّي

عاد باسل دون أن يعود تمامًا، ما زلتُ أذكرُ صرخاته في زوايا القلعة، لتجعل من هذا الجبل شاهدًا على قصص أخرى لا يرويها التاريخ لكن أرويها أنا الآن، هل قلتُ إن الحب يغيرنا أحيانًا؟ نعم، والموت يغيرنا أكثر، ببساطة قبل موت داليا كان باسل رجلًا آخر، كان الطموح يقفز من عينيه، الحب وشغفه بالتغيير يقود فينا الرغبة لأن نكون تحت قيادته. بعد موت داليا أصبح شخصًا آخر، أصبح هادئًا منطويًا، يكتب الكثير من المقالات السياسية الهجومية، كان يصبُّ غضبه، بسبب ما حدث معه سواء السجن أو موت داليا، بهذه المقالات التي أصبحت مصدر خوفٍ عليه، امتنعت معظم الصحف المحلية عن النشر له، وبقيت مجلة أو مجلتان فقط. وفي كثير من الأحيان، يتم اقتصاص جزء كبير من المقالات بسبب الجرأة الكبيرة التي كان يكتب بها، مما اضطره للتهجم على مسؤول الرقابة في الصحيفة، وحتمًا تم التخلي عنه، لم يتم ناصر ثلاث سنوات حتى بدأت أعراض التعب على والدة باسل السيدة رفيدة تظهر كثيرًا، وبعد صراع مع المرض، توفِّيت بعد أقل من ستة أشهر، انتهت فترة العزاء الصعبة على الجميع، وجاءني باسل بآخر قرار تم اتخاذه، أريد منكِ افتتاح دارٍ للرعاية، في البداية لم أفهم ما كان السبب وراء هذه الفكرة،

كنتُ أعلم أنهُ شخص طيب القلب، ويحاول أن يساعد الأيتام، لكنني لم أتخيل أن يفعلها محاولًا أن يداري نشاطات أخرى وحوالات بنكية بمسمَّى دار الرعاية. كان يحاول أن يطبق قواعد روبن هود في مكان مختلف، في غابة باسل هذه المرَّة، لا أستطيع أن أجزم بأنهُ أخطأ، لأنني كنتُ متأكدة أنه ليس من النوع الذي قد يسرق أو يتهوَّر في عمليَّات مشبوهة مع جماعات مسلَّحة، لكنه كان يحاول أن يصنع عدالته الخاصة، وبطريقته الخاصة، في أوطانٍ لا تعترف بهذه الحرية تمامًا، بقيتُ على تواصل معه وكان يحضر ناصر لي بشكل يومي، يبقى معي حتى يعود من العمل، أنا أشرفُ على دار الرعاية الجديدة، أرتبُ أوراقا حكومية، وأرتب موافقات لاستكمال مشروعنا الخيري، لا أعلم إن كنتُ أخطأتُ حينما كنتُ أتبع باسل في كل ما يفعل، أنفِّذ كل ما يطلب مني، ولائي وولاء قلبي لهُ ومعه، انتمائي لهُ حبٌ واندفاع وتعاطف قبل كل شيء!

اختفى باسل واختفى معه ناصر، حينما ذهبتُ لزيارتهما كعادتي اليومية، وجدت البيت مقلوبًا رأسًا على عقب، الكتب، الأوراق، الثلاجة وحتى خزانة الطعام. كل شيء في الخزائن مُلقى على الأرض، ولا شيء يحكي أنَّ لصًّا كان هنا، حينما سألتُ الجيران قالوا لي إنهم رأوا سيارة شرطة تقف أمام المسكن، كسروا الباب ودخلوا عنوةً، جننتُ، ماذا قد يكون حدث لباسل والطفل، مسكينٌ هذا الطفل، من يعتني به الآن بعد وفاة جدته، أين قد يأخذه باسل في كل هذا؟!

مرَّ يوم ويومان دون أن أجد لهما أثرًا، لم أترك مشفى أو سجنًا أو حتى مركزًا طبيًّا دون أن أسأل عنهما لكن دون نتيجة، جاءت الشرطة للتحقيق في دار الرعاية، الأوراق لم تكن تحمل لبسًا لكن وصول حوالات مالية كبيرة باسم الدار ولشخص خرج للتو من السجن جعلهم يشكُّون بعودة باسل للعمل الحزبي، بعد تحقيق طويل، سمحوا لنا بإبقاء الدار والمسؤولين عنها، بعد أن تأكدوا من أنني المسؤول الوحيد وأن باسل مجرد متبرع حاله حال الآخرين.

مرَّت الأيام، وأنا قلقةٌ على باسل وناصر دون أن أعرف لهما طريقًا، حتى جاء اليوم الذي انتظرته، كان ذلك بعد شهر من الغياب، يطرقُ أحدهم الزجاج في غرفتي في الدار. كان الوقتُ أول المساء، أنظر من النافذة لألمح شبح أحدهم، كان قلبي متأكدًا أنه باسل، توجهت للبوابة وبعدما تأكدتُ أن لا أحد في الممر أو الطريق، فتحتُ الباب وتأكدتُ أنه هو، يحمل طفلًا على كتفه وحقيبة على كتفه الآخر. أن يعود باسل، هذا شيء كنتُ أنتظره، لكن أن يعود شبح باسل! وجهه الغاضب، ملابسه المتسخة، رائحته ورائحة هذا الطفل الذي يحمله، أنهارُ لهذا المنظر، أسارعُ بوابلٍ من الأسئلة:

- أين كنتَ باسل؟ ماذا حدث؟ لماذا لم تحاول الاتصال حتى؟ أين أخذتَ الطفل؟

يشيرُ لي بيده بأن أنتظره حتى يجيب:

- قصة طويلة أحكيها لكِ حينما أستطيع، لكنني الآن أريد كأسًا من الماء فقط.

آثار التعب على وجهه، كان لي غرفة في دار الرعاية أنامُ فيها في الوقت الذي لا أعودُ به لبيتي. أخذته لغرفتي حتى لا يستيقظ أحد ويتنبه لوجوده، ساعدته بحمل ناصر، وضعته على السرير، حالته كانت يُرثى لها، وضعتُ غطاء على الصغير بعدما بدأت الدموع تنهار وبدأتُ أبكي، ونظرتُ لباسل الذي وضع عينيه الغاضبتين في الأرض، حاول الحديث، لكنني قاطعته:

- ماذا تظن بأنك فاعلٌ أكثر من هذا؟ وما هي النتائج الأسوأ التي ستجعلك تتوقف؟

يضع عينيه في الأرض، الغضب وارتجاف يديه، دمعة تصل لأول مقلته وتعود دون أن تهبط، يأتي صوته المنهار:

- لهذا جئت، أنا لا أستحقه، لا أستحق أن يكون لي طفل من صلبي، لا أستحق أن أحيا حتى، صدقيني!

أناوله كأسًا من الماء، وأجرُّ كرسيًّا لأجلس قبالته، كان يجلس عند قدمي ناصر، بدا وكأن كل أحمال الدنيا على رأسه، أحاول التخفيف عنه:

- هناك حلٌ لكل شيء باسل، أرجوك، أنتَ فقط يجب أن تستيقظ من هذا الكابوس.

- من قال لكِ إنهُ كابوس، هل تصدقين أنني قد أفعل ما يتهمونني به، هل جننتُ إلى هذا الحد إيمان؟!
- أنا لم أصدق ما يقال، لكن كمية الأموال التي تم تحويلها باسم الدار جلبت الكثير من الشبهات، من هم المتبرعون؟ ولماذا الدار الخاصة بنا؟ لماذا أنتَ يا باسل؟
- كان هناك رسائل ومبالغ تصل إليّ بشكل دوري، إيمان، حتى أنا لا أعرف ما حدث معي، كل ما أعرفه أنهم حاولوا إدراج ما أنشره ضمن مخططات أحزاب أخرى، وأنا لستُ يمينيًّا ولا يساريًّا، أنا فقط، أنا ابن الأردن أسير وفق خطة كنتُ أظنها تخدم وطني، وإذا بي أجدُ ذاتي أنقل أموالًا قذرة لعمليات أقذر، كانوا يخططون لتدمير كل شيء عن طريقي، ولولا أن جاءت الاستخبارات ذاك اليوم، لكنتُ تورطتُ بجريمة أكبر، اتصل بي صديق قديم يقول لي أن أهرب، الأفضل ألا يمسكوا بي وفعلًا فعلتُ، لا أعرف إن كان يخدمني أو يطعنني، كل ما أعرفه أنني يا إيمان فقدتُ بوصلة الحياة، هربتُ وهربتُ، لم أعلم أين أذهب، ووجدتُ ذاتي مع طفل لا أفقه شيئًا في الاهتمام به، حملته وركضت، بكى صرخ حينما جاؤوا ليقبضوا علي، أخفتهُ كثيرًا، لهذا أصبح لا يقترب مني حتى، اختبأتُ في بيت أحد أصدقائي في السلط، ريثما نجد حلًّا، لكن يبدو أن لا حل يا صديقتي، لا حل لكل هذا الخراب.

- لا تفقد الأمل، حتمًا هناك حل، لا دليل على اشتباهك بأي شيء، أنتَ تسلَّمتَ أموالًا وأرسلتها لجمعيات خيرية. سيكون كل شيء على ما يرام.
- أتظنين الأمور بهذه السهولة؟ هذه قضية سياسية، قضية تتابعها الاستخبارات، أنا سأسافر ولا يمكن أن أعود للسجن ثانيةً، لن يصدقوا كل ما قد أقوله، رتبتُ أوراقي للسفر لابن خالي في بولندا، هو مقيم في العاصمة ووعدني أن يرتب أوراقي.
- ماذا عن ناصر؟ ماذا عن حزبنا والدار؟
- الحزب مات يا عزيزتي منذُ تم إيقافي قبل عامين، منذُ ماتت داليا، أنا لا أريد أن أفكر بشيء، أما ناصر فهو أكثر ما يقتلني، حتى أمي التي أعتمد عليها تخلَّت عنَّا، أنا قررتُ أن أبتعد إيمان، سأترك ناصر هنا في دار الرعاية، هذا خيارٌ فكرتُ به ألف مرَّة، لقد وجدته ليعوضني عن كل خسائري، لكنني أؤذي كل من يقترب مني، أنا آذيتُ داليا حينما قبضوا علي، حينما تركتها مع ثلاثة جنود لا يعرفون الرحمة، ماتت وحيدة تنجبُ طفلًا لي، آذيتُ أمي حينما ورثتُ السياسة عن أبي وكم حذرتني من أن طريقي شائك، كنتُ أعلم أنهُ شائكٌ جدًّا لكنني حينما أكتب عن الوطن أشعر بأبي يهمس في أذني، حينما أرسم مستقبل الأردن، حينما أناضلُ لأجل الأقل حظًّا فيه، كنتُ أرى أبي، كنتُ أضمُّ ضحكة رضاه، لكنها لم

تفهمني، وحقًّا حدث ما حذَّرتني منه، لقد قهرتها وهي ترىٰ حياتي تتساقط كأوراق الخريف أمام عينيها، والآن هل أؤذي ناصر؟

أنا لا أستحقه حتى يا صديقتي.

- هل جننتَ؟ باسل، ستترك كل شيء وتمضي، حتى طفلك تتخلى عنه؟ إن كان هذا العالم تخلَّى عنكَ، فلا تكن العالم الذي يتخلَّى عن هذا الطفل! أرجوك فكر في الأمر.
- إيمان، هذا الطفل سيكون بأفضل حال بعيدًا عني، أنا أكثر شخص كنتُ مشتاقًا لأن أحضنه، كنتُ أكثر شخص محتاجٍ لهُ، كنتُ بحاجة داليا فيه، فهو الوحيد القادر على جعلي أستذكر داليا، لكن..

يصمت ويضع يديه فوق رأسه، يفكِّر بحجم الخراب الذي يحيط به، يبدو شاردًا مهمومًا، يخرج قصاصة ورق من جيبه كُتِبَ عليها (انتظريني كل ثلاثاء، كي نحكي للقمر عن الوفاء). كانت أول رسالة كتبها بخط يده لداليا موثَّقةً بعطره عليها، يضعها بين يدي إيمان، يقول لها:

- قولي لهُ إنكِ لا تعرفين أباه، جاء وألقاه على الباب كبقية الأطفال، دعيه لا يفتِّش عني، لا يفكِّر بي، أنا ما زلتُ في فوضى، ولا أظن أن حياتي ستكون سهلة بعد هذا، دعيني أتركه بين يديكِ أمانة، اعتني به يا إيمان فلا خوفَ عليه معكِ يا صديقتي.

تجهش بالبكاء وتجيبه:

- ليتكَ تفكِّر بحلٍ آخر، ليتكَ تجدُ طريقة أخرى.

دون أن يبكي، يرتجف ويقف وكل قسوة العالم وضعفه يظهران في ملامحه، وكأنه الفتى الذي رسمه ليوناردو دافنشي في لوحة العشاء الأخير، فقد قضى وقتًا طويلًا يبحثُ عن وجه وسيم وطيب ليرسم به المسيح، ثم وجد شابًّا وسيمًا وجميلًا فرسمه على أنه المسيح، وبقيت اللوحة تنتظر الوجه القبيح لفترةٍ طويلة، يهوذا الذي أفشى سرَّ المسيح، كان دافنشي يريد وجهًا يحمل كل معاني الشر والانحطاط، خيانة الصديق والغدر حتى حدث وجاءه خبرٌ عن سجين ارتكب الكثير من الخطيئة وقتل الكثيرين في حياته، فأرسل دافنشي للملك ليسأله رسم وجه هذا السجين، وحقًّا حدث وتم رسم وجه الشر يهوذا بملامح هذا السجين، وحينما قرر الحراس إعادته للسجن بانتظار حكم الإعدام، قال ما لم يخطر على بال أحد، رفع رأسه من بين القيود يستجدي دافنشي وقال له ألم تعرفني، انظر إنها صورتي حينما رسمتني قبل سبعة أعوام على أنني المسيح! هي حكاية تختصر كيف يولد الإنسان بفطرةٍ سويَّة لتأتي النفس التي قد تقتل الخير وتلوِّث الوجه بالإثم والذنب!

لقد تبدَّلت حال هذا الصديق، أحاولُ لآخر أمل أن أستبقيه لهذا الطفل، أن أعيدَ فيه حلم الأب الذي عاش ليكونه لكنه أصبح شخصًا آخر، وأصبحت ملامح الطيبة والنبل والأخلاق، ملامح خوف وجبن وحقدٍ، هو ذات الوجه، لكن وجوهنا عملتان للخير والشر، وهذا ما

حدث لعملة باسل الطيبة، التي قُلِبَتْ رأسًا على عقب، تحوَّل باسل لذلك الرجل الذي قد يتخلَّى عن طفله، عن مبادئه، عن وطنه وحربه، لقد غادر حقًّا!

أخطاءٌ تصنع أخطاء..
اليأس

اليأس.. حينما يزورك، لا تملكُ بعدها شيئًا ينبض، يتوقفُ قلبكَ، يتوقف عقلك ويتوقف فيك الإنسان، أنظرُ في عيني طفلتي، من أنا من هي وأين رغد؟ أمي تعيلنا في كل شيء، حزامُ أمان تشدُّ الصدمات عني، تحاول تخفيف كدماتي، لكنني ما زلتُ أشعرُ بها، تخيَّل أن تُصاب بكدماتٍ لا تُشفى، بقيتُ على هذه الحال فترة، لا شيء سوى اليأس، مرَّ شهر على حادثة الانتحار دون أن أنسى ما حدث، كنتُ كل يومٍ أستيقظُ على صوت رصاصة، وأنام على دمعة.

وبين دمعةٍ ورصاصة الكثير من اليأس، جاء صديقي يطرق بابي، حزينًا يناولني ورقة من القسم يطالبونني بالعودة، أنا ضابط في الاستخبارات ولا يُسمح بغياب أكثر من هذا، وإلا سيوجِّهون لي العقوبات! أقرأ الرسالة وأضحك، أطلق قهقهات لا تتوقف، تلحقها دموع، ألا يتوقف هذا العالم عن إرسال الصفعات؟! ما أوقحه من كوكب! يتابع مساره بليله ونهاره، ألا يخجل؟! وكأن شيئًا لم يكن، ما أقلَّ الوفاء في الأرض وساكنيها حينما يموتُ أحدهم، وتستمرُّ حياتهم!!!

تأتي أمي لتخفف عني وتطالبني بالعودة للعمل، وأنها ستبقى للاهتمام بعليا، أمي المتعبة بأمراضها الكثيرة! كلَّما نظرتُ بعينيها عرفتُ أنني همُّ

أمي، ما أشقاها بهذا الراغب!

عدتُ للعمل لكنني عدتُ شخصًا آخر، كنتُ في ما قبل إذا ما أرادوا أن يقسوا في التحقيق أترك المكان وأفضِّل الحوار وتعذيب المساجين بترهيب نفسيٍّ بعيدًا عن العنف الجسدي! لكن من قال إنني ذاك الراغب؟! أنا اليوم رجل مختلف، موجوع أذيقُ هذا الكوكب بعضًا من وجعي وكثيرا من يأسي! أصبحتُ جلَّادًا لا ضابطًا للتحقيق، كم كان يخفف عني وجع أولئك الذين كانوا يتلقُّون صفعاتي، هذا الغضب الذي في داخلي لا ينتهي، لن ينتهي!

أعودُ للبيت يومًا لأجد أمي تبكي والطفلة تبكي، أسألها ماذا حدث؟ تخبرني بأن ابن عمٍّ رغد تهجَّم عليها وحاول أخذ الطفلة، ولولا أن إحدى الجارات كانت عند أمي وبدأت تصرخ وتستدعي الجيران لما هرب هذا الجبان!

كان هذا عدوِّي الذي أبحثُ عنه لأُفرغ فيه كل غضبي وغضب من كانوا قبلي، ركضتُ نحو الباب متجاهلًا توسُّلات أمي كي أعود!

ابن عمِّها الذي لم ينسها، لم يتمكن للآن من أن يصدِّق أنها هربت معي أنا، فضَّلتني أنا حبيبها، فضلتني على من يملكُ ذاتَ ديانتها، على سليل عائلتها، فضَّلتني أنا على جينات عائلتها! ما أصعب أن يتقبَّل عقله الغبي أنها اختارتني!

أصلُ لمضارب بيوتهم وأفتح نيران مسدسي على نوافذهم، جننتُ وقد كنتُ بحاجة لكثير من الجنون كي أفرغَ غضبي في هذا العالم، لن يفهمني أحد! لن يبرر لي أحد إلا أمي هذا أكيد، يخرجون بمسدساتهم، فأهرب!

عدتُ لأمي وطالبتها بأن نرحل بعيدًا عن هذا البيت، حتى لا يعودوا لينتقموا، ثم إنني أخشى على عليا منهم! قصص الثأر هنا لن تنتهي! وقيل إن البدوي أخذ بثأره بعد أربعين سنة وقال: تعجَّلت.

بقيت أمي عند صديقة لها، وأنا ذهبت لبيت صديقي الأعزب «أحمد». قررتُ أن أخبره بما يحدث معي حتى يحمي أمي وعليا في المستقبل من كوارث تلاحقني فلا تلاحقهما، كلُّ ذنبها أنني ابنها لا شيء آخر!

- ألا تشتاق لحياتك قبل الزواج؟ يسألني أحمد.

أفكرُ بصمت طويل، أشعرُ بحدسِي الأعمق الذي لا يفارقني «حدس ضابط الاستخبارات» أنه يحاول جذبي للحياة الجديدة بعد رغد! أنظرُ في عينيه ولأول مرَّة في حياتي ألاحظ أن أحمد يملكُ وجهًا جميل الملامح، وأن عينيه جميلتان، وأن شقته جميلة وأن النور يخرج في المكان!

- هل تعلم يا صديقي، أنتَ مجرَّد أن ذكَّرتني بها وباختياري لها، استيقظ داخلي الشعور بجمال الحياة.

يبقى صامتًا ينظر لي متعجبًا، يتلفت حوله يحاول النظر للأشياء التي أنظر إليها وأنا أتحدث معه!

- لهذا الحد.

- لا ألومك، لم تجرِّبه بعد، لكنني أتمنى أن تعشق قريبًا حتى تفهم أنني لو متُّ ألف مرَّة فلن يكون اختياري لغير رغد!
- لكنكَ دفعتَ الكثير مقابل هذا، وانتهت القصة، حان الوقت لبدايات جديدة، ألا تظن ذلك؟

أضحك، ويفاجئني حجم جهله بالحب! أستطرد:

- بدايات جديدة؟! بعد شهرين تتحدث معي عن بدايات جديدة!؟

أعرفُ أنكَ تهتم لأمري يا صديقي، لكن نصيحتي لكَ، اتق شرَّ المواعظ في مجروحي القلوب أمثالي حتى تصابَ بالحب، وأتمنى أن تتذوق جمال الحب لا ويلاته!

- أعتذر إن ضايقتكَ كلماتي.

يناولني سيجارةٍ يشعلها لي تعويضًا عن آلامٍ أشعلها، هو يظنه حزنا وأنا على العكس، شعرته سعادة، لو يعرفون حجم سعادتي حينما أتحدثُ عن حبِّنا يا رغد! أغفو على دمعة!

مرَّت الأيام ولم أسمع منهم خبرًا، استفسرتُ عنهم وعرفتُ أنهم لم يقوموا بأي شيء، ظننتُ لحظتها أننا تعادلنا! وأن ما كان يقهرني بتهجمهم على بيتي قد قهرهم بتهجمي على بيتهم! كنتُ قلقًا أن يبلِّغوا عني فهذا مسدسٌ مرخَّصٌ لوظيفتي ولا يجوز استخدامه في أي حالة لأمور لا تتعلق بالعمل، ومجرَّد أن يبلِّغوا عما فعلت، ستلاحقني الكثير من المشاكل عدا عن فتح تحقيق. عدنا للبيت، كل شيء في مكانه ويظهر أن لا أحد حاول

شيئًا، ارتحتُ لذلك، وتأكدتُ أنهم انشغلوا عما كانوا يريدون، بدأت الحياة تعودُ لطبيعتها، روتين جديد من العمل للبيت، قسوة العمل تنسيني المحقق راغب القديم!

أمي تهتمُّ بعليا، صوتها في البيت صباحًا، نومها في حضني مساء، رائحة حليبها، رائحة ملابسها، أشياء بدأتُ أدمنها، وجهها الأبيض كرغد، عيناها اللوزيتان كعينيَّ.. شعرها داكنٌ كرغد، شفتاها مرسومتان لي، أصابعها رفيعة كرغد وشامةٌ في الخد اليمين تتباهى في جلوس دائم كقبلة على وجه صغيرتي، ما أجمل أن تتركِ رغد لي! لو لم يكونوا قرروا تسميتكِ عليا لأطلقتُ عليكِ اسم رغد.. أنتِ رغد عيشي القادم!

أضعُ إصبعي بين أصابعها، أشعرُ بنعومة جلدها تُذيبُ قلبي الموجوع، ما أعظم أن تكوني هنا معي! تدخل أمي وتراني في السرير والطفلة تنام فوق صدري.

- الحمد لله الذي جعلني أراكَ أبًا يا بني، هذه التي ستأخذ قلبكَ كما فعلتَ بي أنا ووالدكَ يا راغب! حماها الله لك دومًا!

يدمع، ينظر في عيني والدته، ثم يخرج صوته الحزين:

- كيف يمكن أن أرد لكِ كل هذا؟ أأستطيع حتى؟!
- تستطيع يا بني، الآن لو قلتُ لكَ ماذا تتمنى لعليا أن تكون؟
- أتمنَّى لها سعادة ولا شيء غير السعادة، وأتمنى أن أكون خير أبٍ لها لأعوضها عن فقدان والدتها.

- هذا ما كنتُ أريده حينما قلتَ لي أستطيع! أريد أن تعود السعادة لقلبك، انس ما حصل يا بني، فكر في القادم وبهذه الطفلة وفقط، انس وستجد أنك سعيدٌ جدًّا.
- هل تظنين أنني أستطيع يا أمي، هذا القلب أحبَّها يا ميمتي، هذا القلب عشقها، روحي تنبضُ باسمها في كل لحظة! في كل لحظة! امتلكت عقلي وجسدي يا أمي! لعنة حبَّها تؤلمني، توجعني، الحب يا أمي ليس إلا جنة الله في الأرض، ترى القبح جمالًا والفقر غنى، واللهفة في الحياة لا تنتهي، غياب حبيبكَ يصبح لعنة! آه يا أمي! لعنة حاصرتني لن تزول، هي اللاوعي في بحر عقلي! وكل الحياة فقاعات تتبخر لتبقى هي وحدها تملكُ فضائي!

تبكي أمي، تضع يدها على رأسي وتبدأ بقراءة القرآن: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾**.

أبكي كثيرًا، أبكي لأن القدر أخذها مني باكرًا، كنتُ أريدُ أن أحبها أكثر، أن أعشقها أكثر، كنتُ أريد لنا قصصًا أكثر. ذكريات أكثر، سهرا أطول، مغامرات أعمق، جنونا ولعبا، رقصا أكثر، كنَّا نخطط أن نزور الكثير من المدن، كنتُ وعدتُها أن أقبِّل شفتيها أمام كل الكنائس والمساجد، حتى يذوب الكتاب المقدس بالقرآن ليكون لنا طفلًا من

سلام، كنَّا نتمنى أن نصعد قطارًا معًا، أن نزور كل عواصم العالم معًا، كنتُ أحتاجُ لوقتٍ فقط كي أستمع لقصصها أكثر، كي أراقص جسدها أكثر!

كنتُ أرتدي صليبها وترتدي هلالي، هي التي كانت تحمل وشمًا على باطن رسغها يحمل الصليب، وحينما بدأت قصَّة حبِّنا، سألتها يومًا:

- أُحبُّ أن أقبِّلَ يدكَ من هنا.

وأشير للصليب.. تستغرب وهي ترفع خصلات شعرها الغجري الطويل عن عينيها وما زالت يدها بين يدي، تستفسر:

- لماذا، هل غيَّرتَ ديانتكَ أيضًا؟
- أبدًا أنا لا أغيرُ ديني وأنتِ أكثر من يعلم، لكنني أقبِّلُ فيكِ أكثر ما قد يجعلنا مختلفين، كي أثبتَ لكِ أنني أحبكِ كما أنتِ بكل هذا الاختلاف! أعشقكِ!
- تعال معي!
- إلى أين؟

لا تجيب وبذات اليد التي كانت بين يدي، تسحبني لأسير معها.

أخذتني إلى ذات المكان الذي رسم لها فيه الوشم، وطلبت من المرأة هناك شكلًا جديدًا وأعطتها رسغ يدها اليمين، وجلست على المقعد تنتظر دورًا، أجلس برفقتها لا أعلمُ أي جنونٍ تنوي.

- لستِ مضطرة لعمل أي شيء رغد، أرجوكِ.

تضع يدها على يدي لتقول:

- فقط، ابق معي لا أريدُ شيئًا آخر.

تبدأ المرأة بالتعقيم وتحضير الوشم الذي بدأ يؤلم مجنونتي، وكلَّما زاد الألم، ضغطت على ساعدي أكثر لتحكي لي بالإشارة كم هو مؤلم ما تفعله كي أجنَّ بها أكثر وأكثر!

وحينما انتهت كان الهلال المليء بدماء حبيبتي قربانًا تضعه أمام عيني!

- ما رأيك؟ تسألني.

أكتفي بضحكة واسعة ودمعةٍ على طرف عيني، أقترب لأذنها لأهمس:

- هذا القلب لم يخلق إلا ليحبكِ!

تضحك وهي ما زالت تتألم!

تضحك وهي تثبت لي كل يوم أنني غارقٌ في بحر رغد أكثر وأكثر! أيُّها الموت الذي جئتَ لبيتي، ليتكَ حاورتني، جادلتني، أنا ربُّ هذا البيت أعرفُ أنكَ مكلَّفٌ وأن الطاعة أوجب والاستسلام أمرٌ لا خيار لنا إلاه، لكنني تمنيتُ عليكَ لو حاورتني، لو سألتني حتى أقول لكَ أن تسأل الله أن يبدل روحينا! أن أعطيها من عمري فما فائدة عمري دونها، يا موت ليتكَ جعلت بيني وبين إلهنا جسرًا كي يمنحنا وقتًا أطول، يا ربِّي إني عبدكَ المخلص، لكنني لكثرة الإخلاص أحاورك، أحاوركَ بحكمٍ يقتلني، يغيِّرني! يخرجُ كلَّ شروري وأنا الذي ما خنتكَ في خير، أنا الذي جبلتني على فطرتكَ بالحب والسلام أنا

أستميتُ إخلاصًا لها، فلا تلمني وأنتَ الحب والخير والوفاء، لا تكفِّرني يا ملك الموت، يا من تقرؤني اللحظة! أين أذنبنا؟ أين أخطأنا؟ فإن لم يكن ذنبًا فلماذا ليس أنا الذي يموت؟

هي التي ارتاحت يا الله، وأنا الذي بقيتُ هنا! بقيتُ لعذابي، لوحدتي، لبرودة ليلي الطويل! وكأن العمر أصبح قبرًا، وهذه ليالي عذابي، والجنة أن أرى رغد! الجنة رغد!

أحملُ عليا وأضعها في حضني أشمُّ رائحتها لأنسى عذاب هذا العالم، أتراها حكمة الله أن تتركَكِ رغد لي، حتى أقوى على العيش بعدها؟

أتستطيعين أن تزيلي تعبي يا طفلتي؟ أنا والدكِ المتآكل هنا، وأنتِ مورفيني، قطعة المسكِّن التي لا تنهي الألم، لكنها تخففه، حينما تضحك عينيها، أشعر برغدي تضحك، حينما تتحركُ بجانبي أشعرُ بحركة رغدي، صوتها الصغير في صمت رغد، يحييني، هو أول يقينٍ يتشكَّلُ لدي بغياب رغد، أن هذه الطفلة عالمي، وأنها ليست بحاجتي كما أحتاجها، هي أماني بعدما تزلزلت الأرض تحت قدمي وفقدتُ جاذبيتي، فقدتُ ما يجذبني لهذا الكوكب! كنتُ أشعرني أحلِّق في فضاء الموت، حتى جاءت!

وبدأ قلبي يخفق ثانيةً، أصبحتُ أشعرُ بوزني فوق الأرض وأنا الذي كنتُ أسبح في فضاء رغد منذ حلَّقت بعيدًا عني، جاذبيتي ومورفيني وكل ما أستيقظ لأجله في أيامي! أصبحَ لي حبلًا سِريًّا جديدًا يربطني بعليا هذه المرَّة، حبلٌ يربطني بوزنٍ أبقى على قيد الحياة لأجله!

هل يكون هذا الهدوء طبيعيًّا، قد يكون طبيعيًّا لو كنَّا نحيا خارج أسوار الكتاب، لكننا تلك الشخصيَّات المجنونة التي يتعطَّش القارئ ليرى ما سيحدث معها، نعم كنتُ أتمنى أن تتوقَّف حياتي هناك، لكن الأحداث عادةً ما تكون أسرع منا! كنتُ أقودُ سيارتي متوجهًا إلى البيت بعد نهار عملٍ طويل، أرى سيارة سوداء تقود بسرعة كبيرة تخرج من الطريق المؤدي لبيتي، شيء يجعلني ألتفت لأجدَ شخصًا يرتدي لثامًا يغطي نصف وجهه، ألمح عينيه فقط، وتتجاوزني السيارة، لكن قلبي يُخطف معها وحدسي الاستخباراتي بأن خلف هذه السيارة كارثة لم يخطئ.

أصل للبيت وأدخل على عجل، أجدُ الباب نصف مفتوح، أقلق، أهرع للداخل لأجد ضجةً في المطبخ، أمي تقوم بغسل الثياب كالمعتاد ولا شيء يدعو للقلق، أسلِّمُ عليها أقبِّل جبينها وتدعو لي، أسألها عن عليا وتقول لي نائمة في سريرها بعد حمَّام طويل، وحليب دافئ، أخطو بضع خطوات باتجاه غرفتها، هي خطوات باتجاه حياتي الأخرى، نقطة التحوُّل التي ستجعل كل قصتي بعدها شيئا آخر، خطوتان نحو غرفة وسرير تنامُ عليه عليا! فلا أراها، وألتفتُ حولي، ثم انتقل لغرفة أمي علَّها تقصد السرير الآخر، هي ليست هنا!

أصرخ لأمي أين وضعت عليا لتنام؟ لتأتي فزعة من صوتي المرتفع:

- وضعتها هنا يا بني، تصمت تحدِّق في الركن الفارغ! تقترب وتحاول أن تتأكد، تنظر أسفل السرير لا شيء تحت الوسائد

والأغطية، تضع يدها على فمها تحاول كتم صرخة أو حدس أخافها!

أما أنا فعقلي يبدأ بوظيفته التي خُلِقَ لها، تترتب الأفكار وأعلم من الجاني، السيارة السوداء، الباب نصف المفتوح ثم أركض للسيارة، يجب أن أجد السيارة، من ذلك الذي يجرؤ على أخذها، لا يفعلها إلا ذاك المهووس راشد، سيدفع ثمن فعلته، سأجعله يعيدها، كالمجنون أقودُ سيارتي، صرخات أمي خلفي، لكنني لا أسمع شيئًا، كل ما أسمعه وأراهُ أن رغد تضيع مني للمرَّة الثانية، وأنا أنظر بعيني، ما أطوله من طريق! ما أبعدها عليا عني! يخفق قلبي، حبيبتي أينكِ؟

لا تخافي أنا قادم، لا يعرفونني، رغد كانت تجعل مني أليفًا جدًّا، لكنني خسرتها، والوحش الذي يسكنُ داخلي استيقظ منذ غابت!

الوحش استيقظ بعدما مات من كان يروِّضه! ما عدتُ أعرف طريقي، ما عدتُ أشعر بشيء، أقودُ سيارتي بسرعةٍ عالية، لا أجدُ أثرًا للسيارة السوداء، أسابق الرياح لأقود من عمَّان لمادبا، أصلُ إلى حدود بيوتهم وأرى السيارة السوداء أمام الباب، لا أفكر بشيء أحمل مسدسي وأدخل الحديقة حاملًا روحي على كفي، هذا البيت، كل من فيه يكرهني، ناقمون علي لأنني اختطفتُ زهرتهم الجميلة ومضيت، ناقمون علي لأنني استرقتُ ضحكتهم الوحيدة وهربت، أدخلُ لا أهتم لأحد، فهذه المرَّه ليست ككل مرَّة، أنا أبحثُ عن ابنتي

لا ابنتكم، هذه حقي ليست حقكم، أجدُ ذاتي في حديقة بيتهم وأول ما تقع عيني عليه، ابن عمها تقف بجانبه سيدة الانتقام، الأرملة السوداء، المرأة التي ستقتل كل ما يشعر داخلي لأعوام، المرأة التي ستخلقُ مني وحشًا.

أصرخُ بهما:

- أين ابنتي؟ أين عليا؟ كيف تجرؤون على هذا؟

يقوم ابن عمها بسحب سلاحه وتصويبه نحوي، ثم يخرجُ صوتها، كصوت الأفعى التي ستلقي بسموم العالم حولي.

- لا علمَ لنا عمّن تتحدث؟ أيُّ ابنة هذه التي تهذي بها؟
- أتظنين بأنني سأصدقكِ حينما تتحدثين، أنا رأيتُ السيارة، وأعلمُ أنها بالداخل تخفونها عني، اذهبي وأحضريها وإلا أُريقت الدماء!

أخرجُ مسدسي وأصوِّبه نحو ذاك الذي يهددني بسلاحه.

- حينما اختطفتَ ابنتنا الوحيدة، ودمَّرت حياتنا، هل فكَّرت للحظة بأنك ستنتهي بالدماء!
- أنا أحببتها، أحببتُ داليا أنا لم أختطفها، لستُ مجرمًا، ولم يحدث أن أجبرتها على شيء، هي أحبتني واختارت!

لا يتمالك ابن عمها ثقل الحقيقة! يطلقُ أول رصاصة للسماء مهددًا دون أن ينبس بحرف!

تمسكُ الأرملة السوداء بكتفه، وكأنها تهمسُ لهُ بأننا نريده أن يحيا كي نقتله كل يوم ألف مرَّة!

- اسمع أيُّها الصعلوك الذي لا ينتمي لأي شيء هنا، اخرج من هذا المكان وابحث عن ابنتك في أي مكان بعيدًا عنَّا! قد يكون هذا درسًا كافيًا لك كي تتذوَّق خسارة الأبناء وهم على قيد الحياة!

إن الله ينتقم لي ولزوجي منك!

أخافُ من كميَّة السموم التي تتدفق من فمها، لا يمكن أن تكون هذه اللعنة والدة حبيبتي، لا يمكن أن تكون هذه والدة الملاك الذي عشقته! أخرجُ مسرعًا لأعود برفقة أحمد ودوريَّة الشرطة بعد أن قدَّمتُ بلاغًا باختطافهم للطفلة، فتشوا المكان، وتم استدعاؤهم لقسم الشرطة دون أن يجدوا لابنتي أثرًا، أنا هذا المنزوي على مقعدي في مكتبٍ مظلم، أبكي!

أبكي حرقة انتحار رغد!

لم تكن رصاصة تلك!

كان قدرًا يتصيَّدُ لنا الكثير من القادم الموجع!

كان اختيارًا وقَّعت عليه رغد، عقدت الصفقة وقرَّرت عنَّا، ونحنُ، نحنُ الذي لم نعد نملكُ عنوانًا واحدًا، هي تسكنُ قبرًا وأنا أسكنُ قاع العذاب الدنيوي وعليا أصبحت المجهول! عليا أصبحت شيئًا لا يملكُ عنوانًا!

لن أستسلم، أتهجَّمُ على ابن عمِّها خلال التحقيق، وهو المظلوم الآن، ما أسوأ أن يجتمع ضميرهم القذر على أن يقتلوكَ حيًّا! أنكرَ أنني حتى

شاهدتهُ وهو يخرج من الحارة عصرًا اليوم، وأحضرَ شاهدًا أنه لم يغادر بيت صديقه في مادبا حيث كان مدعوًّا على طعام الغداء، أبكي، أمسكُ يده أتوسَّل له، أقبِّل يده ويبعدني أحمد عنه، أنا الآن لا أراهُ عدوُّي أنا أراهُ ورقة نجاة ابنتي!

- أتوسَّل لكَ يا راشد، لا تقتل آخر ما تبقَّى لي، أقسمُ عليكَ برغد وبحبِّكَ لرغد، أقسم عليك لا تقتلونا أكثر.

ألمح دمعةً في عينيه، أتوقَّع أن يقول شيئًا لكنه يبقى صامتًا، قرر أن يصمتْ، قرَّر أن يأخذَ بثأره من طرفٍ لا علاقة لهُ بشيء، طرفٍ لا ذنب له، ابنتي التي كانت تبقيني حيًّا ما عادتْ بين يدي! قتلتموني يا جُبناء كل يومٍ أشرقت فيه الشمسُ وأنا أسمع صوت طفلتي دون أن أجدها بجانبي!

قتلْتم ما أبقاني واقفًا بعد رغد! قتلتم الأمل الوحيد، ها أنا أموتُ كلَّ يوم، مرَّ أول صباح دون أن أجدها، أمي ما زالت تبحثُ عنها كل صباح فوق ذات السرير، مرَّ صباحنا الثاني ورصاصة ثانية تمرُّ في جسدي الملعون دون أن يموت، أنا أرى الثقوب التي تخلِّفها الرصاصات في روحي، أنتم فقط تقرؤونها، تعزفونها، دعوني أشعرها يا أصدقائي، أمي التي ما زالت تبكي، لا تستطيع أن تنسى! كلَّما نظرتْ في عيني تتذكَّر!

وأنا لا أستطيع أن أخفي أثر الرصاصات، يومٌ ثالث، ولا أثر!

أذهبُ إليهم وأجلسُ على باب بيتهم وحينما تخرجُ الأرملة السوداء أنحني، وأهجم على قدميْها، أتوسَّلها، تنظر لي بازدراء! بقلبٍ تحوَّل لقطعة فحم! أصرخُ بها:

- أنتِ لا تملكين قلبًا حتى! أنتِ حتمًا قلبكِ متحجِّر!

تردُّ بكامل الهدوء:

- أنتَ الوحيد الذي يشعرُ الآن بالحرائق التي اشتعلت في قلبي حينما فقدتُ رغد واختفت من حياتنا! هل تشعر به الآن؟ هل تشعر أن قلبكَ يتحجَّر؟

- ألا تكترثين لحفيدتكِ! أن تحيا دون أب أو أم!

- هي ليست حفيدتي حتى! وأنتَ لستَ إلا نكرة، لن تجدَ من يساعدك، وستعلم أن اختيارك ذاك دفعت ثمنه عائلتي، حان وقت الحساب!

تتوجه للسيارة التي تنتظرها على باب البيت، وأنا ما زلتُ أصرخ:

- يستحيل أن تكوني أمًّا لرغد! أنتِ الشيطان! أنتِ الشيطان!

أبكي ويشتدُّ شعوري بحجم المؤامرة، أقررُ أنني سأتتبعها، سأراقبهم، لاحقت الأرملة السوداء، ولاحقت راشد، ظللت أراقبهم، أتلصص على نوافذهم علِّي أجدها، علِّي أحظى برؤيتها، حتى لو كانوا يهتمون بها سرًّا لا بأس، لكن الطفلة مختفية! أنا حتى لا أجدها في حياتهم!؟ أين ذهبوا بها؟

لا يمكن أن تؤذي حفيدتها، لا يمكن أن يصمت راشد أكثر، استيقظتُ يومًا على قدمه تهزُّ قدمي، كنتُ أغفو على الرصيف بجانب البوابة الكبيرة، بدأ يصرخ:

- ماذا تفعل هنا؟ ألا تتعب؟ اذهب لبيتك وإياك أن أراك هنا؟

أحاول تفادي ركلاته لي، أقف وللمرَّة الأولى لا أريد قتله، كان لدي شعور بأنني أستطيع أن أمسك المسدس وأقتله وأكمل طريقي للشبح الأسود وجميع من في البيت، لكن كيف أقتلهم وسر ابنتي معهم؟ إذا ماتوا، مات سرُّ وجود عليا. أنا الذي لم أترك مكانًا إلا وبحثتُ فيه عنها، طفلة بعمر الأشهر، أنا متأكد أنهم من اختطفها، وكلام المرأة السوداء يؤكِّد هذا، لكن كيف، كيف سأعرف أين هي؟

هل للأرض أن تدلَّني، أنا ضابط الاستخبارات الفاشل للمرَّة الألف، أفقد شخصًا يهمني، شخصًا أحبه!

كيف لي أن أعرف طريقي لحياتي، يا شمس النهار إما أن تشرقي لتنيري طريقي كي أجدها، وإما أن لا تشرقي فوق جسدي مرةً أخرى!

يا الله إن كنتَ ربَّ محمد أو ربَّ يسوع، وكلاهما واحدٌ لي، ساعدني كي أجدها! كي أجد سبب حياتي الذي من دونه أموت!

هم أخذوا بثأرهم مني، هم أخذوها مني يا رغد، لن أتركهم حتى أجدها، يا الله أبثُّ لكَ همِّي..

ساعدني كي أجدها!

أخطاءٌ قتلَتنا!

الجرائم التي قد يرتكبها البعض، هي القرار الذي سيقهر قلوب عائلات بعده، الثأر الذي كان يحكم ماضي البعض، هو ذاته السيف الذي توغَّل ليقهر آخرين لا ذنب لهم! أنتم جلَّادون لأقدارنا! أنتم من ستغيرون من سعاداتنا، من فرحنا! من عددنا حينما اجتمعنا لنغني أغنية ميلاد أحدهم في العام التالي وكان ينقصنا شخص ما!

الفقدُ جزء صعب من حياتنا، لكننا أصحاب الحظ فيه، أن تكونَ مفقودًا أفضل بكثير من أن تبقى جالسًا في اللعبة، تحدِّق في الأقدار تخطفهم واحدًا تلو آخر! أنا هذا الجرح الذي بقي يحصي كلَّ الذين فقدهم في حروب هذه الأيام، في قدر مجهول يقتلكُ بالفقد لكن لا تموت، يقتلكَ بالشوق وتخيُّل أنك تعانق أحدهم دون أن يحدث، نحن الذين نتحوَّل لمجهولين ينظرون في مرايا أنفسهم فلا نعود نعرف من نحن، الجروح التي تسكننا دون أن تبرى هي كل حلم زارك، جمعكَ بمن تحب حتى ظننتَ أنكَ لم تفارقه يومًا، ليصفعكَ الصباح بواقع، واقع لا رافع له، ودموع تحرق عينيك اللتين استيقظتا للتو من حلم!

كان الفراقُ وما زال أصعب عقاب إلهي قد يواجهُ الإنسان، عقاب دون ذنب، يسمَّى ابتلاء أو اختبارا!! تخيَّل أنكَ لا يجب أن تعترض حتى! اعتراضكَ ذنب، وتقبُّلكَ لما يحدث حولكَ هو الرِّضا! ألا تبدو هذه

القوانين قاسية بعض الشيء! فلماذا نلوم من يفقد عقله! بعدما همَّشت الحياة قلبه أمام عينيه!

يحدث أحيانًا أن تشعر بأن هذه الحياة المعقدة بتفاصيلها، قد تلقي بنا في مصادفات القصص والحكايا، تقاطع تفاصيلنا في بعض الزوايا، كأن نبكي معًا، دمعةُ ناصر حينما كان يشعر باليتم، كانت تقف فوق عيني راغب الذي لا يستطيع نسيان دماء رغد تغطي الأرض، دموع الخوف على طفلةٍ دون حضن أم، وأمٍ لا ذنب لها بشيء، ذاتها دموع باسل التي لا تهبط بل تبقى هناك على حافة الرجولة، حينما كان يهرب في سيارة مجهولة مع سائق مجهول متخليًا عن ابن وأب! متخليًّا عن ناصر وعن أحلام والده السياسية! لقد تجرَّد من ذكريات داليا وإيمان وحضن والدته وهرب حيثُ خوف أقل! أتراه سيصبح سعيدًا؟!

هي دموع طفلة مجهولة النسب، تتعلَّق بقصة طفل عن رجل قد يكون والدها وعينيه اللتين يصفهما ناصر كأكبر لغزٍ مرَّ على التاريخ، تاريخهما! وبقي اليُتم سيِّد الموقف. من قال إن اليُتم فقدان أب وأم؟! اليُتمُ فقدان زوجة، اليُتمُ فقدان وطن، اليُتمُ خسارة ثقة أحدهم! واحتضار حبِّ حياتكَ أمامكَ حينما لا يشعر بك، اليُتمُ كان سيِّدًا في كثير من مواطن حياة أولئك الذين ارتموا أمام أوراقي، كنتُ أتمنَّى لو كانت الحياة أكثر عدلًا كي أكون عادلةً مع شخصياتي! دون أن أجعل الموت يزور أحدهم دونًا عن الآخر، لكن هي الحياة التي نحياها، هي الأخطاء التي نرتكبها ونظنها صوابا ترسم حياتنا بكل إثارة ورغبة، هي الأوقات الصعبة التي تغيِّرنا،

تلوِّثنا أو تطهِّرنا! حتى الآن اختيارات بشريِّة وقدريَّة غيَّرت من شخصيات القصة، وهذه المشاعر التي تحكَّمت بعقولنا، جعلتنا نصعد فوق أمواج من القمم والوديان، سعادةً وحزنًا، أملًا وخذلانًا، نحنُ هذه الهزَّات الكونية، نحنُ هذه الصدمات التي يترتب عليها ردود أفعال قد تكون شجاعة وصبورة، وقد تكون جبانة متعطشة للانتقام.

عليا وناصر

كل يومٍ بات تهديدًا جديدًا لنا بالفراق، اليوم أخشى أن أودعكِ، أخشى أن أبتعد عن عينيكِ، ورسائلنا التي بدأت تصبح مصدرًا لتورطي المفضوح، كيف نضجت رسائلنا؟ لا أحد يعلم!

كنتُ ألتقط رسائلكِ الطفولية التي تحكي لي أصغر تفاصيل تحدث معكِ في المدرسة، وبعد غياب طويلٍ عنكِ، ماذا حدث؟!

صباحٌ عاديٌّ في الدار، أرتدي ملابسي، خالد زميلي في الغرفة يكبرني بعامين يتحدث عن كثير من الأشياء، يحب فتاة رآها في الطريق قرب البقالة، ثم يسألني هل يمكن أن يكون هذا حبًّا؟

- بماذا تشعر؟
- تفكير كثير بها وكأنها تسكن نفسي! حتى إنني لا أفكر بذاتي قدر تفكيري بها!
- أظنه حبًّا.

يقهقه ويضحك يهزأ بي: كيف تعرف يا ناصر العبقري، هل جربته؟

- لم أجربه لكنني قرأتُ الكثير من الكتب، وقرأت الحب في وصف أكثر من كاتب.
- هل يكفي؟
- لا أظنه يكفي كمن جرَّبه حقيقة، لكن الأعراض تتشابه، قد أشخِّص حالتكَ بأنها حب من بعض الأعراض.

- أنتَ عبقري، هذه كلمة بسيطة تُقال عن دودة الكتب الذي هو أنت، أظنني أحبها نعم!

أضحك... ويبدأ هو بالضحك لكن سرعان ما يتوقف يقول لي ماذا تتوقع؟ هل تقبل مثلها بمثلي؟

- لماذا تقول هذا؟
- أنا يا عزيزي خريج دار رعاية، ولستُ مجتهدًا في مدرستي كأنت، لم يترك لي أهلي شيئا عني، شيئًا يثبت أنني ابن يحمل نسب عائلة، هذه الأرقام التي على قيدي تدينني، ألم تسمع قصص الشباب الذين تخرجوا من دور الرعاية؟!

كنتُ أنظر في عينيه وكأنه يروي لي مستقبلي، خفتُ فجأة، وفضلتُ البقاء صامتًا لأراقب قصة حياتي، أكمل هو:

- أنا الرقم 2000 يا صديقي هل تعرف معنى الرقم 2000..؟
- لا لا أعرف ماذا يعني؟
- هذا يعني أنني مجهول نسب، لا أملك تاريخًا، لا أملك أبًا ولا أمًّا، الجميع تخلَّوا عني، ورقمي هذا وصمة العار التي تطاردني، تخيل غدًا إذا ما أردتُ الذهاب لمكان لتعلم مهنة ما، سينظرون لأوراقي وسيعلمون أن اسم عائلتي هذا وهم، تمامًا سيحدث ذلك في الجامعة، ثم العمل، ثم حتى عائلة هذه الحبيبة ألن يقولوا لي أين عائلتك؟ سينظرون في قيدي وسيرون 2000 وسيبدؤون تحليلاتهم، هل أنا ابن اغتصاب، أم ابن سفاح الأقارب، هل أنا ابن

اليتم فقط؟! لا أحد سيجيبهم لا أحد قد ينكر أو يؤكِّد، فلماذا أحب يا عزيزي؟ أنا أعرف أنني أحبها، لكنني أحاول تضليل نفسي، هو ليس حبًّا!

بكى خالد، وشعرتُ دموعي تنجرف على خدي معه، اختنقتُ من كمِّ الحقائق التي قيلت أمامي، مرَّ الوقت ولم أتمكن من النوم، استيقظتُ متأخرًا وقلتُ لهم إنني مريض لا أستطيع الذهاب للمدرسة، بقيت في سريري منزعجا أراجع كل كلمة قيلت لي، طرقات خفيفة على الباب، أتجاهلها، ظننته خالد نسي شيئًا، عادت الطرقات ثم فُتِحَ الباب، نظرتُ الشق وإذا بها تتقدم نحوي، تحمل زهرة في يدها قطفتها للتو،

- سلامتك ناصر..

نظرتُ لعينيها، هذه الملاك الصغيرة كل عائلتي، هل يعقل أن يكون لنا هذا المستقبل القاتم؟

أي تاريخ هو تاريخُ عينيكِ؟ أسألها:

- لماذا لم تذهبي للمدرسة بعد؟

تقترب تضع الوردة بجانبي وتجلس على طرف السرير عند قدمي:

- لن أذهب للمدرسة اليوم.

تظهر علامات الاستنكار على وجهي وقبل أن أقول شيئًا..

- أنا لن أذهب سأبقى لأهتم بك.
- لكن من قال لكِ إنني بحاجة لعناية. إنها مجرَّد وعكة بسيطة.
- ومع ذلك لن أتركك!

يذوب قلبي مع كل كلمة، أريدها أن تبقى معي أكثر من أي شيء آخر، أحبُّ كل شيء بها، أشعر قلبي يقفز يريد أن يقول لها إنني حزينٌ جدًّا وإنني أحتاجها، لكنني ناصر!

- يجب أن تذهبي للمدرسة، لا أحتاج للعناية، أريد فقط النوم.

تنظر في عيني تستغرب ناصر الذي أمامها، تحاول الاستفسار. لكنني ألتفت للجهة الأخرى متظاهرًا بالنوم.

تخرجُ عليا من غرفتي مستغربة ماذا حلَّ بي، بعد ثلاث ساعات من الجلوس وحيدًا، والتفكير بالأمر لا ينقطع في ذهني، أقرر أن أتوجه إليها، لمفتاح اللغز، ماما إيمان حتمًا تعرف ولو طرف خيط عن عائلتي!

أتوجه لمكتبها، وأجدها هناك بين الأوراق والفواتير تعمل وتحسب وترتِّب وتصنِّف، تنظر نحوي:

- سمعتُ أنك متعبٌ ولم تشأ الذهاب للمدرسة اليوم.
- نعم، متعب ولا أظنني قد أعود للمدرسة حتى.
- لماذا ما الذي حدث؟ هل تشاجرتَ مع أحدهم؟
- لا، لكن أنتِ أجيبيني ما فائدة شهادتي إن كانت علاماتي لن تصنع لي مستقبلًا، لن تعطيني رقم قيد طبيعي، لن تمنحني اسمًا حقيقيًّا لوالديَّ، احكي لي رجاءً أي كارثة جاءت بي لهذا العالم، هل والدايَ جبانان لهذا الحد، أم أنني ابن خطيئة حقًّا؟ أنا متعب، وأحتاج لحقائق.
- ما بك يا ناصر، هي المرَّة الأولى التي تكون بها هكذا؟

- ما بي –يصرخ– أريدُ منكِ الحقيقة كاملة وإلا لن أبقى في هذه الدار يومًا آخر!

تصمت ويحمر وجهها، تبدأ بالتلعثم، بالتخبُّط، تلتفتُ نحو النافذة وقبل أن تبدأ بجملتها يُغلق الباب، تلتفت السيدة إيمان فلا تجد أحدًا!

كانت تعلم أن هذا اليوم قادم لا محالة، كانت تعلم أنها لن تتمكن من مواجهة مراهقة ناصر، خاصة أن والده موجود وأن الحقائق لا بدَّ أن تنكشف آجلًا أم عاجلًا!

تمسك الهاتف وتدق الأرقام التي لا يمكن أن تنساها يومًا..

يأتي صوته، صوته جزء من القصة..

- بعض الهزائم تقتلُ حتى وإن مرَّ عمر، هل تعرف هذا؟
- صباح الخير إيمان؟ ما بكِ؟
- تجهش بالبكاء، لا يمكن أن أتستَّر عليك أكثر، أنت تمارس جريمة بحق هذا الطفل، لقد بلغ خمسة عشر عامًا، هل تظن أن هذا جائز حتى، تركته بين يدي دون أن تسأل عن شعوره حينما يكبر، عن كل هذا اليتم الذي يحياه، ماذا تظن؟ وإلى متى؟ أنتَ يا صديقي أجبن من أن تكون أبًا، تعاقبه بموت داليا؟ تعاقبني بفشل زواجكَ الأول؟ وتعاقب الوطن بفشل حزبكَ.. إلى متى هذا الهروب؟
- إيمان ماذا حدث؟ هل ناصر بخير؟
- لا أظنه بخير، خرج بعدما دار حوار بيننا، يظن نفسه دون قيد، يظن بأمه السوء، ويظن بأنكَ مغتصبٌ جبان، يظن أشياء كثيرة سيئة، وأنا

لا أستطيع أن أفتح فمي، ارحمني باسل، أنا متعبة يا صديقي، متعبة ولن أستطيع إكمال حمل هذه الأمانة، قلت لي بضعة أعوام، مرَّت ثلاثة ثم خمسة وعشرة لكن هذا أصبح كثيرًا، الطفل يراهق ولا أطيق خسارته.

- أعتذر يا إيمان، أجهدتكِ بقصتي، لم أعنِ يومًا أن أكون مُثقِلًا عليكِ لكنني لا أملك أحدًا يا إيمان! لا أحد!
- ليس تبريرًا، ما عدتُ أستطيع أن أتستَّر على هذا!
- ماذا تريدين له، ضياعا كضياعي؟ أنا ضائع؟ أنا لا أستطيع الاهتمام بنفسي لأهتم بطفل؟ ألم تريْ حالته في ذلك الشهر الذي قضاه معي؟

للآن لا أنسى كيف أمكن لي الهرب مع طفل، كيف حملته، كيف أرهقته، أفزعته، أهرب بطفلي وأختبئ في وطني من وطني؟

- لن تتمكن من إقناعي، أنا رأيتُه اليوم، أتظنُّه بحال أفضل؟
- أنا متأكد، إنه معكِ.
- أقسم لك إنه كان أكثر من مفزوع، أكثر من متعب، أكثر من ضائع، باسل أنتَ تملكُ كل ما يربطك بالأرض من اسم وعائلة وهوية ووطن وتشعر بضياع؟ كيف بهذا الطفل الذي لا يعرفك؟ لا يعرف من أنت؟ لا يعلم إن كان له أب أساسًا؟
- دعيني أشرح لكِ أكثر، إيمان أنا م...

تقاطعه:

- أظنه الوقت المناسب لتثبت لهذا الصبي أنكَ لستَ المجرم الذي يظنه، وإن لم تقتنع، ولا بأس بأن يلقي عليك أسوأ الصفات فأنا من ستخبره عن الحقيقة بعيدًا عن جبنكَ.

ينفجر:

- هو ورم، ورم وليس جبنًا، تريدينه أن يلتقي بمريض؟

تتجمَّد، تظن بأنه يحاول التملُّص أو أنه يدعي المرض، هل هو مريض حقًّا؟ صمت طويل.

- انتظر الصبي في المطار، سأخبره بكل شيء، سأصدر له هوية وجواز سفر وسيكون معك بعد أيام.

أغلقت الخط، وأغلقت بعدها قلبي عنه، لن ألاحقه في هذه اللعبة بعد اليوم، لن أسايره لن... وتتجمد الكلمات في عقلي، كيف سأخبره؟

كيف سأحكي له القصة؟

كيف أحكي لناصر أن هناك أبًا هرب منكَ، هرب من الواقع، من التغيير الذي كان يحلم به، من الوطن، من آلام وفاة والدتك بعيدًا عنه، من اعتقال كان في وقت خاطئ، من استغلال الآخر له ليصبح مطاردًا للمرة الثانية، لكنه هذه المرة لم يكن مذنبًا؟! كان بريئًا مطاردًا، من سيصدِّقه وقد أصبح مطاردًا للمرة الثانية؟ لا أحد! لا أحد! فهل ستصدِّقه أنت يا ناصر؟ وهل سأجعلك تحبه حقًا؟

ما أصعب أن أكون بوابة تعريف أحدهم على آخر! نحن المربيَّات في دور الرعاية نقوم بهذا الدور دومًا، وهو الحظ الذي يساعدنا دومًا، وقد ينجح وقد لا ينجح، أنا التي أضع طفلًا بين يدي مربيَّة بعينها وأحاول تعريفه لها وتعريفها له بطريقة لأزرع حبًّا كبيرًا، قد ينفجر الحنان في قلب هذه المربية من كلمة واحدة أقولها عن هذا الطفل، وحتمًا قد يتقبلها الطفل كأمٍ ثانية من كلمة واحدة ستصدر عنها!!! فهؤلاء الأطفال الجائعون للحنان، لا يطالبون بالكثير، هم زاهدون جدًّا، يحتاجون نظرة أو كلمة حب، عناق، قبلة على الجبين، تربيته على الكتف، كلمة اهتمام واحدة تكفي! لكنهم يحتاجون كل هذه الأفعال بحب، هؤلاء الأيتام لديهم حاسة سادسة في تعرُّف الحب الصادق، هذا ما يجعلهم لا يبنون جسورًا سريعة مع الآخر، هم يحتاجون أن يتعرَّفوك دون أن تنظر لخلفية اليُتم، دون أن تشفق عليهم، دون أن تكون مشاعرك مغلَّفة بطبقة الحنان المصطنع التي ستؤذيهم دون أن تشعر حتى!

وها أنا الآن سأقدمه لك، سأقدِّم والدكَ لك، لم أتخيَّل يومًا أن أكون أنا الذي سيفعلها، أنا التي ستقول لكَ الحقيقة التي أخفيتها، أنا يا ناصر كلُّ ما أخشاه أن تكرهني بعد هذا، أن تحقد علي، أن تظن أنني شريكة في جريمة والدك التي لم أكن أراها جريمة تمامًا من قبل، كنتُ أجد له الكثير من الأعذار وأفكِّر بأنك هنا بأمان أكثر، كنتُ أفكر بجسدك ونسيت روحك، نسيتُ إحساسك الذي ينضج ولا يحتمل حقيقة اليتم!

لم يكن عادلًا ما فعلته مع والدك! لكنني أعترف أنني في البداية كنتُ أخشى عليك منه، من أحلامه، من مطاردات ما كانت تتوقف له، وكنتُ وما زلتُ أخشى عليك، لكنكَ الآن في عمر تستطيع فيه أن تتدبَّر أمرك، أن تعتني بنفسك، أن تذهب لغربة والدكَ علَّك تنتشله مما هو فيه، علَّك تكون له أبًا بعدما كان لكَ ضياعا، علَّك تحيي في قلبه الوطن بعدما كان لكَ المنفى، أنتَ يا ناصر الجريح كنتَ دومًا حبًّا، وستبقى كذلك، أنا أراهن دومًا على هذا القلب الجريح الذي تحمله!

أخرج من الغرفة وأبحث عن ناصر، جاء وقت العودة من المدارس لكنه لم يظهر ليلعب مع اخوته كما هي العادة، جاءت عليا تسألُ عنه، وأجبتها بأنني لا أعرف أين ذهب، تقول لي إنه كان متعبًا لكنه، لم يتركها تبقى بغرفته صباحًا لتهتم به، وكانت منزعجة كثيرًا والدموع تسيل على وجنتيها.

- ناصر تغيَّر أصبح جافًا معي، ولا يهتم لي كثيرًا مؤخرًا!
- لا بأس يا حلوتي، أظنه متعب قليلًا.
- لكنني حينما أتعب، لا أتصرَّف هكذا، أنا جدًّا غاضبة منه.

يبدو أن الأمر لم يعد بسيطًا حتى تقول عليا هذا عن ناصر، فهذا يدل على تغير كبير في هذا المراهق!!

مرَّ الوقت، ولا أحد يعلم أين ناصر، طال انتظاري له، لا يحمل نقودًا ولا يملك عنوانًا آخر أين سأجده؟ حلَّ المساء ولا خبر عن هذا الصبي، قلبي ما عاد يحتمل، هاتفتُ والده، الذي بدأ يجن، لم أتخيَّل أن يقلق لهذا

الحد، لكنني كنتُ بحاجة لمن يحمل معي المسؤولية، مسؤولية طفل مراهق في الخامسة عشرة من عمره، غضبه قد يسبب الكثير من المشاكل والقلق عليه! اتصلتُ أخيرًا بالشرطة الذين بدؤوا رحلة البحث عنه، مرَّت الليلة الأولى دون أن نجد ناصر! استيقظت عليا تبحث عنه، وحينما قلتُ لها إنه لم يعد بعد، صمتت، ثم قالت لي إنه عادةً يذهب الى تلة صغيرة قريبة من هنا، يطيل النظر فيها للبيوت المجاورة وللجبال من حوله، وقد رافقته لهناك أكثر من مرَّة، طلبتُ منها أن تأخذني لذاك المكان الذي تحكي عنه، سارت أمامي وكنتُ خلفها أتمنى من كل قلبي أن أجد هذا الصبي قبل أن يضرَّه شيء، صعدت عليا أمامي وإذا بالتلة التي تبعد عن الدار ما يقارب ثلاثة كيلومترات، سبقتني عليا للتلة وقرب شجرة هناك التفتت وأشارت أنه هنا بيدها، تسلقتُ خلفها ولم يكن الأمرُ سهلًا البتة، وصلتُ إلى هناك فوجدتُ عليا توقظ ناصر وهو منكمش على ذاته، نام طوال الليل هنا! في هذا البرد، وجهه متعب، ويبدو عليه المرض، حينما استيقظ كان يتلفَّت حوله وينظر لذاته مستغربًا، ضمَّ وجهه بيديه وركبتيه محاولًا إخفاء نحيبه عنَّا، لم تحتمل عليا رؤيته هكذا ضمته وبدأت تبكي كالأخت التي ستحمي أخاها الكبير، ما أقساني إذ شاركتُ بظلم هذا الصغير! دون تفكير بدأتُ أقول له:

- والدكَ على قيد الحياة، أنتَ تملكُ والدًا على قيد الحياة!

صمت، ينظران في عيني! وأنا لا أملكُ بعدها شيئًا لأفعله، أساعده للنهوض ونعود للدار والخوف والمجهول والألم يحلِّق في عيون هذين الطفلين.

وصلنا إلى الدار ووجدتُ المعلمات بانتظارنا. إنها الجمعة، لا مدرسة اليوم، الأطفال مستيقظون يرتقبون عودتنا، ذهبت سريعًا لغرفتي بعدما أوصيتُ الخالة سناء أن تهتم بناصر، أغلقتُ بابي والبكاء والخوف ما عادا يفارقانني، لأول مرة أشعر بالذنب! أشعر بأنني كنتُ مخطئة؟ كيف مرَّ العمر دون أن أتنبه؟! وأي عذر سأقوله له.

خطأٌ غير مقصود، خطأٌ صنعه تبعيتي لقائدٍ أحمق!

مرَّ النهار كاملًا، وأنا أنتظر قدوم ناصر لمكتبي، لم يأتِ!

في الليل قررتُ أن أذهب لأطمئن على حالته، لكنهم قالوا إنه لم يتناول الطعام، ولم يتحدث لأحد وعليا تلاصق الغرفة ولا تغادرها، توجَّهتُ لغرفة الذكور في الجزء الآخر من المبنى، وأنا أفكر بحجَّة لجعل عليا تغادر المبنى إذ أن فصلها عن الذكور في هذا العمر ضرورة لا حاجة، حتى وإن كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض كإخوة، لا يسمح بخرق التعليمات، وصلتُ للغرفة ووجدتها تجلس قرب ناصر، والآخر ينظر بعينين فقط دون أن يهمس بأي كلمة، حينما رآني أغمض عينيه، طالبتُ عليا بالذهاب لغرفتها ولاحظ خالد أنني سأقول كلامًا مهمًا لناصر فابتكر حجة غياب، جلستُ على المقعد الذي كانت تجلس عليه عليا، وقررتُ أن أقول كل الحقائق لهذا الصغير، سيبلغ ستة عشر عامًا لكنه أكبر من

عمره، من قال إنَّ هؤلاء الذين يعيشون في هذا الميتم يعيشون بأعمارهم الحقيقية، هي أقدارهم التي جعلتهم أكبر سنًّا، كما أنني هاتفتُ المرشدة النفسية التي أستشيرها غالبًا في معظم الكوارث التي تقابلني، وقد كانت نصيحتها لي أن أقول الحقيقة كاملة، الحقيقة هي التي ستجعله يعيد ثقته بي ولو بعد دهر.

- نعم كنتَ تنتظر كل يوم ثلاثاء، هل تعلم لماذا؟ هي رسالة والدكَ لوالدتكَ، كانت أول رسالة، كانا يلتقيان كل يوم ثلاثاء، حينما تركك وهرب، حاولت منعه، لكنني بعدما عرفتُ شغفه السياسي، كان خطرًا عليك أن تبقى برفقته! كان خطرًا أن تكون معه! أنتَ تملكُ أبًا مختلفًا، ووالدتكَ رحمها الله توفّيت لحظة أنجبتك، لم تكن إلا واحدة من أعظم النساء اللواتي خدمن المجتمع والناس، كانت تربطني بها صداقة قوية جدًّا، حتى قبل أن تتعرف بوالدك.

مغمض العينين وخيط من الدموع لم يتوقف يسيل على خديه، لم يقل شيئًا، لكن صمته هذا كان كالصفعات المتتالية لي، ظننته سيطاردني بوابل الأسئلة، ظننته سيلومني، سيصرخ، سيحاكم والده سيتهمنا بالكذب، سيعاقبنا، لا شيء يحدث هنا، هذا الطفل الذي كان حدسه يؤكِّد لهُ أن والده سيعود، ما عاد مهتمًّا فجأة، فقد الأمل والطموح وحتى الرغبة، هل يعقل؟

أخطاء خلقت معجزات

جلس أخيرًا خالد أمامي، يبكي! ينتحب!

- أمنياتي أن أجد نصف أب، اسمُ أب فقط، لماذا تكابر يا صديقي، مرَّ عام كامل، تستطيع الذهاب للعيش مع والدك، لديك أوراق وتأشيرة سفر، أتريد مستقبلًا كهذا الذي يجلس أمامك، سأغادر الدار قريبًا ولا أعرف أين، حتى دراستي لم أتمكن من الحصول على مجموع كاف، فماذا تنتظر مني أن أكون؟
- كن أي شيء يا صديقي لكن لا تتركهم يكسرونك، لا تمنحهم استسلامك، أنت إنسانٌ حر، تبدأ من هنا، من الحرية التي تملك، لا تكن ضحيَّة بهذا البكاء.
- مثلكَ يستطيع أن يقول كل هذا وأكثر، أنت لا تشبهنا يا صديقي ناصر، أنا ابن جريمة وأنت ابن رجل مناضل! أنا ابن سرير مليء بالدنس، وأنت ابن سرير طاهر، ما أقساها مواعظك في قلبي!

وقفتُ اقتربتُ منه، صفعة واحدة وأمسكته من ياقتي القميص:

- لا تقل أنا لا أشبهكم، لا تبدأ أحكامك اللامنطقية، لا فرق بيني وبينك! وأراك أفضل مني، على الأقل تعلم أنهم لا يعلمون بوجودك، أما أنا فوالدي يعلم أيني، ومع ذلك لم يغيَّر هذا شيئًا من حقيقة أنه لا يحتاج لوجودي! ما فائدة الأوراق يا صديقي؟ ما فائدة وجوده المتأخر هذا؟

- أنتَ لا تفهم، حتى الفتاة التي أحببتها، رفضتني رغم حبها لي، بدأت تفكر، أنا الذي سينظرون لقيدي، لاسمي الوهمي الذي لا ينتمي لأي عائلات هذا البلد، أنا الرقم 2000 نسيت، أنا اللارقم اللاعائلة، لماذا قد ترتبط برجل يشبهني حتى؟!
- إن أحبتكَ سترتبط بك، وإن لم يكن هناكَ حب، فلا داعي لهذه العلاقة.
- ما أسهل أن تقول هذا، أنا أحبها، متعلقٌ بها، منحتها حبي، كل شيء تتخيله في هذا العالم وضعته في حبي لها، وتقول لي فليكن، أنا حتى أوراق للعمل لا أملك، مكان للسكن لا أملك، وقريبًا سيطلبون مني في الدار أن أبحث عن عمل.
- أعلم، ألا تتوق لهذه الحرية.
- حرية، حقًّا هي حرية لكنها تخيفني؛ لا سكن لا شهادة لا عمل، حتمًا ستخيفني!
- ما رأيك بأن نذهب معًا، سأطالبهم بأن يخرجوني مبكرًا معك؟
- حقًّا! هذا يساعدني على الأقل، نعم بالتأكيد، على الأقل نتشارك في تحمل المسؤولية في البداية.
- سأخبر الخالة إيمان، وسنحاول أن نجد عملًا كلانا، ثم نجد سكنا بسيطا.

أخبرت الخالة إيمان بالفكرة، استغربت أنني أفتح معها حوارًا بعد مرور كل هذا الوقت دون أن أبادرها بأي حديث، وكم كانت صدمتها كبيرة حينما عرفت رغبتي في الانسلاخ عن الدار، فسألتني سؤالا واحدا:

- هل ستتمكن من تدبُّر أمرك؟ لا تنسَ أن والدكَ قد أرسل مبلغًا لجامعتك ولمسكنكَ، أنت لا تحتاج للعمل حتى!
- لا أحتاج أموالًا، رجاءً لا تذكري هذا الأمر مرة أخرى، سأتدبر أمري لا تقلقي!

وجاء يوم الرحيل، وحدها التي كانت تنازعني للبقاء، للعدول عن أمري، تجلس وحيدة على المقعد في الحديقة، الدموع في عينيها:

- تصرُّ أن تذهب.
- لا خيار لي، إن لم يكن هذا العام، فحتمًا سيكون الذي بعده لا أريدك أن تحزني، سأبقى على اتصال، سأعمل وأشتري هاتفًا وسأبقى أهاتف الدار لأطمئن عليكِ!

تجهش بالبكاء، وتلقي بجسدها في أحضاني، قلبي يتمزق لفراقها، وعقلي يقنعني بأنني أغادر لأجلها، لأجل أن أعود وآخذها معي، هذه طفلتي وأمي وأبي وكل حياتي، حضنتها وأنا أبكي، ثم هبطتُ على ركبتي حتى أواجه عينيها، هي عادتي كانت حينما أتحدث إليها وكأنني أعصي فرق العمر الذي يجعلني أبعد عن عينيها، أصبحَت عيناي قبالة عينيها، قلتُ لها وأنا أمسح دموع طفلتي:

- عليا أنا لا أعلم إن كنتِ تفهمين الآن بسنواتكِ التسع هذه معنى كلمة قدر، لكن أريدكِ أن تتذكريها، أنتِ قدري، أنتِ قدري وهل يتخلى إنسانٌ عن قدره؟؟

تجهش بالبكاء، وتقول لي بكلمات غير مفهومة:

- لا أفهم معنى قدر ولا أريد أن أفهم، أريد أن تبقى معي الآن، من سيهتم بي إن غبت، من سيحكي لي قصة من وضعني على هذا الباب، أريدكَ أن تبقى، أنت الوحيد الذي يلاعبني ويشتري لي الهدايا ويحميني.

أصمت، أقترب منها وأهمس في أذنها كلمات، تجفف دموعها وتبتسم بعدما راحت عيناها تتلفتان حولها لترى إن كان هناك أحدٌ سمع سرَّنا.

حينما لم تجد أحدًا قريبًا اقتربت وهمست لي: «أنتظرك كل ثلاثاء، كي نحكي للقمر عن الوفاء». الغريب أنني منذُ بدأت تتشكل الكلمات في حنجرتي وأنا أقرؤها، ولأول مرَّة في حياتي أسمعها من هذه الصغيرة وكأنني أسمعها لأول مرَّة، وكأنني وجدتُ عائلتي حينما نطقتها! بعدها شعرتُ بشيء على خدي قبل أن تهرب لداخل الدار، هل كانت قُبلة؟ قنبلة ورد؟ أم بذور زهرة أوركيدا غلَّفت قلبي وعقلي وقيَّدتني لحب وحيد اسمهُ عليا؟ ما أصعب أن أبتعدَ عنكِ، وما أصعب أن أكون قريبًا لهذا الحد الخطير معكِ!

ألتفتُ بعدما تأكدتُ أنها غابت داخل الدار، لأجد هذا الصديق ينتظرني على البوابة مع سائق التاكسي، ودَّعت عيناي البوابة الحديدية

والشارع وكأنني فجأة شعرتُ بحنين! أضحك وأضع رأسي للخلف، نحنُ الذين أمضينا الوقت نحلم بالتحرر من الدار وقوانين الدار، هل يُعقل أن نشعر بالحنين لحظة فتح باب القفص؟

وضع خالد يده على كتفي قائلًا:

- أتمنى ألا تندم على هذا الخيار المبكِّر.
- أبدًا يا صديقي أنا بحاجة لأن أبدأ مبكرًا أصلًا، وبكل الأحوال وبعدما عرفتُ حقيقة من كنتُ أنتظرهم، أصبحتُ أكره هذه الكلمة كثيرًا، أنظر لكل زاوية في الدار وأسأل نفسي لماذا أهدرتُ وقتي؟ لماذا تركتُ مشاعري تتحكم بي؟ كرهتُ كل زاوية كانت شاهدةً على انتظاري، أخجل من البوابة والنافذة والشجر والمقعد، من أمضيتُ وقتي أنتظرهم لا يستحقون مثل هذا الوفاء، وفقط هذه ما أملك منهم.

يمسك ورقة ميلاده وهوية أحوال مدنية قامت الخالة إيمان بالذهاب معه لعملها، نظر خالد بحزن للمغلف في يد ناصر وقال له:

- امنحني أبًا مثل أبيك وأعدكَ ألا أيأس من انتظاره، أن أقبّل قدميه كل صباح ومساء، أن أنحني عند حذائه، أن أصلي لقدميه، امنحني رجلًا على الأقل يقول هذا ابني!

يحزن ناصر لهذا الحديث الذي يشعره بأن والده على الأقل يملك جانبًا مشرقًا في نظر هذا المحروم.

- ما بكَ يا صديقي انت تملك هوية أيضًا، وسترى أن لا فرق!

يضحك، يضحك والدموع تسيل:

- نعم لا فرق لقد قلتُ لك أنا 2000 ألا تفهمني يا صديقي؟ (ويفتح أوراقه أمامي): أترى هذا الاسم؟ هو اسم من خيال دائرة الأحوال المدنية، هذه عائلة لا وجود لها في هذا الوطن بأكمله، ألصقوني بها أنا وجميع أولاد الدار مجهولي النسب! لا ليس هذا فقط أنا هذا الرقم هل ترى هويتي؟ انظر للرقم الوطني، ستجد هذا الرقم 2000 في هويتي وهوية كل طفل في الدار لم يملك شهادة ميلاد من والديه! نحن مميزون بوصمة عار، لقيط في المهد وابن حرام في الأفق! وتقول لي لا فرق؟!

الدموع تنسكب من عينيه ويحاول أن يخفيها، سائق السيارة يقول له:

- أعتذر على تطفُّلي يا أخي، أنا سمعتُ حديثكَ لصديقكَ، ليس سهلًا ما تراه وما تعيشه، لكنني أقول لك إن بيتي بيتك، واعتبر نفسكَ ابني متى ما شئت يا حيالله! انتَ ابن الأردن، ونحنُ أخوتنا بهويَّتنا الأردنية العربية.

شكرنا السائق على حسن كلامه وموقفه، كان رجلًا طيبًا، الحمد لله على وجوده فقد حاصرني خالد في زاوية، كنتُ فيها صامتًا وأفكر!

لا أملكُ ردًّا على حواره، لكن عقلي مشغول بتلك التي لا أعلم تمامًا، ما هو الرقم في شهادة ولادتها، وذاك الرجل صاحبُ السر، أتراه والدها؟ أتراه تركَ شهادةً لطفلتي؟ لا أذكر أنني رأيتُ أوراقًا في سلَّتها، عقلي يدور ويفكر ثم تصمته كلمة واحدة بأنني لن أتخلى عن ملاكي!

أنا وكلُّ هذا الكون لقطاء أمام جفن عينيها!

تتراءى المدينة الكبيرة أمامنا، وأضواء المساء بدأت تنير عمَّان التي لم نختبرها من قبل، كنَّا نحيا معزولين فيها كالوباء عن بقية الناس الطبيعيين، عمَّان الشرقية تختلف عن تلك الغربية، الشرقية حيثُ الدار التي احتضنتنا كانت هادئة بسيطة أقرب للقرية منها للمدينة، أما عمَّان التي نراها الآن فهي صاخبة وسريعة، وسياراتها أحدث، مبانيها أحدث، ناطحات السحاب فيها تحاول ملامسة الغيوم، والضجة الصاخبة التي تصاحب الشوارع والأسواق والحركة الكبيرة للناس.

فيها شيء من الحياة التي تشعرها غريبة وجديدة لنا نحنُ اللذين كنَّا معزولين عن البشر الطبيعيين، وصلنا للغرفة التي سنستأجرها، كانت قريبة من الحي الجامعي، حيث تناسبني إذا ما حصلتُ على المعدَّل الذي يؤهلني لدخول الجامعة الأردنية، حلمي الكبير. كانت لي رغبة كبيرة في دراسة القانون، ماذا يمكن أن يدرس شخصٌ عاشر الكثير من الظلم، حتمًا القانون! نحنُ نبحثُ عن العدل في زوايا العالم، وفاقد الشيء لا بدَّ أن يدرسه كي يحصل عليه، هذا ما كنتُ أفكِّر به وأنا أكتب أولى رسائلي لعليائي.. كان إيميلًا إلكترونيًّا بعدما طالبتُ الخالة إيمان بالسماح لها باستخدام الحاسب الإلكتروني في دار الرعاية.

عزيزتي عليا..

وصلنا إلى كوكب عمَّان، هل تظنين حقًّا أن دار الرعاية التي كنَّا نعيشُ فيها تشبه عمَّان التي نحيا فيها الآن، لا أظن، فرقٌ كبير يا صديقتي بين

المكانين، عمَّان هذه صاخبة وجميلة، مضيئة وكبيرة ومكتظة بالبشر، شوارعها مليئة بالمطاعم والأسواق والمساجد والمآذن الكبيرة، السكن الذي نعيش به الآن هو غرفة واحدة فقط، لكنها تؤوينا، خالد يساعدني في تكاليف الحياة، وما أجمل أن نعيش قريبًا من البشر الطبيعيين! جيراننا عائلة جميلة، وفي الطابق السفلي تعيش امرأة وطفلتها، أصواتهم العائلية تملأ حياتنا أنا وخالد، أبحث عن عمل وخالد أيضًا، كثيرون وعدونا بأن يجدوا لنا عملًا، مطاعم، محلات البقالة، أماكن تعبئة الوقود، لم نترك مكانًا، يجب أن نجد عملًا قبل أن ينتهي ما نحمله في جيوبنا، عمَّان جميلة جدًّا، ليتكِ معي الآن، وسط المدينة ساحر جدًا في المساء...

رسالة جديدة!

عزيزي ناصر..

الدار بروتينها الممل تشتاقكَ، اشتقتكَ، هل ستأخذني معك حينما أصبح سبعة عشر عامًا؟ المدرسة أصبحت صعبة والواجبات أكثر، وأحاول إيجاد من يساعدني، لكن تعلم أنتَ كنتَ مساعدنا جميعًا، ما أصعب أن أقوم بحلِّ الواجبات دون وجودكَ! تبدو عمَّان جميلة كالخيال، لا تنس وعدكَ لي.

جاء أول ثلاثاء، ولاحظ الجميع أن عليا تفترش الباحة الأمامية منذ العصر، وتدخل لغرفتها قليلًا ثم تعود سريعًا للمقعد، وسرعان ما عرفوا

جميعًا السر، كان ناصر سيأتي للزيارة اليوم، فور أن رأته قفزت كالمجنونة يداها تتشابكان خلف عنقه، يمسك يديها بأسلوب لطيف يضعهما بين يديه وينزلهما للأسفل، يهمس لها أن الجميع خلف النوافذ يراقبونهما، تخجل تنظر للخلف لتجد الجميع بلا استثناء يسترق النظر لأخيهم الذي عاد للزيارة، وقد كان استثناء، عادةً من يخرج من دار الرعاية يستحيل أن يعود للزيارة بهذه السرعة، لكن الخالة إيمان كانت أكثر من يعرف سبب العودة، هي بوصلة ناصر التي لن يضيع دربه عنها.

بعد أسبوع توفَّق ناصر بإيجاد عمل جزئي، فهو يدرس لامتحان الثانوية صباحًا، وعند العصر يتوجه للعمل، جاء يوم الثلاثاء وكان عليه أن يعمل أيضًا، تناول هاتفه النقال البسيط يتصل بالدار، وحينما جاء صوت الخالة إيمان حاول التهرُّب منها بكلمات بسيطة:

- مرحبا خالة إيمان؟ كيف أنتِ؟ هل من الممكن أن أتحدث لعليا.
- ناصر كيف أنت؟ لماذا لا تجيبون على اتصالاتي؟ ما بكم قلقتُ عليكم، أرجوكم فقط طمئنوا هذا القلب.
- خالة إيمان أقسم لكِ إننا انشغلنا، أنا حتى أتصل لأخبر عليا أنني لن أتمكن من القدوم هذا الثلاثاء، وجدتُ عملًا، ويجب أن أكون في العمل بعد أيام المدرسة.
- أنتَ لا تحتاجه يا ناصر، والدكَ يستطيع أن يؤمِّن لكَ كل هذا وأكثر.

صمت، يصمت لكنه يضرب بقدمه بالحائط أمامه، يلكم وجهه بصمت، ولكنه يفضل أن يطبق شفتيه حتى لا يصرخ بهذه المرأة الطيبة التي احتضنته، تفهم كم الغضب الدفين الذي يجعله يصمت، تتابع:

- هو لا يستحق ابنًا مثلكَ، أعلم لكنني ربَّيتكَ أن تكون القلب النابض، يومًا ما ستفهم ما كنتُ أزرع في قلبك يا ناصر، يومًا ما ستفهم.

يأتي صوتُ عليا بعدها:

- كيف حالكَ ناصر اشتقتكَ؟

كيف لصوتها أن ينسيني الدموع التي تتجمع في عيني، هذا سرٌّ لا يعلمه إلا الله! سبحان من خلق هذا الصوت ليريحني من كل هذه الدنيا!

- بخير يا ملاكي، كيف أنتِ؟ أشتاقكِ عليا لكنني للأسف لن أتمكن من القدوم اليوم.
- لماذا، لقد وعدتني.
- أعلم يا صغيرتي لكنني وجدتُ عملًا، ولا أظنني أستطيع القدوم.

تصمت وتجهش بالبكاء، يفكِّر سريعًا بحل، لكنها لا تمنحه الكثير من الوقت:

- لا بأس وداعًا.

أقفلت الخط، وأقفل الضوء في هذا العالم أمامي، حقًّا هل أغضبتها؟

أأغضب ملاكي الصغير، أي مجنون أنا! ولماذا لم أفكر بحل آخر، أضرب بيدي مرَّة أخرى، لماذا يحدث هذا معي؟!

في مساء اليوم نفسه تجلس عليا وحيدة على المقعد، تفكر ها أنتَ تخلف الوعد يا ناصر، ما عاد يهتم بي، ما عاد هو أخي الكبير الذي يشتري لي الأشياء ويدافع عني، ما عاد صديقي، تبكي، وتسير لغرفتها تاركةً المقعد الخشبي الذي يجلسان عليه عادةً حزينًا دونهما، جاء وقت النوم، في السرير تقرأ الكتاب ثم تغفو ودمعة بين الاحداق.

تستيقظ بعد دقائق على أصوات غريبة، أتراها تمطر؟

تسمع هبة رفيقة عليا في الغرفة الصوت، تستيقظ وتقول لعليا، هل سمعتِ هذا الصوت؟ تنظر للنافذة، تقف عليا مسرعةً لتنظر، قلبها يقفز، هل سترى قصةً جديدة؟ هل هو موعدها لتجد طفلًا على الباب تمامًا كما وجدها ناصر من قبل؟ تتحمَّس للأفكار وتحرك الستائر لتجد أن الذي يطرق النافذة الآن وفي هذا الوقت المتأخر ليس إلا الوحيد الذي يدور كونها معه، هل ستجد غيره مجنونًا يأتي في هذا المساء البارد ليطرق نافذتها، ركضت نحو البوابة الرئيسية لتجدها مقفلة، تفكر، المفتاح معلَّق في غرفة الخالة إيمان، على رؤوس أصابعها وكالمحتالة، تدخل غرفة الخالة إيمان لتجدها مستيقظة، تتفاجأ الأخرى لطريقة عليا الغريبة بدخول الغرفة، يحمرُّ وجه عليا، تضحك لتجعل من الموقف مضحكًا، تبقى الخالة إيمان صامتةً تنتظر تفسيرًا من الأخيرة، لتقول:

- ناصر في الخارج ويريد رؤيتي، هل يمكن أن أفتح له الباب؟ ظننتكِ نائمة لم أشأ إزعاجك!

تبتسم وهي تعلم تعلَّق هذين الطفلين ببعضهما بعضا، لا بأس سآتي معك لألقي التحية عليه، تأخذ الخالة إيمان المفتاح وتتجه للبوابة وعليا تفكر برد فعل ناصر، تفتح الخالة إيمان الباب وإذا به متأهبٌ لعناق طفلة، يتفاجأ بالخالة إيمان فتتقلص الابتسامة، وتنخفض البهجة التي كانت قبل رؤيتها، تسأله:

- اهلا ناصر، عساهُ خيرًا، هل حلمتَ بنا؟ تبتسم بمكر.
- أبدًا وجدتُ نفسي قريبًا من المكان، وقلتُ لنفسي ألقي التحية عليكم. يجيبها بهدوء مبعثر!

تضحك عليا خلف الخالة إيمان وتضع يدها على فمها محاولة إخفاء ضحكاتها، تلتفت الخالة إيمان مخاطبةً عليا هذه المرَّة، تستطيعين استقبال ناصر في الحديقة فالوقت الآن هو وقت النوم، ورجاءً أخبري ضيفكِ أن لا زيارات بعد الثامنة للدار، هكذا التعليمات. تهزُّ عليا برأسها والخالة إيمان تغيب وناصر يتمالك نفسه دون أن يصرخ، تغيب الخالة إيمان، وسرعان ما ينفجر ناصر:

- لماذا أيقظتها؟

تقترب عليا منه لتمسك يديه: لم أوقظها لكنني حاولت أن أسرق المفتاح لأفتح الباب ووجدتها مستيقظة. تضحك، يقترب منها هامسًا:

- لم أشأ أن تنام أميرتي دون أن أراها.

- أقدِّر لك قدومكَ يا ناصر. كنتُ بحاجةٍ لك لدعمكَ، يزورني ذات الحلم ثانيةً.
- أيُّ حلم؟ الرجل العجوز؟
- نعم الرجل العجوز، هذه المرَّة كان غارقًا بالماء ينتظرني أن أقترب منه، يجدف ويمدُّ بيده نحوي، لكنني كالعادة أستيقظ دون أن أذكر ملامحه حتى.
- لا بأس، أستغرب أن يتكرر المنام، لكن لا بدَّ أن هناك تفسيرا لهذا، قد يكون اللاوعي قد تأثر بالعجوز والبحر الذي تقرئينه الآن، كيف وجدته؟
- كل الكتب التي تحكي لي عنها جميلة جدًّا، أشتاق حواراتنا حول الكثير من الأشياء، هل يعني هذا أنكَ لن تأتي كل ثلاثاء؟ أم أنكَ ستأتي متأخرًا كاليوم؟
- لا أظن الأمر سيكون سهلًا لكنني سأبقى على اتصال لا تقلقي يا صغيرتي، أنا لا أستطيع أن أتركِكِ، أنتِ عائلتي، تذكري جيدًا!
تبتسم، ويمنحها كتابًا جديدًا لتقرأه!
- ما هذا أيضًا؟
- يجب أن تقرأيه، هو كتاب يحكي عن عدد من الشعراء العرب. المتنبي وأبو فراس الحمداني من المفضلين لدي. أتمنَّى أن يروقكِ شعر الحلاج أيضًا!
- كلماته صعبة، أنا بالكاد افهم ما يقولون!

تفتح الكتاب وتبدأ بقراءة بعض الأشعار بصوت مرتجف وأخطاء كثيرة...

قرأت تقول:

إذا هجرتَ فمن لي
ومن يجمِّل كلِّي
ومن لروحي وراحي
يا أكثري وأقلِّي
أَحَبَّكَ البعضُ منِّي
فقد ذهبتَ بكلِّي
يا كلَّ كلِّي فكنْ لي
إنْ لم تكُن لي فمَن لِي
يا كلَّ كلِّي وأهلي
عند انقطاعي وذلِّي
ما لي سوى الروح خذها
والروح جهدُ المقلِّ

تنظر لعيني، ولا أعلم إن كانت تعي ما تفعل، أو إن كانت حتى تفهم معنى الشعر الذي قرأته، لكن كل حرف قرأتهُ كان يحكي كلَّ خليَّة في جسدي لها ومعها..

مرَّت الأيام ولم يتوفَّق خالد بعمل جيد، كان يعمل ويتم التخلي عنه بعد فترة، أو يتعرض لإهانة خلال العمل، أو حتى يتم استغلاله للعمل

لساعات أطول دون وجه حق ودون أن يتم الدفع له على وجه صحيح، ونحنُ الورقة التي يسهلُ التلاعب بها، يكفي أن يكون دون عائلة كي يظنَّ أي جهة أخرى عائلته، هكذا تم الإيقاع بخالد، ليصبح فجأة إسلاميًّا وهو الذي لم يكن يصلي من قبل! رغم أن الخالة إيمان حاولت بكل الطرق غرس الدين في قلوبنا، والشيوخ الذين كنَّا نقابلهم كل جمعة، كانوا يتعاملون معنا بطريقة رائعة تجعلنا نحبُّ الاصطفاف خطوطًا والصلاة خلف الإمام، الذي لم يكن يومًا خالد! حينما سألته عن انتماءاته الجديدة، وثوبه الأبيض الطويل أجابني بأنها إكسسوارات خاصة لعمل جديد، فحتى تكون الفتى الذي يفتح المسجد ويضيئه ويهتم به يجب أن ترتدي ملابس خاصة، ويجب أن تسير ضمن منهج أصحاب المساجد.

- ماذا عن قناعاتك؟ ميولكَ؟ أفكاركَ؟
- أرجوك ناصر، حينما أكون إنسانًا طبيعيًّا، حقيقيًّا، كاملًا، اسألني هذه الأسئلة لكن الآن أنا الشيخ خالد، حتى أجد عملًا آخر!

كنتُ أفكر دومًا بعليا وبإخوتي في دار الرعاية، ماذا سيكون مصير كل واحد منَّا، أحلامنا كبيرة في هذه الحياة، أتراهم سيحققون أحلامهم أم سيكونون ضحية أخرى كخالد، لن أسمح لذلك أن يحدث، أنهيتُ دراستي الثانوية وحصلتُ على مجموع يؤهلني للحصول على شهادة القانون من الجامعة الأردنية!

ولهذا اليوم لم أنسَ كيف تلقينا خبر نجاحي، قررتُ الذهاب للمبيت في الدار ليلة صدور النتائج، شعرت الخالة إيمان بقلق كبير، وحينما قلتُ

لها إنني أفضل المبيت في الدار هذه الليلة، كانت سعيدة جدًّا، أمضينا الليلة ساهرين على المقعد الخشبي أنا وعليا والخالة إيمان، كنا نتحاور ونتحدث عن العلامات والتجميعات، وتوقعاتي، حتى قالت الخالة إيمان إنها تشعر بالتعب، وغادرت لغرفتها، بقيت عليا بجانبي، قالت لي:

- لم تخبرني القصة منذ زمن، قصة وجودي.

عيناها تحكيان حزنًا غريبًا، شعرته منذ فترة لكنه الليلة كان متأججًا برفقة قلقنا على نتيجتي، بدأتُ سرد الأحداث، وقفتُ كعادتي وبدأت أمثّل لها أين كنتُ أقف، ومن أين جاءت السيارة وكيف وضعكِ الرجل السر أمامي، وكيف قال اسمها عليا، كيف غاب بعدما بقي يبكي في السيارة لفترة، ونظرتُ في عينيها لأكمل وإذا بالدموع تحرقُ وجنتيها، وضعتُ يدي على عيني حتى لا ترى دموعي التي تهطل لحظة بكاء صغيرتي.

سألتها بعد لحظات:

- ما بكِ؟

تحاول استجماع ذاتها، تحاول التظاهر بأنها بخير:

- ما أصعب هذا المكان دون وجودكَ فيه! ما أصعب أن نكبر دون أن تكون معي يا ناصر!
- لكنني أحادثكِ دومًا، حدث شيء جديد؟
- نحنُ كل يوم يحدث معنا شيء جديد، ذاك اليوم وقعت الخالة إيمان، وكنا في وقت الغداء، وتم نقلها للمشفى برفقة العم محمود

الجار الطيب، ثم عادوا وسمعت العم محمود يخبر الخالة سناء أن الخالة إيمان أصبحت أكبر وهذه الأعمال كثيرة عليها!

- لماذا لم تخبروني بكل هذا؟
- كان لديك اختبارات وكانت الخالة إيمان توصينا ألا نحكي لكَ شيئًا يقلقكَ علينا.

شعرتُ للحظات أنني أخطأتُ إذ غادرتُ الدار مبكِّرًا، شعرتُ أنني ظلمتهم جميعًا كي أكون مع خالد، أصبحتُ فجأة أشعرني المسؤول هنا استأنفت عليا:

- عدا عن المضايقات التي نتعرَّضُ لها أحيانًا في المدرسة، عيد الأم، ثم حفل الآباء، وحتى رسالة المعلم لولي أمر الطالب تجرحنا، ناصر أنا ما كنتُ أشعر بكل هذا وأنتَ هنا! ثم إن العائلة التي طالبت باحتضاني من قبل عادت تطالب بذلك، وقد رفضنا مرةً أخرى، رغم أن الخالة إيمان حاولت أن تقنعني بأن فرصتي لمستقبل أفضل تكون من خلال احتضاني ضمن عائلة، هل هذا صحيح؟ لا أشعر أنني قادرة على البدء في مكان بعيد عن هنا يا ناصر!
- لا أعلم ماذا تقصد الخالة إيمان، لكنني لا أريدكِ أن تقلقي بكل ذلك، الخالة إيمان تنسى أنني عائلتكِ هنا، أنا أمضيتُ الليالي أدرس وأجتهد لأكون معكِ، سأنجح يا صغيرتي وسأنهي جامعتي وأعمل وآتي لأخذك، سأنفق على دراستك الجامعية وستصبحين

حلمًا يتحقق، لا تقلقي يا صغيرتي! لا تقلقي يومًا؛ أنا ناصر والدكِ أخيكِ وكل عائلتكِ!

يزداد الخوف في قلبي، يزداد القلق، وأعلم أنني قدَّمتُ كل ما أستطيع خلال ليالي سهري الطويل، لكنني قلقتُ أكثر لأن نجاحي يعني نجاح عائلتي الصغيرة، أنا مسؤول منذ كنتُ في الثامنة من عمري، منذ وضعكِ السر في وجودي! آه يا قلقي! ما أصعب أن أرى الحزن في عينيكِ يا ملاكي.

استيقظتُ فجرًا لأجدني على المقعد الخشبي في غرفة المعيشة في الدار، وعليا تغفو فوق الأريكة قبالتي، يبدو أنني غفوتُ قبل هذه الصغيرة، أجدُ غطاءها الوردي الملوَّن علي، أضعه على أنفي أشمُّ رائحة صغيرتي، تعبها أرقها سهرها فرحها، رائحة شعرها، رائحة الذكريات، هو ذات الغطاء الذي جاء في السلَّة، ذات الغطاء الذي يشهد على كل القصة، تصيبني قشعريرة جديدة وأشعر بعجزي للحظات أنا لا أستطيع حماية ملاكي حتى!

أخطاءٌ نضجت

ناصر...

الطقس باردٌ هنا يا حبيبتي، والثلوج التي تغطي كل شيء حولي هنا في وارسو تجعلني أشتاقكِ حتى يموت قلبي، هو ديسمبر يا أنا، تنتهي كل تفاصيل هذا العالم في ديسمبر وأنا يبدأ تقويمي من هناك، تعلمين أنه عيد ميلاد سعادتي، لكن البرد الذي أحياه هنا لا يمكن أن أصفه لكِ، أشعلتُ المدفأة وأشعلتُ نيران الموقد، أختبئ تحت غطاءٍ وأنامُ فوق أريكتي أمام الموقد الذي ينعكس على خط المرايا في الشقة، النيرانُ من حولي في كل مكان ولا دفء يصل إلي، وأعلمُ أن هذا البرد في داخلي لن يدفئهُ إلا شمسُ عينيك، أعي تمامًا أنكِ لو كنتِ أمامي الآن بشعركِ الثائر، وضحكتكِ المجنونة، وبريق عينيكِ لأصبح بيتي وجسدي وقلبي أدفأ! ولاشتعلت نيرانُ روحي بشعلة وجودكِ!

هل كان يمكن أن أبقى هناك، حيثُ أنتِ؟! أتراكِ تفكرين بي كما أفكر بكِ؟

أنظر لهاتفي ولصورتها فوق الهاتف، اسمها بين الأسماء!

ليتني أستطيع الاتصال بكِ! يطول تأملي لعينيكِ، لضحكتكِ، وأحضن الهاتف! أحضنُ الصورة، وأحضنُ طوقًا وضعتهِ فوق عنقي حينما غادرتُ دار الرعاية باتجاه المطار! أعلمُ أنه قرارٌ قاتل، لكن كيف لي ألا أتخذه، أنا

الذي كنتُ أختار كل شيء لأصبح أفضل رجل سينقذكِ من خراب اليتم، أشتاقكِ كثيرًا، أنا الذي أخبئ لكِ كل جوع جسدي، كل كلمات الغزل في شفاهي، كل نبضات قلبي للحب، لو تعلمين..

لو تعلمين كم مرَّة فكرتُ أن أرسل لكِ اعترافي دون أن أعترف، لو تعلمين كم مرَّة قلتُ سأفاجئها بزيارة وباقة من الورد وبعض الشوكولا الأوروبية اللذيذة المزينة بعبارة (Cię Kocham) التي تعني أحبكِ في البولندية...

لو تعلمين... كم مرَّة هاتفتكِ لأقولها لكِ، لأحاول بوح اشتياقي المجنون، دون أن أجرؤ حتى، لتنتهي المكالمة وأنا أعضُّ ظهر سبابتي لتضييع فرصةٍ جديدة كادت تكون بداية جميلة لقصة حب يكتبها قلبي الخجول.

لو تعلمين... عدد الرسائل التي تكدَّست في مسودَّاتي، كُلُّها كانت تحمل أخطاءً مقصودة تبدأ ب«حبيبتي عليا»! «حبي عليا»! «عشقي عليا»! دون أن أرسلها حتى! رسائلي هذه تكفي لتكون مخطوطًا أو رواية بعنوان وحيد «خطأ مقصود».

لو تعلمين عدد الرغبات، الأمنيات، العناقات، القصص، والروايات التي كتبتها في عقلي عنكِ!

قصص الحب التي رغبتُ فيها معكِ لا حصر لها، كل رواية قرأتها كنتُ أتخيَّلُ فيها رأسكِ على صدري لأقرأ بصوت مرتفع، تمامًا كتلك الأيام حينما كانت أحضاني وطنكِ، حينما كبرتِ على قصصي، على

صوتي على أبجديتي، أنا بنيتُ تاريخًا معكِ، وكنتُ أبني مستقبلنا معًا أيضًا، كنتُ أرسم القادم بريشة رغباتي بأنكِ شريكتي في هذا العمر! وحدكِ، الطفلة التي تربطني بهذا الكون، كبُرتْ لتصير حبيبتي، ثم زوجتي، ثم قدري الذي أمنحه كل عمري دون أن أتردد.

لو تعلمين، كم مرَّة قلتُ أريد أن أسأل الخالة إيمان، علَّها تبارك حبنا وتساعدني كي أتخلَّص من ترددي، ترددي الذي لا يتركني، أنا الذي كنتُ بوصلتكِ للوقوف، للاختيار، أنا الذي علَّمتكِ القراءة، وكنتُ أبني لكِ هويتكِ دون أن أؤثر في ميولكِ، كنتُ أرسلُ لكِ كتبًا كثيرة، لا أختارُ شيئًا محددًا لكِ، بل أميلُ لأجعلكِ تختارين كتابكِ المفضل، أحاول ألا أزرعني داخلكِ، أنا الذي لا أريد إلا أن أكون حبيبكِ يومًا ما!

قلَّمتُ أظافركِ، ونظفتُ أسنانكِ، مشطتُ لكِ شعركِ، وحينما قالوا لي ليس بعد اليوم، لقد كبُرتما! كرهتُ أن أكبر، وتمنيتُ لو كنَّا أبطالًا لصورة فوتوغرافية، كي لا أكبرَ!

تمنَّيتُ لو كُنتُ شيئًا لا حياة فيه! كي لا أكبرَ بعيدًا عنكِ!

أن أكونَ مشطًا، مرآةً، كتابًا تنتهين منه وتلقينهُ على رفٍّ بائس في غرفتكِ، أطالعُ نومكِ صُبحكِ، عيناكِ تستيقظان وتذوبان في النوم.

من أنتِ؟ ولماذا لا تصغرين داخلي أبدًا؟ لماذا يكبرُ نبضكِ في قلبي لماذا؟ أفكرُ جديًّا بحجز تذكرةٍ للعودة، مرَّت أربعة أعوام دون أن أراكِ، دون أن تكوني بجانبي، أهاتفكِ مرَّة أسبوعيًّا، ورسائلنا الإلكترونية ما زالت تكبر، لكن هذا لا يكفي! أحتاجُ أن أراكِ، أحتاجُ أن أحكي لكِ كل

ما حدث معي، منذُ أول يوم هبطتُ فيه هنا وعانقتُ أرض وارسو، أحتاج أن أصف لكِ رجلًا يقولون إنه أبي! دون أن أشعر بأي شيء يتحرك في قلبي، حينما وصلتُ للمطار وخرجتُ بحقيبتي البسيطة ضائعا تائها، المطار شيء مخيف لو تعرفين، وجوهٌ كثيرة باردة لا تنظر إليك، وإذا ما شعرتَ بأنك تائه، لن تجد من ينجدكَ بسهولة، المطارات عالم مروِّع، ليس لشيء إلا لأن الإنسان يركض فيها خلف طريقه ومحطته، دون أن يكترث بمحطة غيره، بقلق غيره، بتوتُّر من يفعلها لأول مرَّة! المطارات طُرُقنا التي تقاطعت، أنا وجميع الرُّكاب نصلُ لنقطة قدرية جمعتنا لتلك البوابة، نحنُ بالذات، ألأننا الأسوأ حظًّا على هذا الكوكب! أم لأننا الأطيب قلبًا، الأكثر صمتًا! الأكثر شعورًا بالحزن! لا أعلم، لكنني لا أشعرُ بالراحة فأنتِ لستِ معي، وكل طريق وبابٍ بعيدًا عن عينيكِ لا أريده، جسدي وقلبي يرفضانه!

وصلتُ إلى البوابة التي تخرجُ فيها القلوب لتعانق أشواقها، وأنا أخرجُ من البوابة تاركًا قلبي في عمَّان معكِ، وشوقي معكِ، وكل ما أريدهُ معكِ، وأبحث عن رجلٍ سيساعدني لأعود بطلًا لكِ!

يرفع اليافطة للأعلى، ناصر باسل الفوزي، وأراه، أراهُ ويتحركُ شيءٌ في قلبي، ينبض بسرعة! وتدمعُ عيني، أسكته، أحاول إخراس أحزاني، أحاول الانشغال بياقة القميص، بالقادمين معي، بشعر طفلة تسير أمامي، بعناقٍ حارٍ لعاشقين، بلون الجدران، لا شيء يجدي، قلبي يكاد ينفجر، أُدخل يدي اليمنى باتجاه قلبي متواريةً بمعطفي، أضعها على قلبي،

أضعها على نبضي، كي تسنده، محاولةٌ بائسة لمساعدة ضعف هذا القلب، أزيح نظري لحقيبة السفر، للبوابة، للمخرج، لأي شيء إلا هو!

(أكتبُ لكَ ما حدث، لكنني أبكي، والكاتبة تبكي، وقلبي يبكي، كيف أغفر لكَ ذنبًا كهذا، كيف أساعدُ روحي أن تلتئم، وأيُّ عذر قد يكتبه الورق لك، لا أجد، أحاول أن أختلق لكَ عذرًا لكنني لا أجده! أعجز، أنا الذي خلال ثمانية عشر عامًا حاولتُ أن أبحث لك عن عذرٍ للغياب! لكنني لم أجد!

أو حتى ما قالته الخالة إيمان على سبيل أنهُ حجة مقنعة لغيابك، كنتُ أراهُ لا شيء، كنتُ أعلم أنكَ لو أحببتني فقط قليلًا لسامحتكَ! لكنني الآن في هذه اللحظة! لا يمكن أن أسامح!).

أسير إليه دون أن أريد، أنا الذي جئتُ لا أعلم لماذا جئت؟ ولأي ألم جئت! خطوة، خطوتان، وأتجاوزه! كنتُ أظنه لن يعرفني، وعلى عكس التوقعات، يلتفت لي ينادي ناصر، هو يعرفني!

أتابع سيري دون أن ألتفت، أخرج للبوابة، للسماء، للحياة التي حضنت حزني دومًا دون أن يكون فيها، يسيرُ خلفي وأحاول الانفراد بنفسي، لأقرب مكان لا يوجد فيه بشر، أنهار أبكي، وأبكي، وأبكي! أطرقُ على صدري أن اصمت، أمسح دموعي أُعيد ترتيب ذاتي، حديث عقلي يقول لي ابقَ قويًّا، لا تحزن، أنتَ هنا لتحصل على مستقبل أفضل، عليا تنتظرك، أطفال الدار بحاجتك، أتماسك، أنهي حديث عقلي وأعود إليه لأجده يدخِّن سيجارة على بعد ثلاثة أمتار مني، حينما رآني، أمسكَ

علبة السجائر يفتحها ويضع يده أمامي، يعرضُ علي سيجارة! حقًّا أنا الذي لم أدخن يومًا، كنتُ على وشك أن أقول له إنني لا أدخن، لكنني كنتُ مشمئزًا لا أريد كلامًا، مددتُ يدي وسحبتُ سيجاره، أردتُ أن أريه بأنني كبرتُ ولا حاجة لوجوده، آخذ الولَّاعة وأشعل شرارة روحي، أشعل السيجارة، لا كلام، انتهينا من التدخين صامتين، سعلتُ كثيرًا قبل أن أنهيها، وقد أثرتُ شكوكه بأنها فعلًا أول سيجارة أضعها في فمي!

أشارَ لي بيده وقال: من هنا.

كنتُ أسير خلفه، مستسلمًا، لا أعلم ما القادم، أسترقُ النظر لكتفيه، لمشيته، أظنها ذات القامة، أتفوَّقُ عليه بالطول أكتافنا متقاربة بالعرض، أنا نحيلٌ جدًّا وهو يظهر أقوى، في السيارة أسترقُ النظر ليديه، للون بشرته، تجاعيده، وصمتٌ طويل، أنظر من النافذة، آهٍ ما أصعب غربتي! أشتاقُ عليا فقط أريد أن أدفن رأسي في حضنها الصغير وأستسلم!

من أنا؟ من أنتِ يا وارسو؟

مدينة جديدة، مجروحة متعبة، جميلة ثائرة، بعض المباني تكادُ تسقط لشدَّة تآكلها، قديمة، صامدة رغم كل شيء، تشبه قلبي المتآكل حزنًا، وبعضها حديث لامعٌ برَّاق يشعُّ جمالًا وحداثة، كأحلامي مع صغيرتي!

أعدتُ رأسي للخلف، الكرسي يسند رأسي، أغمضتُ عيني لأريح قلبي وبصري وحواسي من كل ما يحيطني، واستيقظتُ على هزَّةٍ من يده، حمل حقيبتي وسار أمامي، وجدتُ ذاتي في مصف السيارات تحت الأرض، قاتم وإضاءة خفيفة، شعرتُ بارتياب، وفي المصعد أزرار وأرقام

كثيرة، ثم رقم 25، كنتُ أراقبه بصمت. وصلنا للشقة، فتح الباب ودخلتُ خلفه، شقة صغيرة جميلة جدًّا، نوافذ تطلُّ على المدينة بأكملها، الواجهات الزجاجية للشقة في الصالة وغرف النوم من كل جانب، الكتب في كل مكان، المقالات، الصور واللوحات، وتستوقفني لوحة على الحائط لامرأة تعزف على العود، سرتُ نحوها، تجمّدتُ أمامها، أتكون هي؟

قالت لي الخالة إيمان يومًا أنتَ تحب الموسيقى كوالدتك!

كانت تعزف على العود! لا بدَّ أنها هي، دمعت عيوني، نظرتُ لليمين، لوحة أخرى امرأة في أحضانه، يبدو أصغر بكثير، يضحكان ضحكة تظنها لا تموت، لا أعلم لماذا قتلها القدر! أهرب من هذه الصورة أيضًا لمكتبة مليئة بالكتب وزجاجات الخمر وصورة أخرى كانت ذات المرأة حاملا فيها، تضع يديها على رحمها ويضع يديه فوق يديها! أرتبك أكثر، ويرتجف جسدي أكثر أشيرُ له للصورة دون أن أنبس بحرف، ويهز رأسه بالإيجاب، دموعه تنسكب أخيرًا، باسل يدمع، باسل يبكي، باسل يحترق أخيرًا أمام أحدهم، يشعر أخيرًا أتراه عاد؟!

لا أشعر بأقدامي بعد ذلك، أنهار على ركبتي، أمام صورها التي تحيطني، لقاء خاص من نوعه، عناق مختلف في حضرة أمي التي أراها لأول مرة في حياتي على شكل لوحة، عيناها.. وجهها.. لون شعرها.. أنا الذي أحمل ملامح وجهها دون أن أعرف، كان يكفي أن أتمعَّن في وجهي جيدًا كي أراكِ، كان يكفي أن أنظر في وجهي كي أعرفكِ، أبكي، لستُ

غاضبًا من أحد، لكنني حزينٌ على نفسي، حزينٌ لأن هذه الصورة كان يمكن أن تكون قصَّةً أجمل، كان يمكن أن تكون عائلة سعيدة، فلماذا أنا؟ حزينٌ لأن ألتقي والدتي للمرَّة الأولى وتكون صورة، ولا حقَّ لي في عناق حتى! هل فهمتم ماذا يعني أن تولدَ يتيمًا؟ وهذا الرجل، هل قضى عمره في متحف اسمهُ أمي، متحف داليا!

وجدته يقترب مني ويحضنني من الخلف ويبكي، بكينا طويلًا أمام الصور في شقة الطابق الخامس والعشرين، في مكان غربتنا! لا وطن، لا انتماء، غريبان التقيا للتو، يتيمان التقيا للتو!!

تعزَّينا أخيرًا، تعزَّينا من كل كبرياء، أنا الذي أحتاجه قسرًا، وهو المذنب لا بأس، قد أغفر لهُ أي شيء فعله بي، انهار كبريائي وانهار شموخه، انهارت أحزاني وانهار صمته، نزف قلبي وأظن قلبه كان مستنفدًا كل دمائه، لا أعلم كم من الوقت بقينا هكذا، كم من الوقت جلسنا على المقاعد متقابلين، ليقطع الصمت ويقول:

- كما ترى، أنا الذي لم يستوعب هزائم القدر، أنا الذي لم أفهم كيف تغيب حبيبته هكذا!

يقف بتعبٍ شديد، بآهات مكتومة، يدخل غرفته يلتفت ويشير لي للغرفة الأخرى، ويغلق بابه، أحاول الوقوف، أجرُّ ما تبقى من جسدي للغرفة أدخلها وأُلقي ذاتي فوق السرير دون أن أنتبه لشيء حولي، ولفرط التعب أغطُّ بنوم ثقيل. بكيتُ كثيرًا، وهذا الجهد الذي أمنحه للدموع يجعلني خائر القوى، أغيب في دوامة، أحلام صور، أرى العود يعزف،

ويديها ترقصان فوق الأوتار، أنظر إليها، إنها أمي، أدققُ في ملامحها، هي ليست أمي هي عليا، تعزف وتعزف، أكلِّمها لا تجيب، الموسيقى صاخبة، وأنا أحاول نطق اسمها، أصرخ، أصرخ «عليا» لكن صوتي لا يخرج، أختنق وأستيقظ على رجَّة من جسدي محاولًا أن يتخلص من حالة الخرس تلك، العرق يتراقص فوق جبيني، لا أعلم كم مرَّ من الوقت وأنا نائم، أنظر حولي، كان وقت الغروب، انعكاس الشفق فوق النوافذ وجدران الغرفة، المرايا واللوحة أمامي، كانت صورة، صورتي، أتفاجأ، أجلس كمن اكتشف شيئًا حوله فجأة، أنظر حولي، هذه الغرفة تحمل الكثير من صوري في الدار، صورة عيد ميلادي السابع ثم العاشر، صورتي في مدينة الألعاب في العيد، صوري وأنا أصغر عمرًا، أول مرَّة أرى هذه الصور، صورة وأنا في الثالثة من عمري مع امرأة كبيرة في السن، صورة مع الخالة إيمان في شبابها. ما أصعب أن عشنا أنا ووالدي في قفصين! إقامة جبرية، هو وضعني في قفص اليتم وأقفل على ذاته في القفص الآخر، أحاول فهمه، وأعجز! صورة أخيرة كان يضعني فيها في حضنه بجانب المرأة الكبيرة في السن، كنتُ أنظر لتلك الصورة بطريقة غريبة، شعرتُ أنني كنتُ أعي تلك الصورة، أو المكان، شعرتُ أنني رأيتها في ذاكرتي من قبل!!

على المكتب ملف أفتحه لأجد نسخه من شهاداتي المدرسية، شهادات التفوُّق، كل شيء لي كان يملك منه نسخة، ثم وجدتُ رسالة... رسالة غريبة يبدو أن أمي كتبتها، تقول:

باسلي..

نعم أنا العنيدة القاسية، أنا القوية المدللة، تلك التي كانت تحكي لك طفولتها ومراهقتها، تلك التي كنتَ تلهو بأصابع أحلامها، وتحكي لها عن عشتار روحها.

ما زلتُ كما تركتني، وحدَه جنوني الذي نضج، بات انتفاخ جسدي مصدر قلق وخوف كبيرين، أمام كل تلك العيون الشرقية التي تتربص به، ذاك الطفل الذي غرسته في شيطنتي قد كبر وبات مراوغًا، أصبح يتحرك بسرعة، داخل رحم صمتي الصغير، وها أنا أعتزل البشر جميعًا فأنا في شهري التاسع، سأنجب منك قريبًا، سأنجب منك جنونًا، فيه منك سمار الجبين المرتفع، واشتعال ثورة بدائية في عينين دائمتي الرغبة والحزن، فيه من استقامة أنفك، وانكسار شعرك، فيه منك، مشاكسة شفتيك، وطفولة يديك، وتبعثر الخال على وجنتيك، كلما تذكرتك، شعرتُ بحركة في داخلي، أحمقي الصغير يتحرك، يدفعني بعنف يضربني بألم، أضع يدي عليه، فأشعر بأعضائه، ونبض صغير يتابع نبضي، أسمع صوته داخلي، يناديني فألبي، قد باركت جنينك في كل المساجد، ومنحته قداسة كل الكنائس، قد حفظ كل الشوارع وزار كل المقابر، قرأت له في شهره الأول القرآن الكريم.

وفي شهره الثاني قرأت له الكتاب المقدس، بعهده القديم وصيفه الجديد، في شهره الثالث حكيتُ له عن نيتشه، وعن زرادشت صديقك!

وفي هلاله الرابع، حدثته عن نسبية آينشتاين، وعن رجل لا يرى خياله في المرآة لطالما كان يسير برفقة الحب وبسرعة الضوء. في بدره الخامس رويتُ له قصة التاريخ وحكاية قرطبية تبدأ بـ«عبد الرحمن الداخل» وتنتهي بين يدي رميكية حسناء على شفا هاوية من أندلس مفقود. في قمره السادس حكيت له عن ستين عامًا من النكبة في انتظاره، وفي سابع جنون، علمته نزار وكيف كُتِبَ تاريخ النساء في مدرسة للحب وصهيل للأحزان، علمته أن لا غالب إلا الحب حتمًا..

في ألمي الثامن علمته الحزن، علمته كيف يزرع الضحك. بدأت بالحديث له عنك في شهري التاسع، حينما لعبت معه لعبة الشطرنج وجعلته يهزمني..

وفي عزلة تشبه مئة عام، فهمتُ معه معنى الانتظار، وحين اقتربت الحقيقة اكتفيتُ بتعليمه أهم الدروس بعد كل تلك الشهور. وبعد أن أصبح قادرًا على الكلام علَّمته الصمت، والحديث عبر نبضات، فما زرعه في رحمي، لم يكن سوى نبضات!

هكذا منحتك جنونًا، ليس كأي جنون، فقد زرعتُ فيه الخير والشر في آن واحد.. ولم أتركه صفحة بيضاء، كي تكتب عليها ما تريد، سأسميه ناصر، حتى ينصر كل ضعيف في هذا العالم، كي يناصر كل مظلوم بقلب حر! لن تستغرب ما فعلتُ حتمًا، فلقد أدركتَ مسبقًا أنني لستُ كباقي النساء، وقد علمتني ذلك دومًا، حين غاب هذا عني لحظة طيش!

حبيبتكَ داليا

أنهيتها وأنا أبكي، أنا كل ما زرعتِ داخلي يا أمي وأكثر، أنا هذا الذي لم تكوني معه طوال حياته، لكنكِ زرعتِ فيه جينات من حب وقراءة وكتابة! أنا ناصركِ.

أشياء كثيرة عني ومني في هذه الغرفة، هل كان مهتمًّا لهذا الحد؟ لكن لماذا؟ لماذا لم يأتِ؟ يتعبني السؤال، ويتعب السؤال مني، دون أن نحصل على ما يقنعنا من أجوبة!! لماذا يا أبي؟

خرجتُ من غرفتي، لم أجد أحدًا في الشقة، كانت فارغة إلا من صور أمي، وقفتُ أمام حضرة كل صورة، لمست وجهها، عانقتها، وقبَّلتها، هو لقاء لا يشبه أي لقاء، حبُّها الفطري المخلوق في قلبي عاد لينبض برفقة الصورة، أنا والدموع وشرفة كبيرة تطلُّ على هذه المدينة الحزينة، أنا وأنتِ يا وارسو بدأنا للتو بناء جسرٍ للصداقة، وجسرًا آخر للذكريات والألم، ستكونين شاهدة على خذلاني، وسأبقى غريبكِ ويتيم عمَّان! هي صفات لا يمكن أن تبتعد عني، قدري أن أكون بهذا الحجم من الألم!

أفكر، لو كانت عليا هنا فقط! كل شيء كان سيكون أخفَّ وطأة، أمسك هاتفي لكن هذا الخط لا يعمل وأظنني بحاجة لشبكة، أسمعُ صوت الباب، يفتح الباب ويدخل، أنظر باتجاه الباب وإذا به يحمل عددا من الصناديق والأكياس، يدخل المطبخ بصمت ويحضّر الطعام، دقائق يعود لي، يقول بهدوء:

- الطعام جاهز...

أنظر في عينيه وعتمة الشقة، وتسير في روحي رعشة، خوف، غربة أخرى، حنين لا أفهمه، وريبة لم أفهمها، أسير خلفه لتناول الطعام، وحينما انتهينا، قال لي:

- الحاسب في غرفتك يملك تغطية للشبكة في حال ما قررت مهاتفة إيمان، فهي قلقة عليك، وهذا رقم بولندي ضعه في هاتفك ستحتاجه حتمًا.

أهزُّ رأسي بصمت.

أنهينا تناول الطعام، ونحنُ نكتشف بعضنا البعض، كنتُ أسترق النظر إليه وهو يبقي عينيه بعيدًا عني معظم الوقت، ثم يرن الهاتف الخاص به، يتناوله ويجيب:

- أهلًا يا صديقتي إيمان، كيف أنتِ؟

أتابع صمتي وأنا أسترق النظر لوجه هذا الذي يسمَّى والدي، خطوط الضحك بجانب عينيه، شعره الذي كساه الشيب، حجم يديه، صوته، وكيف يتحدث على الهاتف، كيف يضحك، كيف يستخدم يده ليشير للأشياء رغم أن لا أحد يراها، تعبيراته المثقفة، رجل قانون حقًّا، فلماذا لا عدل في حياته؟! وأنا الذي ظننتُ أنني إذا ما درستُ القانون سأملك العدل، وسأتمكن من اجتثاثه من حقول الظلم! تستوقفني كثيرًا عيناه، حزنهما، وشعوري الكبير بعدم الطمأنينة معهما، يقطع علي التقاء عينيه بعيني، وأسمعه يقول هذه الخالة إيمان تودُّ الاطمئنان عليك!

تناولتُ الهاتف من يده، أضعه على أذني ولأول مرَّة أشعر بأنني اشتقتُ كل شيء كان يأتيني مع صوت الخالة إيمان، اطمأنت علي، واطمأننت منها على الجميع. كان صوت عليا بجانبها يذكرها كل دقيقة أنها تريد أن تتحدث، كنتُ أسمعها وقلبي يرقص فرحًا لإصرارها وخوفها أن تقفل الخالة إيمان دون أن تمنحها دورًا، وأخيرًا لم أستطع صبرًا طلبتُ من الخالة إيمان أن أكلم عليا.

كان باسل أو ما يسمونه «والدي» يرتِّب باقي المشتريات، ليتوقَّف ويلتفت لي، شعرتُ بتوتُّر نظرته، أتراهُ تنبَّه لصوت قلبي، أم تراهُ لاحظ حجم الشوق، اتساع الابتسامة، انهمار المطر، أو حتى انشقاق مغارة سعادتي حينما أحادث ملاكي، توقفتُ وتوجهتُ لغرفتي لأتابع مكالمتي، مخلِّفًا الفضول لهذا الغريب وكل علامات الاستفهام!

- كيف أنتِ يا صغيرتي، لو تعلمين كم اشتقتكِ!
- ناصر اشتقتكَ، كنتُ قلقةً عليك، كيف كانت أولى رحلاتك، هل أحببتَ الطائرة؟ وكيف وجدتَ والدك؟ هل هو طيب؟ هل تحدثتما؟ هل ستقيم معه؟
- أسئلةٌ كثيرة، حتى أجيبها جميعًا يلزمني وقت، سأحادثك عبر الإيميل، وسأرسل لكِ رقمي الجديد، المهم أنتِ، جاهزة للعودة للمدرسة؟

- حتمًا أنا جاهزة، لا تنسَ أرسلتُ لكَ بعض الأسئلة حول رواية ماركيز، «الحب في زمن الكوليرا»، أرسل لي مقترحاتك للكتاب القادم، لا تعلم كم كنتُ سعيدة حينما أحضر لي خالد صندوقًا مليئًا بالكتب الخاصة بك، وأوراقكَ الثانوية، لقد أصبحت أشياؤكَ عندي لا تقلق!

شعرتُ بالحرارة تعصف بي فجأة، أشيائي، أيُّ أشياء؟ خالد هذا عليَّ أن أقتله حينما أراه!! هو حتى لم يستشرني! رحتُ أتذكَّر كم مرَّة خططتُ اسمها فوق معادلات الرياضيات، كم مرَّة رسمتُ شعرها وعينيها فوق الورق، كم مرَّة وصغتُ قلبًا لحرفي اسمينا! لن تحتاج الكثير من الوقت لتكتشف سرِّي:

- ناصر ألوو.. هل ما زلتَ هنا؟
- نعم أنا هنا عليا أسمعكِ، اهتمي بنفسك وبالخالة إيمان وأرسلي سلامي للجميع.

أنهيتُ المكالمة على عجل، كنتُ خجلًا من كل حماقاتي، حبُّها يجعلني أحمقَ، وأكون سعيدًا بهذا!!

أعدتُ المحمول لهذا الغريب، والدي الغريب عنَّا!

وجدتهُ جالسًا يقرأ، قررتُ الجلوس معه، أزاح الكتاب جانبًا، وبدأ بالسؤال:

- هل قررتَ ماذا ستدرس في الجامعة؟

- أظنني سأعتمد القانون.

يضحك ويعيد رأسه للخلف، يسألني: لماذا القانون؟

- كي أستعيد حقوق الكثيرين!
- ومن قال لكَ إن القانون قد يجعلكَ تملكُ السلطة لاسترجاع حقوقكَ؟
- قد لا يعطيني السلطة، على الأقل يمنحني معرفة حقوقي وحقوق غيري، واجباتي وواجبات غيري.
- هل تعلم أنني رجل قانون سابقًا، وصحفي حاليًّا.
- قالت لي الخالة إيمان إنك كنتَ رجل قانون لكن عملكَ كان دومًا لتغيير القانون، وكنتَ عاشقًا للسياسة!
- وأنت؟
- السياسة رفاهية تمتلكها أنت، أنت الذي لم تكن لتحارب لشيء! وحينما وجدتَ خللًا سياسيًّا قررت الانغماس في إصلاحه، لكنني ما زلتُ أحارب لأتعرف ذاتي، ما زلتُ أصلحُ كسوري! لا رفاهية لدينا نحنُ الذين نشأنا في دور الرعاية.

يصمت، يغيب في نظره لزاوية بعيدة، ثم يستطرد بعد قليل:

- كنتُ أسألك لأنك إذا ما قررت العودة للعمل في الأردن فعليك دراسة القانون الأردني فهو مختلف عن قانون بولندا، إلا إذا ما قررت الاغتراب والبقاء هنا.

- لا، حتمًا أريد العودة لعمَّان حالما أنهي دراستي، ولا أعلم، ما زلتُ غير متأكدٍ من قراري حتى، قد أعودُ بعد أيام دون أن تروقَ لي الحياة هنا!
- من يدري، بكل الأحوال مهما كان قرارك فأنا معك!

تفاجئني كلماته، ويلمس قلبي شيء من صدقها!

- هل يمكن أن أسألكَ سؤالًا؟
- أعرفه! أعرفه! تريد أن تسألني لماذا فعلت هذا بي؟
- لو وجدتكَ متزوجًا تحيا حياة سعيدة لكان على الأقل عذرًا كافيًا، لكنكَ تحيا في متحف لصور أمي، وتلاحق حياتي أنا بكل تفاصيلها، بالصورة والخبر، فلماذا؟ وكان من السهل لو كنتَ جزءًا منها!

يصمت طويلًا، ثم يجيب:

- هذه الحياة التي كنتُ أريدها، وها أنا أحياها، حتى لو لم تكونا معي، أنا في كل شيء صنعته كنتما معي، داليا وناصر الوحيدان اللذان يشاركاني كل حياتي!

يصمت.. أنتظر المزيد لكن قلق عينيه حال دون مزيد!

لا أفهمه، كيف يمكن أن أفهم رجلًا يجمع كل تناقضات العالم في سترةٍ واحدةٍ!

رسالة جديدة!

عزيزتي عليا...

كيف يمكن أن أصفَ لكِ هذا الرجل الذي أصبح والدي...

يصلي ويشرب الكحول، يغني وعيناه دامعتان، يكره السياسة ولا يتحدث إلا عنها، يكره التخلُّف الذي تعيشه عروبتنا لكنه يعشق الوطن، يلاحق تفاصيلي ويتركني أحيا في ميتم، يحبني لكنه يحب اختياراته أكثر، يراعي النمط الصحي في غذائه لكنه يفرط في التدخين.

ليس سهلًا أن أصفه، أن أغفر له، لكنه يهتمُّ بي كثيرًا، يهتم بي لدرجة أنني شعرتُ بأنه يغطي فراغ أصدقائي في الميتم، وعدم وجود أصدقاء لي هنا لصعوبة التحدُّث باللغة البولندية، ولقلَّة الشباب الذين يجيدون الإنجليزية، رغم أن لغتي الإنجليزية ليست الأفضل إلا أنني اكتشفتُ أنني أتحدثها أفضل من كثيرين هنا! أتراه الانتداب الذي تَرك فينا أثرًا انجليزيًّا وتبعيَّة لا تُمحى!

لا عليكِ من كلِّ هذه الكلمات التي لا أعلم إن كنتم قد تطرَّقتم لها في درس التاريخ، لكن وعلى صعيد آخر، لا أحد يستطيع أن يغطي اشتياقي لكِ يا صغيرتي، لا تنسي أنا هنا، أقرب مما تتصورين، لا تحتاجين إلا لهاتف أو حاسب آلي حتى تجديني أمامكِ.. قررتُ دراسة الاقتصاد، وها أنا أنخرط في دراستي أكثر، علَّها تصنع مستقبلًا أجمل بعيدًا عن كوارث الماضي!

وكما يقول نزار.. البقيَّة تأتي

ناصر باسل الفوزي...

تخيَّلي هذه أول مرَّه أشعرني إنسانا طبيعيا صاحب اسم حقيقي!! هل يمكن أن أغفر له يا عليا؟؟؟ أخبريني؟؟

بعد يومين وجدتُ الرسالة في بريدي..

عزيزي ناصر...

حياتكَ تبدو جميلة الآن، كالقصص الأسطورية، الدار فارغة كثيرًا دونك، الدراسة جيدة، قرأتُ الكثير من الكتب الخاصة بك، لغتي أصبحت أجمل بفضلها، أحبُّ الكتابة الآن برفقة القراءة، تساعدني على عدم التفكير بمن أنا، هبة والخالة إيمان وعصبية الخالة سناء جميعنا كما تركتنا، حنان كل من يزور الدار من معلمين ومتطوعين كل على ما هو عليه، خالد يزورنا وقد تغيَّر كثيرًا، أصبح رجل دين، وهذا العام سيتخرَّج من الدار نادر وشمس!

الخالة إيمان قلقة على شمس كثيرًا، لكن شمس مصرَّة أنها قادرة على الاهتمام بذاتها، بعد شهر سيتم نقل كل الذكور في الدار الملاصقة لمبنى آخر في الطرف الآخر من الحي، وستبقى هذه الدار للإناث فقط، كان محزنًا هذا الخبر، تخيَّل أخوَّتنا يا ناصر هي عائلتنا الوحيدة، لا أحب أن نتفرَّق، مع الجميع كنتُ أشعر بأنني لستُ وحيدة، لا تتأخر برسائلك هذه، فهي تجعلك أقرب!

أعجبني اسمك الكامل الحقيقي.. هل يعني هذا أن اسمي كذبة؟

ابقَ بخير

عليا كذبة..

حينما قرأتُ الرد، شعرتُ بأن العالم يدور تحت قدمي، بدأتُ ألكمُ يديَّ ببعضهما وشعور متأخرٌ بفداحة ما صنعتُ، هل أصبحتُ شخصًا مختلفًا بوجود أب حقيقي؟ ما عدتُ أشعر بإخوتي الذين ما زالوا كل حياتي، وعليا.. أجرحتها؟

ما أحمقني إذ كتبتُ لها ذلك! ليتها أمامي علَّها تغفر لي!!

هاتفتها ذاك اليوم، اعتذرتُ منها لما صدرَ عنِّي، لكنها أنهت المكالمة على عجل، كل ملائكة هذا العالم لن تسامحني إن لم تسامحني عليا، فكرتُ بأن رسالة جديدة ستكون أجمل ما يغفر خطئي غير المقصود!

غاليتي عليا...

في تاريخنا الأردني الكبير، تاريخ البداوة العربية الجميلة، كانت تُغزَلُ الكثير من القصص عن نساءٍ كنَّ فارسات بجانب الرجال، الأردنيات خُلِقنَ من رحم الصحراء والجبال، كحل عيونهن منارة للتائهين في رمال الشرق، وبريق الجبين بوصلة لكل من انحنى وسلم، حديثهن مقتضب، وجملهن قصيرة ولا أحد يعلم بعد سبب قصرها! أهو خجلهن الشديد أم تراه خوفهن من خسارة وقارهنَّ الثمين!

في تاريخنا يخجل العاديون من القبيلة أن يُذكر اسم أخته أو أمه أو حتى حبيبته أمام الجميع، فيغارُ من أن تذكره شفاه الغريب، أما الفرسان الذين كانوا يفتخرون بنسائهم قبل رجالهم وغالبًا ما يكونون الأكثر حكمة في القبيلة، فكانوا يسمُّون أنفسهم بأسماء أمهاتهم أو أخواتهم، كأن يقولوا

«أخو خضرة»، أو «أخو صبحة»، وبناءً عليه كان عليَّ أن أعترف أنني اعشق هذه العادات تحديدًا، فهذا يعني أن يكون اسمي أخو عليا، هل تعلمين أن أحد هؤلاء افرسان كان يكنى هكذا: «أخو عليا»، وكان يفاخر الجميع بهذا اللقب حتى صار أنشودة في بوادينا. إنه الفارس الشهير عودة أبو تايه، الذي بلغت شهرته العالمية، لقد كان يجسد زوربا لكن بنكهة عربية. تستطيعين البحث عن كتب تتحدث عنه. لن أخفيك أنني شعرت بالغيرة منه وأنني أحب أن أُكنّى بلقب «أخو عليا». أنتِ فخري في هذا العالم، وهل هناك أجمل من لقب يحمل اسمكِ غاليتي!

المخلص دومًا: أخو عليا

مرَّت الأيام وحياتي في بولندا بدأت تصبح أسهل، وبدأتُ أتعرَّف وارسو أكثر من خلال والدي، كنَّا في نهاية كل أسبوع نذهب بجولات في المدينة، البلدة القديمة كانت شيئًا لم أتخيَّله من قبل، القصور القديمة والقلاع والنساء الساحرات

قلتُ لوالدي:

- هذه المدينة هي مدينة القصور حتمًا، لا أعلم إن كان هناك مدن في هذا العالم تملك قصورًا كهذه التي تمتدُّ على حدود النهر.

يردُّ عليَّ صوته المتعب:

- تتوه الكلمات بين الطبيعة الساحرة، الشوارع المتعبة، وارسو المكتظة، الشتاء البارد، الصيف الجميل، الربيع الخجول،

والخريف الجريء! كنتُ أقارن بينها وبين عمَّان كثيرًا، يصعبُ أن أفهم لماذا دمَّرت الحروب معظم القصور والحضارات التي بُنيتْ في أوطاننا، ولماذا لم يتم ترميمها حتى، وهنا أجدُ المناجم والقلاع والحصون، رغم كل الحروب التي عاشتها هذه المدينة! يُحب الناس هنا زيارة المتاحف، ويهتمون بالسياحة الثقافية كثيرًا، تمنيتُ لو أستطيع نقل كل ما أراه للأردن تمنيتُ لو استطعتُ...

ثم صمت.

- ماذا؟ (سألت مستفسرا)..

- لا شيء يا بني، اتفقنا أن لا سياسة في حياتنا وانتهى! يكفي ما أصابني للآن!

أكتفي بصمته، فأنا أطبِّقُ نصائح الخالة إيمان، لأعالج جنون أبي! لا أُلحُّ عليه، أكتفي ببعض الجمل التي تساعدني على فهمه، أو فهم نفسي!

بدأتُ تعلُّم اللغة البولندية الصعبة، وبدأت اللغة البولندية تنمو فوق براعم تذوُّقي، تتسلَّق أذني الموسيقية، وتفترش أماكنها في جوارير عقلي، كانت الجامعة طريقي للسعادة، وكلَّما انخرطتُ أكثر في الدراسة، شعرتُ بأنني أنسى الميتم، أنسى همومي، أنسى سنين الحرمان، والدي الذي بدا أقرب قليلًا يتولى أمر نفقاتي، نفقات جامعتي، طعامي، أصرَّ أن يدخلني لمدرسةٍ لتعلُّم قيادة السيَّارة، وكأنه يحاول أن يثبت لي أن الأبوَّة التي حرمني كانت قدرًا لا اختيارًا، وأن نصيحة الخالة إيمان بأن أذهب للعيش معه ستعفيني من تحمُّل مسؤوليات كبيرة ستُثقِلُ كاهل كلٍ من خالد ونادر

وهبة وشمس والجيل القادم منهم حينما يواجهون هذا العالم، لكنها لن تثقلني أنا! المحظوظ بوجود أب لي في النهاية!! حتى لو جاء متأخرًا!

هل أقنعني هذا الحديث؟ لا أظن، جلستُ فوق الأريكة أفتِّشُ في صور هاتفي وأبحث عن ملاكي الصغير، اشتقتُ أن أراها، اشتقتُ أن أحادثها، قام والدي بدوره وأخرج عودًا شرقيًّا من خزانة المكتب، لم أصدِّق، حينما حمل العود وتوجَّه نحوي، كان عقلي يفكِّر بسرعه وقلبي ينبض بسرعة أكبر، أنا المحكوم في هذا العالم بكثرة الأشياء التي تحاكمني، وكأننا حينما نُخلَق يُجبَلُ طينُ أجسادنا بقيراطٍ من حزن وقيراطٍ من سعادة، لكن يبدو أن ملاك أحزاني أخطأ وسكبَ لي مرَّتين، تصدمني نبضاتي ومشاعري، جاء وجلس قبالتي، كان مرتبكًا حاضنًا للعود وكأنه يحضن حبيبته، بدأ يعزف.. كان عزفه جميلًا، بدأ يغني..

«فوق إلنا خِل فوق.. يابا فوق إلنا خِل..» وأنا أستمع لبكاء روحه، كان صوته غليظًا وحزينًا، ورأسه يتمايل وكأنه يتحدثُ معها لا معي، جئتكَ أبحثُ عمن يهتمُّ بي، لكن يظهر يا والدي، أنني سأكون أبًا لكلينا!

حينما انتهى، بدأتُ أمسحُ دموعي التي راحت تهبطُ لأجل أفكار كثيرات، شوقي لعليا، شوقي لداليا، وعتبي على هذا المتهالك أمامي، سيِّدُ الانهزام!

- حاول أن توفِّر دموعكَ لأيام أصعب!
- شكرًا لكبير تفاؤلك.

- هل تعلم؟ كانت تعزف عليه أكثر مما تتزيَّن أمام المرآة، وكنتُ حينما أراها تطيل العزف وتجتهد لتتقن معزوفة ما، أعشقها أكثر وأحب إصرارها!

كانت طيبة جدًّا، أحببتها كأنني لم أعرف أحدًا في حياتي غيرها!

- وهي؟
- هي كانت لا تحكي الحب كما أفعل، كانت فقط مخلوقةً من عناق، ما رأتني يومًا إلا وتوسدت ذراعي، ما جلستُ يومًا على مقعد إلا وجاءت كالطفلة لتجلس بجانبي، ما قطعنا شارعًا يومًا إلا وتعلَّقت كالزهرة فوق شراييني، كارثتي كانت حينما اعتقلوني ورموني في الزنزانة أن أنام دون عناقها، دون ذلك الجسد الذي لا تشعر بأمان إلا به!
- تخيَّل أنني لا أفهمك، يصعب أن أفهم هذا النوع من التعلُّق، لستُ إنسانًا طبيعيًّا، مشوهٌ جسدي بمتلازمة الفقد!
- لهذا يجب أن تشكرني، أن تولدَ دون يدين أفضل مئة مرَّة من العيش مبتورًا، أن تولد دون عينيك أفضل عندي من أن تكمل حياتك فاقدًا للبصر بعدما اعتدته، اعتيادك لوجود الأشياء هو ما سيجعلكَ لا تستطيع العيش دونها، لهذا أعلم أنكَ لن تفتقدني كثيرًا حينما يأتي دوري القدري!

أصمتُ، لا أعلم أي نوع من الأفكار هذه التي عششت في رأس هذا المجنون حتى وصل لهذه القناعات، الآن يقنعني أنه ليس سيدًا للانهزام كما كنتُ أظن بل سيدًا للانتصار، انتصر بأن يجعلني لا أشعر!!

- كلُّ ما أعرفه أننا أحرارٌ في حياتنا وأن هذه الحرية يجب أن تنتهي حالما تصل لفقاعة شخص بجانبك، وأظنكَ بهذا الاختيار تدخَّلت بتغيير كل حياتي، أنتَ صاحب التقعُّر الكبير في فقاعتي، وإن كنتُ لا أكثر اللوم، لا أتحدثُ عن الأمر كثيرًا، لأنني متعبٌ حقًا، فقد سألتكَ هذا السؤال كل صباح ومساء على مدى حياتي، كنتُ أتخيَّلك أنت ودواليا وأسألكما لماذا هذا التخلِّي؟ أمَّا داليا فعذر الموت كفيل بجعلي أغفر لها كل ما لم تفعله، أما أنت.. فأفضّلُ الصمت على أن أكمل حديثي...
- تفضلُ لو كنتُ ميتًا! حتى تغفر لي؟ لا بأس أفهمكَ، حينما ترى الصورة كاملة ستفهم ما لم تستطع غفرانه!

أصمت، أفكرُ بأنه من المستحيل فهم هذا الرجل، ألوذُ بالفرار لغرفتي، لرسائلي لعليا، لذكريات الميتم، أي شيء بعيدًا عن هذا الأب الذي لطالما انتظرته!

كذبة العيون..
عيناهُ كل القصة

وضع قبَّعة التخرُّج على رأسي، هذا الذي ما كنتُ أعرفه من قبل، ستة أعوام مرَّت دون أن أفهم شيئًا من دستوره، قوانين هذا المحامي الذي تحوَّل فجأة لكاتب سياسي، فقط لمحاربة السياسيين -يكرههم حتى لو كانوا ملائكة- ستة أعوام مرَّت بعيدًا عن وطني، أبحثُ فيك عن وطن، فلا أنتَ أنجدتَ سُفني من الغرق، ولا أنا عدتُ أدراجي، ستة أعوام أمضيتها بين الورق، بين اللغات الثلاث اللواتي لم أتقن أيًا منهنَّ تمامًا! ستة أعوام دون رؤية عليا، تلك التي ما عدتُ أطيق صبرًا لأراها، قالت لي في آخر مكالمة، هل يُعقل أن تتخرَّج دون أن نكون معك، قلتُ لها سنحتفل حتمًا حينما نلتقي! ثم من قال إنكِ لستِ معي؟

أتراها فهمت؟ أتكفي هذه الكلمات كي تفهم أنني أحبها؟ أرسلت لي صورتها مؤخرًا، حبيبتي ما عادت طفلة! متى نضجت؟ كيف كَبُرت؟ وأيُّ يوم هذا؟ وكأنني غبتُ عنها عمرًا، ترتدي ثوبًا أحمر اللون، وشعرها الغجري الثائر الأسود، ضحكتها، تورُّد خدَّيها، الخالة إيمان على يمينها وهبة على يسارها، بعد أن رأيتُ صورتها قررتُ أن أعود، استغرب والدي قراري، هو الذي لأول مرَّة أشعر باهتمامه! أتراه اعتاد على وجودي؟ قد وقع ما كان يخشاه! رغم شعوري الدائم بأنه لا يحب الدار، لا يحب أن

أذكر دار الرعاية وأيًّا من إخوتي أمامه، إخوتي الذين أشعر بالانتماء لهم أكثر منه!

كان قلب الإنسان وما زال أكبر ضعفٍ خلقه الله عزَّ وجل داخله، جهاز بسيط لكنه يحمل شقاءً وفرحًا، ألمًا ونجوى، انكسارات ونجاحات، وكارثة هذا الجهاز أنهُ يتخيلُ القادم، يتنبأ به، ممتلئ بالمشاعر، والذكريات، والاعتياد! سمعتُ يومًا مقولة: «خير عادة أن لا يتعوَّد الإنسان على عادة» لجان جاك روسو، ولا أعلم ما الذي أوحى له بهذه الفكرة، لكنني أظن اعتيادنا على الأشخاص وفقدانهم، يجعلنا لا نرغب في أن نعتاد وجودهم مرَّة أخرى، يجعلنا نكره اعتيادنا على أحضانهم، قبلاتهم، حديثهم الشيِّق، وعناقهم قبل النوم، تعتاد أن تكون في الجنَّة برفقة أحدهم، وغيابه جهنَّم حتى تتخلص من اعتيادكَ له! في الطريق بدأ معي حديثًا..

- تمنيتُ لو كانت لك صديقة هنا، أمضيت كل هذه الأيام في الجامعة ألم تتعرف حسناء تسرقك لسريرها!
- لستُ هذا النوع من الرجال الذين تتوقعهم!
- لماذا؟ لا يمنع الرجل عن نساء وارسو الفاتنات إلا حب كبير؟!
- ها أنتَ لا أجدُ لكَ خليلة أو حتى حبيبة، أكثر من عقدين دون امرأة!

- أنا مختلف، حالة شاذة! أنا أرمل، جرَّبتُ سحر امرأةٍ ولم أجد في كل حياتي شيئًا يشبهه، جالستُ الكثيرات من شقراوات وارسو، نمتُ مع نساء لن أنكر في لحظات ضعف، تقرَّبت مني كثيرات، فهنَّ يعشقن سمارنا العربي، شعرنا الأسود وعيوننا الحادة، يميِّزنه على بُعد أميال، وبعد ثاني كأس، وعدة لقاءات أجدني أهرب، تخرجُ داليا من بين الزحام، تجلسُ جانبي، تتوسَّد ذراعي تمسكني من ياقة قميصي وتسحبني، خلف شعرها القصير وضحكتها وأغيبُ معها، وأعتذر من كل امرأة بأنني تزوجتُ قضيتي وأنهزم!
- تستطيع أن تقول إنني أشبهكَ أخيرًا!
- في ماذا؟!
- بأن لي حبيبة، وأنني أنتظرها!
- حقًّا؟ من هي هنا؟
- لقد قلتُ لك إنني أشبهكَ، وإن جينات قلبي قفزت لملاكٍ عربي، سحرٍ عربي، طينها ذات طيني! كل الشقراوات هنا لا يملكن ضحكة عينيها!
- أين تعرفتها؟ ما اسمها؟
- اسمها عليا.

ما أن لفظتُ اسمها، حتى تمايلت السيارة عن مسارها، وكأن أمرًا أفزعه كثيرًا، وعاد ليسيطر على الطريق ويتدارك بأن يشتم حفرة في الطريق، لم أرها حتى!

أوصلني للمطار وقد بقي الارتباك سيّد الموقف، وتوجَّهتُ لبوابة المطار، وقف بعدما ترجَّل من سيارته، كان ينظر لي يراقبني وأنا أتصرَّف ببرود كل أولئك الذين لا يعانقون، سرتُ خطوتين، ثلاث ونظرتُ خلفي، كان يقف مهزومًا، يتوارى خلف نظاراته، كان الجو غائمًا مساءً، غيوم الدموع التي تأبى أن تسقط من عينيه، غيوم المشاعر المتخبطة التي تعصف داخلي، لا ترجمة لهذا التخبُّط، شعور بأنني أريده أن يأتي ليعانقني وأعانقه، كأي شاب ووالده، فما الذي يشدني وما الذي يمنعه؟

وقبل أن ألتفت ثانيةً كان يجب أن أتذكر كلَّ لحظة مرَّت عليَّ بجانب النافذة أنتظره، كان جسدي يرفض أن يعود لعناقه، ومشاعري تأمرني أن أمضي، وهذا القلب المكلوم بشقاء مبكِّر يقول لي إنهُ والدكَ الذي حلمتَ به طويلًا، أعودُ وألتفتُ إليه، وتسري بجسدي صعقة، ريبة، شك، رأيتُ ما لم أصدِّق!

عيناه دامعتان في هذا الظلام، ذاكرتي تصرُّ أنها رأتهما من قبل، وخوف قلبي يمنعني من التذكُّر، لكن من قال إنني قد أنساهما، كنتُ أشعر بخوف وريبة مع تلك النظرة، لكنني كنتُ أظنها الأبوة، أو أنني قابلته في جينات عقلي من قبل، خفتُ تمامًا كخوفي تلك الليلة، خفتُ منه، خفتُ من أن

يكون ما أفكِّر به حقيقي، تجمَّدتُ في مكاني وأنا أنظر في تلك العينين، هل يُعقل أن يكون هو؟

التفتُّ لبوابة دخول المسافرين، وسرتُ بخطوات لا تقبل التردُّد، كنتُ أهرب من ذاكرتي، من عينين كانتا دومًا مصدرًا للريبة والشك، أنا الذي لا أستطيع أن أصدَّق ما هيأهُ عقلي لي للحظات، أنا الذي لا يمكن أن أتصوَّر أن يكون والدي أنا قد كان معي في تلك اللحظة من الماضي، وصلتُ لمقعد الطائرة أخذت قرصًا منوِّمًا وأقلعت في هروبي من أفكاري المشوَّشة!

وصلت سيارة الأجرة إلى «دار الرعاية»، لم أخبر أحدًا بنيتي للقدوم، وطلبتُ من والدي أن لا يخبر الخالة إيمان حتى لا يفسد المفاجأة، بيتٌ حجره الأبيض المائل للاصفرار يحيطه من كل جانب، يرتفع لثلاثة طوابق، يملك الكثير من النوافذ الزجاجية العاكسة، تحيطه التلال، يكادُ يكون معزولًا عن كل القرية، وبيتٌ وحيد للجار الطيب يشاركنا الشارع الأمامي، وضعتُ يدي على الباب، وكنتُ أهذي: ليتك تتحدَّث أيها الباب، وأنتَ يا سياج الحقل، يا شجرة الياسمين يا زيتونتي العجوز، ليتكم تتحدثون جميعًا، ليتكم تشهدون على قُبح كلِّ من تخلَّى عن جزء من حياته هنا!

سرتُ لأنظر لنافذتها، الوقت متأخرٌ جدًّا، والستائر مغلقة، لا أظنُّ أحدًا قد يفتح لي البوابة، جلستُ على المقعد الخشبي أنتظر الصباح حتى

إذا ما أشرقت الشمس، كنتُ في غفوة طويلة، استيقظتُ على يدها تهزُّ كتفي، كانت الخالة إيمان تبكي أمامي، ضممتها. ضمتني وبكيتُ في حضنها.

- ناصر هذا أنت إنه أنت حقًّا!
- نعم هو أنا يا خالة، اشتقتكم جميعًا، كيف أنتِ؟

تنظر في عيني غير مصدِّقة، وتفكر سريعًا:

- ستجنُّ عليا لو رأتك، دعني أوقظها.

ضحكتُ من كل قلبي، غابت الخالة إيمان لتخبر الجميع بوصولي، قائلةً:

- هذا السكن أصبح للإناث فقط، تم نقل الذكور لمبنى آخر، لا تستطيع الدخول حتى أخبر الفتيات.

تجمَّدتُ مكاني خفتُ من كلمتها مبنى للإناث فقط!

دقائق ووجدتُ عليا تخرج من البوابة تركض نحوي، هرعتُ إليها، هل يكفي عناق أيدينا لا أظن؟! وجدتني أمسكُ بيديها وتمسك بيدي وتصرخ سعيدة:

- لا أصدق، ناصر أخي ناصر هنا، أخي ناصر عاد!
- اشتقتكِ يا ملاكي، قد تغيَّرتِ كثيرًا، ما كل هذا الجمال؟

لم تتمالك ذاتها وجدتها ترمي برأسها على صدري، ويداها تلتفان حولي، تمامًا كما كانت قبل ستة أعوام، طفلتي في حضني، ما عادت

تحتاج مني أن أنحني لها، ما عادت تحتاجُ أن أجلس على الأرض لأكون بارتفاع عينيها، هي تقف أمامي أنثى كاملة، وأنا الذي لا أعلم هل يمكن أن أضمها لي، هل يمكن أن أضع يدي حول خصرها، تضحك وتبكي وترفع خصلات شعرها الذي يتواطأ مع نسيم الصباح ضدِّي، تتحدث معي، وعقلي في مكان آخر، وكأن العالم تحوَّل لشاشة سينما تم كتم الصوت فيها، الأشجار الرياح الأزهار وعينا هذه الملاك، وحركات يديها، ضحكاتها، وشعرها الذي أصبح طويلًا بعيدًا عني، تتحرك وتقفز، هذه الطفلة التي ما عادت طفلة، العمر يراقص قصَّتنا، ستة أعوام فاجأتني باكتمال القمر، وأنا الشاهد على سقوط حضارات قلبي في حبٍّ حقيقي، ما أراهُ أمامي، ما أشعرُ به الآن ليس إلا حياتي التي أريدها أن تكون فقط، قرب عينيها!

عادت الخالة إيمان وهبه ونورا وزهرة، ووجوه جديدة قابلتها لأول مرَّة، الخالة سناء، الجار العزيز، كانوا يحتفلون بي، أول من يخرج من حضن ميتم، أول ناجح خرَّجته هذه الدار، يتفاءلون بي، وأشعر بقوتي معهم، سعيدٌ بهم أكثر من سعادتي حينما كنتُ مع والدي!! قرروا الاحتفال بي، واستأذنت الخالة إيمان ان أغادر للفندق لوضع ثيابي وتحضير أموري، أصرَّت عليا على الذهاب معي، كانت الخالة إيمان تنظر لي نظرات قلقة، حاولت أن تقنعها بأنه لا يجوز، لكنها أصرَّت على أن ترافقني، نظرتُ للخالة إيمان نظرة المستأذن:

- لا تقلقي هي معي.
- أعلم أنه لن يهتم بها أحد كأخيها ناصر، لن تتأخرا، حاولا أن تكونا هنا مع موعد الحفل.

قبَّلتُ جبينها وقبَّلت عليا يديها فرحين مبتهجين، انتظرتها حتى تجهَّزت، عادت لي بعد أن ارتدت ثوبًا ورديًّا، وأسرت شعرها ضفيرةٍ على جانب واحد، فحمدتُ الله على وجود الضفائر في هذا العالم، وحينما التقت عينانا، كانت قد زيَّنت عينيها بكحل أسود، وكانت شفتاها متورِّدتين بلون أحمر الشفاه، والعطر عطَّل كل الحواس، طفلتي تعلَّمت التزين! متى؟ وكيف؟ لا أعلم. وقفتُ مشدوهًا أنا الذي لم أجرِّب الخمر يومًا لكن أشعر أنني أفقد تركيزي وعقلي وكلي معها، فكيف إذا ما كان الكحل هنا، وأحمر الشفاه هنا، والعطر هنا، أنا الصنم الشاهد على حجم الدمار الذي يحدث داخلي، ماذا أقول؟

- أنا جاهزة، ما بك؟

بعد صمت طويل، كانت تنظر فيه عميقًا داخل عيني، قلتُ لها:

- تغيَّرتِ كثيرًا، أحتاج وقتًا لأستوعب ما فاتني.

هههه أخذت تضحك ووضعت يدها فوق يدي تسحبني:

- سيضيع الوقت الذي منحتنا ايَّاه الخالة إيمان، هيَّا لنستغل الثواني.

أخذتُ تاكسي أوصلنا إلى الفندق في المنطقة الدائرية الثالثة أو «الدوَّار الثالث» بلغة العمَّانيين، مدينتي تفترشُ سحرها فوق سبعة جبال

وثمانية مناطق دائرية، وقِبلةٌ واحدة لقلبي، تجلس في مقعد خلفي، ألتفتُ لأتأكد أنها خلفي، ما أجمل أن تبقى قربي! حجزتُ غرفة، وساعدتني عليا بحمل الحقائب، وصلنا للغرفة التي تطل على منظر ساحرٍ لعمّان، حينما رأته عليا ألقت الحقائب وركضت لتقف أمام الشرفة، كانت تقول كلمات كثيرة عن جمال المنظر وسحر المدينة، لكنني كنتُ أقف أنظر لجمال الاثنتين، عمَّان وعمَّانيتي أنا، كلاهما قصيدتان، كلاهما انتماءان، كلاهما لقلبي الروح والعمر، أنا الذي لا أحتاج شيئًا آخر في هذا الكون غير حبيبتي ووطني، ما عدتُ يتيمًا يا ربي!

اقتربتُ منها ومن المنظر الساحر لمدينتنا، قلتُ لها:

- هل ترين كل هذا الجمال والسحر؟ لا يكتملان دون وجودكِ! هل قلتُ لكِ من قبل إنكِ جميلة جدًّا.

صمتت، احمرَّت وجنتاها، وشعرتُ لحظتها أنها حتمًا تعرف أنني أحبها، وأنها لن تعود لي أختًا بل حبيبةً، أحميها وأعشقها كل يوم أكثر وأكثر:

- سأتركك لتبدِّل ثيابك، أنتظرك في الأسفل.

و قبل أن أستوعب هذا الهروب السريع، كنتُ أقف وحدي خلف الشرفة وكانت قد غادرت الغرفة، لكنها نسيت أن تأخذ عطرها، نسيت أن تعيد لي قلبي، وعدتُ فجأة يتيمًا أمام وطني! يتيمًا دونها!

أنهيتُ تحضير نفسي، وقفتُ أمام المرآة، أطالع في عيني، أجمل الثياب ارتديت، وأحلى العطور وضعت، لكن هذا الحزن الذي يسكن عيني لا يزول، أحاول الابتسام، الضحك، لكن حزن عيني ما زال قابعًا هناك، دعاء وحيد في قلبي، أن لا تلاحظ حبيبتي كل هذا الحزن فتهرب مني!

بدأنا جولتنا في المدينة، مشينا، ركضنا، جرَّبنا كل ما صادفنا في طريقنا من المثلجات، للوجبات الجاهزة، للعصائر والقهوة، صعدنا الأدراج في وسط المدينة، كانت تعدُّ الأدراج وهي تصعدها وأنا ألاحقها وأحاول أن أعد معها لكن من قال إنني أستطيع التركيز في شيء واحد وهي معي! الساحة الهاشميَّة وصولًا للمدرَّج الروماني، ودرجاته الكبيرة، صعدناها جميعًا ووصلنا لآخر الأدراج. كانت بحاجة لمساعدتي لتصعد للقمَّة، مددتُ يدي وتعلَّقت بها، وشعرتُ بأن كل قياصرة وملوك الروم الذين بنوا هذه الحلبة للقتال والنزال لم يروا كل الرماح التي تدخل قلبي معكِ، لم يملكوا شيئًا أمام عينيكِ! متعبان في القمة جلسنا، ننظر للأسفل، ننظر لسحر المكان، سماء كبيرة، وشمس لم تحتد بعد، قلتُ في عقلي هذا أفضل مكان لأتحرَّى منها أخبار قلبها، فوجدتها تقطع تفكيري بالسؤال:

- كيف كانت الجامعة، صفها لي؟
- جميلة جدًّا، تعرَّفتُ فيها على الكثير من الأصدقاء، وتعلَّمتُ الكثير من اللغات: البولندية، الإسبانية، الإيطالية..
- جميل، ولماذا لم تدرس القانون؟ لماذا درست الاقتصاد؟

- خفتُ أن أواجه مستقبلًا مظلمًا كوالدي، والدي رجل قانون لكنه لا يملك عدالة!

كنتُ أضحك لأخفي قهري!

- ماذا عنكِ؟ كيف تمضين أيامكِ؟
- في المدرسة، من ثم الكتب، واشتركنا في نشاط الرسم في المكتبة.
- آه ترسمين، لم تقولي لي من قبل
- هي مجرَّد خربشات أنت تبالغ.

تضحك وهي ترفع خصلات شعرها الذي يداعبه نسيم تموز وشمس الصيف!

- تعرفين أنني أهتم بكل ما يتعلق بكِ.
- أعرف ومتأكدة من ذلك، لذلك أريد أن أخبرك بشيء. هل تعلم أنني سأغادر الدار بعد أشهر، وما زلتُ قلقة على هذا المستقبل الغائم الذي ينتظرني، هبة أخبرتني بالكثير من قصص فتيات دور الرعاية وكيف أننا لا نملك أوراقًا، وأن المحظوظة من ستجد شخصًا طبيعيًّا يقبل بها!

نحن الموبوؤون والمرضى بماضٍ ناقص، بقصَّة لا بداية لها، بداياتها كانت مبتورة ملعونة، ماذا أقول لك يا ناصر؟ هل يستطيع الإنسان تغيير قدره؟

- بالتأكيد.

- كيف؟

صمت طويل، أردتُ أن أقول لها تعالي معي لبولندا، أنا أعشقكِ، أنتِ حبيبتي وستكونين معي، أنا عائلتكِ، أنا الموكل بكِ، أنتِ يا ملاكي الجميلة الصغيرة! أنتِ ستكونين دميتي التي سأهتم بها طوال العمر، ولكن أشياء تكبِّلني، قيود تمنعني، ألا لعنة الكون على مبادئ ستجعلنا نتصرَّف عكس ما نريد، ستُمزِّق لحظاتنا البسيطة لتصبح معقَّدةً جدًّا، كنتُ أريدها أكبر قليلًا، أنضج أكثر حتى تختارني. لن أفرضني عليها كشخص سيحلُّ كل المشاكل لا أكثر، أريدها أن تختارني لذاتي، امرأة كاملة تختارني أنا ناصر، لذاتي!

- ناصر الأمر ليس بالسهولة التي تتخيلها، أنتَ تملكُ أبًا أما نحن فلا شيء.
- لا تقولي هذا، ووجود والدي لا يعني أنني أصبحتُ فجأة إنسانًا طبيعيًّا!!
- اذن قل لي، كيف أغيِّرُ الماضي؟ كيف أبدِّلُ كل هذا النقص؟ كيف أغطي هذا التشوُّه الدائم؟! لا أريدُ أن أُجبَر على أشياء لا أريدها بسبب هذا الماضي.
- لا تحتاجين أن تواريه؛ هذا جزء منَّا، هذا الماضي الناقص في نظركِ قد يكون أكثرَ ما يميِّزكِ، ولن يجبركِ أحدٌ على شيء وأنا هنا، لا

تنسي، اقتربت اختبارات الثانوية، ولا أريدكِ أن تفكري بأي شيء، فقط فكري بالعلامات التي ستصنع مستقبلًا مشرقًا لك!

- في نظرك!
- ألا يكفي؟
- بلى. لكن أنا جزء من مجتمع، لستُ فقط مع ناصر في هذه الحياة.

صمتٌ آخر، ليتكِ تكونين معي فقط! كلمات لا يمكن أن ترى النور، كلمات تدور في عقلي وأنا أتأملها وهي تنظر للقاع، جالسان على أعلى درجةٍ قريبةٍ للسماء، للوجود! أنا لستُ مرئيًا بعد!

- كنتُ أفكر برسائلكِ الكثيرة التي استلمتها منكِ، بدأتِ تتأثرين بغادة السمَّان، هل أعجبتكِ؟
- أتأثرُ بها كثيرًا، كما أتأثرُ بأحلام مستغانمي ونزار ومحمود درويش وماركيز، وكويلو، وإيليف شافاق، وغيوم ميسو!

أضحك، وأنا أرى تأثير ذكر الكتب عليها، هي التي أحفظُ نقاط ضعفها وقوَّتها، هي التي أملكُ منها أكثر مما تظن، أعرفُ كيف أجعلها تقفز من قمة اليأس إلى قمة السعادة، أنا الذي يعرف كيف يجعلها تضحك في ثوانٍ!

- لاحظتُ أنكِ تحبين الكتابة، وتتفوَّقين عليَّ حتى، هل ما زلتِ تريدين أن تصبحي كاتبة.
- نعم، أريد أن أكون كاتبة، وأريد أن أختص في علم النفس.

- علم النفس؟!
- نعم، أريدُ تعلُّم اللغة التي لا تقولها الكلمات، وأحبُّ أن أترجم حركات الجسد، الإيماءات، لغات الآخرين التي لا تُقال!
- تفاجئينني حقًا، ما الذي جذبكِ لهذا؟
- حينما علَّمتني القراءة سابقًا كنتُ ممتنةً لكَ ناصر، فقد جعلتني أملكُ قوَّة داخلي، لا يطفئها شيء، وجدتُ بوصلتي للحياة، متعتي!

كنتُ أبتسم وهي تتحدَّث عني، كانت كلماتها عني أعظم من كلمات أساتذتي في جامعة وارسو لحظة تخرُّجي!

- أنتَ الذي عرَّفتني على هذه الكتب، وخلقتَ داخلي حب القراءة، والآن أنا أُحلِّق، أريد أن أصبح طبيبة نفسية، وأريد أن أكتب لغات البشر التي لم يحكها أحد من قبل!
- أخافُ أن تسبقيني؟

تضحك: ماذا تقول أنا أسبقك؟ هههه أنتَ دليلي وعرَّابي، لن أتخلَّى عنكَ يومًا! أنتَ أبي الذي لم أرهُ من قبل، أنتَ عائلتي!

- و أنتِ كل شيء جميل في عالمي، وسأصبح الأسعد إن حققتِ كل هذه الأحلام العظيمة، سأنتظركِ دومًا على الضفة الأخرى، وأعلم أنكِ ستترجمين كل الكلمات التي لا أقولها! ستكونين أعظم طبيبة نفسية!

عدنا للدار سعيديْن، لم أقل لها شيئًا مما كنتُ أقوله داخلي خلال ستة أعوام قضيتها بعيدًا عنها، لكنني شعرتُ بحبٍّ كبير لي، قلبها ممتلئ بي حتمًا، لا حاجة لي للتأكد من هذا بعد، وضعتُ خطَّة في عقلي، أعودُ بعد أعوامٍ تكون تخرَّجت من جامعتها ونرتبط! سأطلب منها الزواج يوم تخرُّجها من الجامعة حتمًا!

احتفلنا مع الخالة إيمان، جلستُ مع فتيات الدار وبدأتُ أحكي لهنَّ عن وارسو، عن العلم هناك، عن النساء اللواتي يقُدن الحافلات والقطارات وسيارات النقل، واللواتي يعملنَ في المناجم، في محلات القهوة والحلوى، كنتُ أحاول زرع الطموح بأكبر قدر منهنَّ، ولو كنتُ أملكُ تصاريحَ لمنحتهنَّ جميعًا أوراقًا للدراسة في أوروبا، لرؤية الحرية التي تمنحُ هذا البلد نوعًا من التطوُّر والحضارة!

- لكن ألا يخالف هذا الدين؟ سألت هبة.
- من الذي قال هذا؟
- الشيخ خالد حينما زارنا مؤخرًا كان يعظنا بعد صلاة الجمعة ويخبرنا أن المرأة خُلِقت لخدمة بيتها وزوجها، وأن مهمَّتها في الأرض هي الإنجاب والتربية، عملها في مكان مختلط مع الرجال هو إثمٌ كبير، وأن المرأة يجب أن تعبدَ بعد الله زوجها.

نظرتُ للخالة إيمان التي حركت يديها بطريقة أنها لا تملك سلطانًا على أقوال الشيخ! نظرتُ في عيني هبة، كنتُ بحاجة لأن أجعلهنَّ يفهمن شيئًا أكبر من أعمارهن، سألتها:

- ما الذي يميِّزُ الإنسان عن الحيوان يا هبة؟

بدأن بالضحك لسؤالي المفاجئ..

- العقل. أجابت هبه
- هل تحتاجُ البقرة والدجاجة والفرس عقلًا لتفكِّر وتنجب؟
- لا أظن، هو غريزة!
- إذن ما رأيكِ بما قاله الشيخ خالد؟
- هل تعني أننا نملكُ عقولًا، هذا يعني عملًا آخر بجانب غريزة البقاء.
- هل ترين أنكِ تملكين عقلًا أذكى وأعمق من عقل الشيخ خالد؟

ضحكن مرَّةً أخرى والخالة إيمان بدأت بالضحك، حتى الخالة سناء كانت تضحك، رغم أننا لم نكن نتوقع أنها تعرف الضحك، كانت عليا سعيدة بي، تضحك لي وكأنني صنعتُ العالم الأجمل في نظرهن!

- كلُّ إنسانٍ فينا يقرأ القرآن ويفهمه بطريقته، هو كتابٌ لكل زمان ومكان، وما فهمتُه من القرآن الذي أقرؤه أن إعمار الكون ومنح الحياة ونشر الأمل بالخير، أعظم عند الله من التخويف والترهيب وخلق العوائق، مجتمعاتنا العربية لا تمارس دينها على كثرة

ممارساتها للعصبية الجاهلية، فلا تسمحن لأي جاهلٍ بالتحكُّم بطريق الخير والبناء الذي خلقه الله لكنَّ..

إعمارُ الأرض لا يكون إلا بقوة رجل وعقل امرأة، ابحثي عن النساء اللواتي وصلن للحكم خلال التاريخ وستفهمين ما أقصد يا هبة.

انتهينا في الحديقة وأنا أودِّعهنَّ لألتقيهنَّ في اليوم التالي، خططتُ لاصطحابهنَّ جميعًا في رحلة برفقة الخالة إيمان والخالة سناء والجار الطيب.

وقفتُ لأتحدَّث للخالة إيمان على انفراد، بادرتْ:

- أعرف ماذا ستقول، أنتَ معترضٌ أن يجتمع خالد لزرع أفكاره بيننا.
- ليس الأمر أنني معترضٌ لكنه خطأ، هذا حديث لا علاقة له بالإسلام، تعرفين أن خالد امتهن هذه المهنة لأنه وجد من يؤويه فقط، وهو يحفظ لا يتدبَّر.
- هذا مجتمع يا ناصر، أنا أمنحُ الفتيات كل شيء، لن أوجِّههنَّ لأي اتجاه، وكما عرضتَ أنتَ أفكارك، من حق خالد عرض أفكاره، لن أأسرهنَّ لحزب معيَّن بالنهاية، يهمني أن يريْنَ الاختلاف وأن يتمكَّنَّ من الاختيار. تمامًا كما اخترتَ أنت!

أفكِّرُ بأنها على حق! لكنني كنتُ أخشى عليهنَّ من أفكار خالد التي تنتهي بنا لمجتمعات غير منتجة، عاجزة، تتكاثر كالهشيم، دون أن تكون قادرة على أن تخدم هذه الكثرة!

- استغربُ أننا أصبحنا نغمضُ أعيننا عن تشريعات ما عادت تفسيراتها منطقيَّة باسم احترام رجال الدين. فلماذا لا يحترم هؤلاء حُرمة هذه المجتمعات للدراسة في الدين، لتفتيح العقول لا لطمسها؟ خالة إيمان، انظري لما صنعتِ خلال عمركِ بأكمله، لقد آويتنا واعتنيتِ بنا، نحن اليتامى الذين كنا نلتقي رجال الدين ليتأكدوا أننا مسلمون نصلي وانتهى!

نحنُ نصلي لأننا نحب الله، لكن نحب العلم، نبحث عن المساواة، ثم يأتي رجل كخالد حفَّظوه بضع كلمات ليقول لفتيات لم يرِيْن النور أنهنَّ سيكنَّ عاجزات إن لم يجدن رجلًا يؤويهنَّ!

تبتسم الخالة إيمان، تتوسَّد ساعدي وتميل برأسها على كتفي، شعرها أصبح رماديًّا، جسدها النحيل يُطعِمُ أكثر مما يأكل، تبتسم وتقول:

- أصبحتَ أوروبيًّا بأفكارك، كوالدك!

تتنهَّد.. تتابع:

- الحمدلله أنا ممتنَّة لله لأنه ينيرُ دربكَ، أنتَ فخرٌ لي، كل مرَّة ألاحظ فيها ذكاء تفكيرك، كنتُ أقول إنكَ ستكون شيئًا، كنتُ أقول إنني

لن أسمح للظروف المحيطة بك لتؤثِّر على ما تملك من ذكاء، وأحمدُ الله أنكَ الآن تنير طريق إخوتكَ في الدار، أحمدُ الله أنني أدَّيتُ الأمانة أمام الله وأمام باسل وأمام داليا رحمها الله.

- وبما أنكِ ذكرتِ الماضي، هل لي بسؤالكِ، كيف ماتت أمي؟
- ماتت بعدما وضعتكَ في المشفى، فقد خسرت الكثير من الدماء حتى وصلت للطبيبة، لم يكن موعد ولادتها! لماذا تسأل الآن؟
- كنتُ أظنُّ قدومي لهذا العالم سبَّب نهاية حياتها، لهذا كنتُ أتجنَّبُ ذكرها في البداية، خوفًا من ذنب لا يد لي فيه.

انحنت على كتفي:

- لقد ورثتَ من والدكَ الكتمان ولوم الذات، هل تعرف هذا؟
- لم أكن أظنُّ أنني ورثتُ منه شيئًا!
- حتى لو أنكرته ألف مرَّة، لا شيء ينكرُ حقيقة أن دماءهُ تسيرُ في جسدك، ما حدث، لم يكن ذنبًا لأحدٍ كان، سلسلة ظروف أدَّت لوفاة داليا رحمها الله، إلقاء القبض على والدك، ثم خشونة الضبَّاط الذين حاولوا منعها من اللحاق به، فقد سقطت بعدما دفعها أحدهم.

ودَّعتُ الخالة إيمان وأنا أتخيَّلُ مشهد سقوط أمي واعتقال أبي، لتقطع عليَّ ضحكات عليا كل المواجع، كانت ترقص فرحًا وتغنِّي، أراها خلف النافذة تقفزُ فوق السرير، وكأن الدار فجأة تفجَّرت فرحًا بخبر الرحلة في الغد! هل قالوا لكِ من قبل إن جمالكِ يا زهرة عمري سمفونيَّة، وإن كل امرأة حولكِ ليست إلا نوتة، نجمة، زهرة، كلمة، وأنكِ القصيدة! ما

أجمل أن تكوني قصيدتي التي لا تنتهي! وليتكِ تختارينني شاعرًا لكِ! أتختار القصائد كُتَّابها يا أنا؟ نعم إذا ما كانت قصائد إعجاز في الأرض، قصائد تخلِّد أصحابها، أنتِ يا قصيدتي التي ستمنحني الخلود، والسعادة، يا تعويذة عمري، صعدتُ لسيارة الأجرة، وسارت تقطع الشوارع، دون أن يقطع تفكيري شيء.

آهٍ يا عمَّان، ما أجمل ليالي الصيف حينما تنسج هدوءها فوق رقصات العشَّاق! وأنا العاشق الذي يريدُ قصيدته وتأبى، وينتظرها، يرتِّل القرآن علَّهُ يبارك لغته، ألم يكن القرآن إعجازَ الله في الأرض، وكتابا يحمل الإعجاز الذي لم يحملهُ كتابٌ من قبل! وأنا الآن أحاول قراءته علَّ اللغة تباركني وتمنحني تعويذةً للإيقاع بقصيدتي التي أحب! وغايتي من هذا العمر!

عدتُ دون أن أعود! أنا الذي أفقد جزءًا منِّي كل لقاء معها، تأسرني وتسلبني شيئًا فشيئًا، أنا الذي أحبُّ أن أكون شيئًا مسلوبًا معكِ!

اسلبيني قلبي
واسرقي عمري
قيِّدي الشرايين وشدِّي
وثاقي وقلبي ودربي
لأبقى على قيد حياةٍ
منكِ!

كذبةٌ أبعدتها عني..
وارسو من جديد

عدتُ لكن قلبي لم يعد، حاولت الانشغال بالأعمال التي تنتظرني، برسالة الماجستير التي كنتُ أخطط لها، للتقارير التي تنتظرني لأصوغها بالإنجليزية، كنتُ أشعرني في ضيق حينما أعود هنا، كلُّ شيء يحاصرني بغربة، اللغة غربة! وأن تتحدث جلَّ وقتك بلغةٍ غير التي ولدتَ عليها فأنت مغتربٌ داخل سجن ذاتكَ دون أن تشعر، حتى وإن كنتَ تحبُّ مكانكَ الجديد، وحتى لو كان انتماؤكَ لعالمكَ الجديد يكبر، فإن سجنكَ من الحنين لن يصغر، على العكس! سيكبر داخلكَ، ولن تشعر بحجم هذا السجن حتى تلتقي من يتحدَّث لغتكَ الأم، فتسكبُ ذاتكَ بين يديه دون توقُّف، أنا الذي كنتُ أعشق اللغة حينما أهاتفُ عليا، وأكتبُ الفصحى لها في رسائلي!

ما أجمل أن تكون عمَّانيتي رابطي للغتي العربية، ودليل رسائلي لكتابة الفصحى! تلك التي تتربَّعُ فوق ذاكرتي، دون أن تنجح أي لغة في هذا العالم بالرقص فوق قلبي غيرها!

عدتُ يومًا برفقة صديقتي إيفا من العمل، واستقبلنا والدي بفرح لم أتخيَّله كبيرا لهذا الحد، إيفا روسيَّة تغترب في بولندا وتساعدني كثيرًا في تعلُّم اللغة، والآن وبعد أن اكتشفتُ أنها تتقن العزف أيضًا أردتُها أن

تساعدني لأجد معلمًا لتعليمي العود! شيءٌ يربطني بأمي حتى لو كان لحنًا! أحزنُ لحظِّ إيفا، أول سيجارةٍ نفثتُها في حياتي كانت مع إيفا، أول رقصة تانغو سالسا معها، أول تزلُّجٍ كان معها، أول تخييمٍ في الغابة كان برفقتها، نحضِّرُ الطعام معًا، نضحكُ معًا، نناقش السياسة معًا، نرتادُ المقاهي معًا والسينما والشاطئ معًا، نعدُّ النجوم معًا، ونبوح بذنوبنا وبأسرارنا معًا.. لكنني لم أعرف يومًا طريقًا لجعلها شيئًا غير صديقتي! كنَّا نجلس في المطبخ، وقدَّمتُ لها الشاي حينما سألتني:

- هل أحببتَ يومًا؟
- هههه أنا لم أحب يومًا إلا هي!
- أحلمُ أن أقابل هذه الـ عليا!!
- لهذا الحد؟
- أريدُ أن أعرف أي شيء يجذبكَ لها؟
- القصَّة ليست كما تظنين، ليس لون عينين أو بشرة! ليس لون شعرها أو ضحكتها، القصَّة أعمق، القصَّة تاريخ مشترك، وطن يختاركَ لا تختاره، اسمٌ يُكتَب قبل أن تقرره، شيء قدري ككلمة أم وكلمة أب، هذه عليا في حياتي.

تحزن، وأشعرُ بالغيرة تتسلل لقلبها، لكنها اعتادت علي! اعتادت على شرقيتي حينما اشتهت أول قُبلة وابتعدتُ! لا خبرة عندي في القُبَل ولا أجدها كارثة كما يقول أصدقائي في الجامعة، وفي مدينة مليئة بالجميلات ما زلتُ دون حبيبة، هل يمكن أن أبني تاريخًا في الحب بعيدًا عنها؟

أنتظرها كي أتعلم معها كيف تكون القُبلة، وكيف ينضج الحب؟ تغارُ ايفا وتحزن، وأنا أشتاق لمن لا تعلم! ثم تبدأ ايفا تحدثني عن حبيبها المفقود بمهمَّةٍ عسكرية، دون أن يجدوه، لتسافر وتبحث عنه في آخر مكان وُجد فيه هنا في بولندا!

قدّمتُ لها كوبًا من الشاي حينما كنَّا جالسين يومًا وسألتها:

- هل هناك أي معلومات جديدة عن لويس؟
- لا جديد، هو مختفٍ منذ عامين للآن دون أن أصل لشيء!
- لا تقلقي، حتمًا ستجدين شيئًا عنه، أنا متأكد.

أمسكت بيدي لتشكرني، ووجدتُ والدي يترك مكتبه ويشاركنا الجلوس في المطبخ، حاول التعرُّف على إيفا أكثر، يسألها عن شهاداتها، والدي يتقن البولندية، كنتُ أحاول التعلُّم من حوارهما البولندي أمامي، هو سعيد بوجودها هنا أكثر من سعادتي، وحينما غادرتْ، بادَرَ بالسؤال:

- هل هي مجرَّد صديقة؟

ضحكتُ لسؤاله وقلتُ له بصوتٍ قوي واثق جدًّا:

- حبيبتي وحيدة على هذا الكوكب، اسمها وقيدُها وكل شيء عنها بين يدي الخالة إيمان، إذا ما أردت معرفتها اسأل الخالة إيمان عنها.
- لماذا هي من بين كل فتيات الدار؟
- قلتُ لك اسمها عليا، هذه التي لن يرتبط اسمي بغيرها! هكذا خُلِقت لي!

كانت ابتسامته تختفي تدريجيًّا، ونظرات غريبة تحوم في أفق عينيه، أنا الذي ما زلتُ أشعرُ بالريبة تطاردني، ويؤكِّدهُ هذا التحوُّل في شخصه ووجهه!

- لماذا من الدار؟ لا نسب لها!
- أنا نسبُها، اسمها عليا الناصري وسُميَّت على اسمي منذُ جاءت للدار.

يرتبك، ويحاول تغيير الموضوع يقول مستطردًا:

- سنرى قد تغيِّر رأيكَ لاحقًا!
- لم أفهم لماذا تحتاج لتغيير رأيي، وما الذي تحاول الوصول إليه؟
- كنتُ فقط أحاول توضيح صعوبة أن ترتبط بفتاةٍ دون قيد!
- وكيف عرفتَ أنها دون قيد؟
- أنتَ قلت للتو.

محاولًا اخفاء أمرٍ يكبرُ أمامي، أسأله متعمِّدًا

- هو رأيكَ بكل فتيات الدار، أم فقط عليا؟
- ماذا تقصد، حتمًا بكل الفتيات، وأنا والدكَ أنصحكَ بأمر، لأنني أهتم بك!

ضحكتُ لجملته الأخيرة! وفضَّلتُ الصمت! لكن الأفكار والشكوك بدأت تتأكدُ في مخيِّلتي!

- هل تعلم، أنا أنتظر فقط أن تنهي دراستها لنرتبط، فقد حسمتُ أمري وانتهى!

أنا الذي رسمتُ أحلامي فوق حياتكِ دون أن أعلم أنني علَّمتكِ القراءة، ورحتِ تقرئين بعيدًا عني، أنا الذي علمتكِ كيف تمسكين القلم، وظننتكِ ما زلتِ تسيرين فوق نقاطي التي قطَّعتها لتسيري فوقها، وإذا بكِ تسيرين فوقي، تتجاوزينني، تسبقينني بأشواط، وتكتبين مستقبلًا بعيدًا عني، أنا الذي زرعتُ داخلكِ قرآني وكنتُ أظنكِ ترتِّلينه، وإذا بكِ تهجرينه، حفَّظتكِ دستوري وظننتكِ تحبِّينه، وإذا بكِ تتمرَّدين عليه، آه يا حبيبتي التي أصبحت خطيرة، ما عادت كتبي التي كنتِ تطالبينني باقتنائها ترضيكِ، أنتِ التي بدأتِ تختارين أفكاركِ وأحزابكِ بعيدًا عني، أنتِ التي ما عدتِ بحاجة لهذا الناصر الذي كان خلال كل عمره يرسم مستقبله فوق أهواء طفلةٍ! ها هي كَبُرَت الطفلة! لكنها ما عادت تنتبه لوجودكَ حتى، تجاوزتْكَ حينما كنتَ ترسم سقف طموحكَ حدود عينيها، وهي التي تنظر لسماء فوقكَ، هي التي تقفز فوق غيوم العمر، ماهرةٌ بالقفز حبيبتي، تقفزُ عمرًا بعيدًا عنكَ يا أحمق!

لأول مرّة أفهمها بطريقة جديدة، هذه الأحمق هي الكلمة التي كنتُ أظنها غزلًا منكِ، ما أحمقني! ما أحمقني أنا الذي خسرتكِ! كيف تركتكِ تنسابين من بين يدي، وأنا الذي ظننتُ الحب لا يملكُ صفات المادة، لا ينساب، لا يتبخَّر، لا يضيع!

فلماذا كان حبُّكِ لي «لا مادي»! «لا حقيقي»! أم تراه وهمي! أتراني كنتُ ذاك المسخ الذي حُكم عليه أن يكون قطبًا أوحد، أتعرفين ما هو القطب الأوحد؟ أن أكون وحيدًا في بحر عشقكِ، أن أصارع ارتفاع موجُ

حبُّكِ وأتمرَّغ فيه وأن تبقى شطآنكِ جميلة وهادئة، أن يحترق جسدي بنيرانكِ الصديقة، وأن تستمتعي بظل ربيعكِ الدائم دون أن تشعري حتى باحتراقي، أن أحارب فيكِ، وأسقط جريحًا مدميًّا من شظايا حربٍ أنتِ لا تملكين فيها ناقةً ولا جمل، أن أضيع في متاهة شراييني وآلام الفراق والغيرة عليكِ، وأن يكون ضياعي خبرًا تمرُّ فوقه عيناكِ دون اكتراث، أن أحفرَ بأظافري اسمكِ وشمًا فوق جبيني وكل عمري، وأن يراهُ كل من حولكِ إلا أنتِ! أنا شهيدُ عينيكِ اللتين لا تكترثان بنظراتي، بقلبي، بسقوطي، باحتضاري، بانتهائي! أنا شهيدكِ سيدتي! شهيدُ هذا التشوُّه الذي خَلَقته داخلي، وأنا الذي رممتُ كل تشوُّهٍ فيكِ لتصبحي أنتِ!

كذبة الأخوة
ناصر.. لقيطٌ مرَّةً أخرى!

ماذا رأت فيكَ؟ ولماذا أنتَ؟ لماذا تسرقها مني؟ هل ضحكتَ لها أكثر مني؟

هل ضممتها لصدركَ بطريقة أجمل؟ وصافحتها بطريقةٍ أجمل؟ وكتبتَ لها شيئًا أجمل!؟ هل تعرفُ عنها شيئًا أكثر مني؟ أعمق مني؟ وأنا الذي كنتُ أعرفها كشرايين يدي، كنتُ أحفظها، كنتُ أفهمها من نظرة العين، كنتُ أجفف دمعها قبل أن يسقط، وأداريها بروحي، أسهر لها ليلي! آهٍ يا وجع هذا القلب الذي لم يقف يومًا ليصرخ برغباته، ألم تعرفي به؟ ألم تشعري برغبات قلبي حقًّا؟ ألم تريْ قلبي يرتجف لكِ في كل يوم ومع كل نظرة؟ ألم تشعري به؟ ألم تعرفي كم قاوم لأجلكِ كل الشقراوات والجميلات؟ كم امتنع عن كل كلمة حب وفعل حب مع غيركِ!

تستطيعون اختصار النصوص عني في كل فعلٍ فعلته في حياتي وكانت فيه وجهتي، قِبلَتي، رغبتي، هدفي، غايتي، حياتي؟ فكيف يحدث هذا اليوم؟ أنا الذي تأتي لي حبيبتي لتقول لي أحبُّهُ! يا الله، يا الله، يا الله، متى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا؟

يا الله متى؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا؟ سأكتبها ألفًا! سأكتبها دومًا أنا الذي بكل ما فعلتُ طوال عمري لم تحبيني! لم تعشقيني! هل أنا فاشلٌ

لهذا الحد لأجعلكِ تحبّين غيري! آهٍ يا حبي الوحيد! يا أمي يا أبي يا أنثى عشتُ لها وبها ومن أجلها، لماذا تتركينني الآن؟! لماذا الآن! أصبح لكِ أصدقاء في الجامعة حقًّا!

أصبحتِ تبتعدين عني؟! تريْنَ غيري؟ تنضجين بعيدًا عني؟!

آهٍ يا عليائي، كم من حضيضٍ سترسلينني إليه في بُعدكِ، كم من قاعٍ ستلقينني فيه بعيدًا عنكِ، وكل مكانٍ بعيد عن عليا قاع، كل مكانٍ دون عليا حضيض، سيأخذكِ مني هذا الذي لا يعرف فيكِ شيئًا لا يعرفُ عنكِ شيئًا!

يا حبيبتي التي لطالما كانت تناديني بـ «أخي»!

لستُ أخاكِ بعد اليوم! لستُ بأخيكِ! هم وضعوكِ أمام قلبي! في الدار يقولون لنا كونوا إخوة! لكنني لم أكن! لم أستطع أن أراكِ أختي وأنتِ الوحيدة التي يرقص القلبُ لها! أنتِ الوحيدة التي تشرق الشمس بمشيتها، ويغرب القمر حينما تنام!

أنتِ الوحيدة التي تزقزق النوارس بجلستي معها، بحديثي إليها!

الوحيدة التي تأسر الوعي واللاوعي؟ فكيف يكون هذا؟

حينما وضعكِ ذلك المجهول أمامي، جاءت الدنيا بأجمل أقداري ليلتها، ودون أن أفكر بأي شيء أصبحتِ حبيبتي! سامحتُ بكِ العالم بأكمله، غفرتُ لأمي التي ماتت وتركتني! غفرتُ لأبي الذي تخلّى عني! سامحتُ كل الأولاد الذين كانوا يؤذونني في الدار! سامحتُ كل مربّيةٍ شتمتني: انت ابن حرام! وما اقترفتُ يومًا ذنبًا غير حبّكِ!

سامحتُ كل الأيام بكِ، سامحتُ البرد حينما نهش قلبي، والعطش حينما كنتُ بحاجةٍ لماء دون أن تعطيني إياه أمي، سامحتُ اليُتمَ بكِ! فلماذا الآن تقتلين السَّلام داخلي؟ ولماذا الآن تمسحين كلَّ الرحمة من قلبي؟ لماذا بعدما غفرتُ لكل هذا العالم بكِ، تعيدين لي سُخطَ الوجود بابتعادكِ عني؟ لماذا يضيعُ مني وطني وأمي وأبي وكلِّي ثانيةً؟! هل هو قدري أن أبقى منبوذًا من كل الذين أحببتهم، عشقتهم، وانتميتُ لهم؟ هل هو قدري أن يوضع قلبي للمرة الثانية على باب هذا العالم، لقيطا مرَّة أخرى؟ تركتني! وأنا الذي ما تركتكِ يومًا، أتتخلِّين عني؟! أنا الذي ما تخلَّيت عنكِ!

كل النساء بعدكِ حرام! كلُّ الصداقات بعيدًا عنكِ حرام! كلُّ المشاعر بعدكِ في قلبي احتضار، أنا يا كلَّ هذا العالم لم أقُل شيئًا، لم أنطق بشيء! وكيف ينطق من اخترقت الرصاصة وتينهُ! آهٍ يا وتيني ووريدي وكل ما يسري في جسدي من حياة، ليتكِ عرفتِ كيف أحيا؟

جئتكِ بعد أربعة أعوام، حجزتُ تذكرة عبوري، أحملُ فوق لساني اعترافات هذا القلب الممتلئ بكِ، أزهارٌ سأهديها، رسائل سأقرؤها، قصيدة سألقيها، كتابٌ سيحكيني ويحاكيها، رواية يتيمة أنجزتها من رسائلنا، من أحلامنا، لم تر النور بعد، أنا يا حبيبتي كتبتكِ كثيرًا، اسمكِ ملأ روايتي، وأنتِ البطلة الوحيدة فيها، لأجلكِ نشرتُها، لأجلكِ صنعتها، كلُّ قصيدة ونثرٍ كان لكِ، جمعتها هنا في هذا الكتاب، كنتُ أزيِّنه لكِ كمهرٍ ستتباهين به أمام أُمَّةٍ تتحدث العربية، أمام أهل الضاد جميعًا، وإذا

به يصبحُ كفنًا لنعشٍ من حماقاتي! وشاهدا على قبري، غسِّلوني بحبرٍ أسود حتى لا يرى هذا الكون حجم خيبتي! وأخجلُ أني وثَّقتُ وصية خيبتي، كان كتابي هذا وثيقة سريَّة لتثبت لك حجم الحب الذي كَبُرَ عامًا بعد عام، جئتكِ أحمل روحي فوق يدي، قلبي فوق شفتي، حياتي وحلمي فوق عينيَّ، كالطائر الطنَّان المعجزة، أُحلِّقُ لكِ، لمسكنكِ الجديد في الحي الجامعي، قبل وبعد هذه اللحظة ينكتبُ تاريخٌ يا سيِّدتي، تمامًا كولادة المسيح، حبُّكِ تاريخيٌّ كان وما زال وسيبقى، وقصة حُبُّنا كانت وما زالت ولادة للتاريخ، أنا الذي وجدتكِ أمامي تجلسين على مقعد في الحديقة وتتحدثين لأحدهم، شعركِ الفاتن لا يتغير! وجهكِ وجنتيكِ، حركاتُ يديكِ، وشعاع قلبي الذي يسبقني لكِ، كنتُ أريدُ أن أعانقك، أن أحضنكِ، أن أرمي آلام قلبي فوق كتفكِ وأبكي. أبكي شوقًا ولن تفهمي شيئًا بعدها، سأتخلص من كل أحزاني هناك فوق كتفكِ، وستبقى روحي سعيدة بكِ فقط، اقتربتُ وناديتُ باسمكِ، والتفتت لي عيناكِ، وصرختِ باسمي، وقفزتِ فرحًا لتركضي نحوي، لم تعانقيني لكنكِ صافحتِ يدي، وبدأتِ تسألينني متى وصلت وكيف، وقلبي مأخوذ بكِ، برؤيتكِ، حتى جاء الذي كان يجلس بجانبكِ ليعرِّف عن نفسه، وارتبكتِ بخجل أنثوي رأيته لأول مرَّةٍ في حياتي.

- مرحبا، أنا صديق عليا في الجامعة وأدرس في كليَّة الإعلام.
- أهلًا أنا ناصر!

ألا تكفي ناصر، أظنها كلمة تختصر عالمًا، هذا الذي ظننته بحمقي، ألم أكن عالمكِ؟ ألم أكن والدكِ وكلَّ شيءٍ تنتمين له، ألم أكن ميتمكِ ومنبتكِ، أوتخجلين مني؟ من دار الرعاية، من ماضينا المشترك؟

- نعم هذا أخي ناصر، أخبرتكَ عنه يا أوس.
- يا الله كم أخبرتني عنكَ يا رجل، كنتُ متشوِّقًا جدًّا لأقابلك، لأتعرف على هذا المؤثِّر العظيم، الذي يجعلها تتحدث عنه هكذا!

صمتي..

- هيَّا أوس أنتَ تريد أن تعرف كل شيء دفعة واحدة ها قد جاء مخزن أسراري.
- طبعًا أريد أن أعرف هذا الذي زرع غابرييل غارسيا ماركيز في عقلكِ، وأريد أن أفهم هل هو مصدر الأفكار الغريبة التي تناقشينني بها!

تضحك... يضحك... وصمتي..

- أوس من أفضل الأصدقاء الذين قابلتهم يا ناصر، دعمني كثيرًا في أول فصل جامعي ومنذ ذلك الوقت ونحن أصدقاء.
- هل يجب أن أقول لهُ كيف تعارفنا؟

يضحك... تضحك... وصمتي..

- لا أوس رجاءً هل يجب أن تحكي لكل من يقابلنا هذه القصة.
- هي قصة طريفة رغم أنها مضحكة جدًّا.

تحمرُّ وجنتاها خجلًا وتضحك، يضحك، وصمتي..

ينتبهان أخيرًا لهذا الصمت، وينظران لي نظرة واحدة، أنظر في عينيها، في ضحكتها، في نظرة عينيها له، في خجلها منه، ويصيبني دوار البحر، بحر الحقيقة! أنظرُ في ضحكتها التي بدأت تتحوَّل لاستغراب، أستيقظ من ذهولي، من حرائقي التي لا يشعر بها أحد في هذا العالم، هذه أول مرَّة في حياتي أتعرَّفُ كلمة جديدة وأختبرها بهذا القوَّة، ليست حمَّى ليست حزنًا، ليست تآكلًا للروح ولا حرقةً للمعدة، ليست جفافًا في الحلق وليست اصطكاكًا لأسنان الفك، بل هي كل ما ذكرت وأكثر، على شكل كلمة صغيرة مختصرة ب غين وياء وراء وتاء..

غيرة!

ما أصغره من تعبير وما أصعبه من شعور! أغارُ عليها! أغارُ منه! أغارُ لها! أغارُ عليها، أغارُ عليها!! ماذا أقول؟ أن أخفي حبي، هذا شيء اعتدته، لكن أن أخفي شيئًا شعرته للتو، عرفته للتو، أحسسته للتو! هل قالوا لكم إنني الرجل الخارق؟ لستُ خارقًا، لستُ إلا عاجزًا يغارُ على أنثاه من رجلٍ عرفته للتو، وأنا الذي عرفتكِ أبدًا، أغارُ عليكِ من هذا الذي أصبح لكِ تاريخ معه!! من أين أتى؟ ولماذا لم تخبريني به؟

وجدتني أجفف عرقًا يتصبب فوق الجبين، وأخفي ارتجاف أصابعي، لاحظت توتري، ولاحظ الآخر تعبي!

- ناصر هل أنت بخير؟

أتسألينني يا قاتلتي، كنتُ أتسوَّل صوتي يخرج، أجبتها بغصَّة مسموعة: جئتُ من المطار فورًا هنا، أظنه عناء السفر، دعيني أغادر للفندق الآن، أعتذر منكما، ما كان يجب أن آتي وأنا متعب.

عـرض أن يوصـلني ووافقـت هـي وأخبرتـه أن معـي سـيارة سـياحية، وأصرَّت أن يقود بي لكنني اعتذرتُ منهما ومضيت، وسمعتها تعتـذر منـه وتلحق بي، ركضتْ وأمسكتْ بـذراعي تسـندني، تتحـدث معـي ولا أفهـم مما تقول شيئًا، وصـلنا للسـيارة وجلسـتْ بجـانبي، كنـتُ أقـود والصـمت يخيِّم على المكان حتى خرج صوتي:

- منذ متى تعرفينه؟

تفاجأتْ، ونظرتْ لي نظراتٍ حادة، نظرات من وجد إجابة لأسئلة في عقله:

- الخالة إيمان تعرف كل شيء ناصر، لا تبدأ!
- ماذا عنِّي، متى كنتِ ستخبرينني؟ ثم هل هو صديق عـادي؟ أم هـو مميز للحد الذي يجمعكما وحدكما مقعد واحد؟
- ناصر توقَّف ماذا تقصد؟ ولماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟

أصرخ ويرتفع صوتي: وكيف يجب أن أتحدث معكِ؟ كيف يجـب أن أتحدث معكِ؟ أنسيتِ من أنا؟

ترتعب من صوتي، وعيناها تدمعان وتبدأ بالانهيار، تصرخ بي:

- لـم أنسَ لكنـكَ نسـيتني، تغيـب كثيـرًا، متـى كـان يجـب أن أخـبرك، تهاتفني على عجلة من أمرك، وأنتظر بريدًا منك بالأيام حتى يصـل لي، ثم إنني لم أعلم أنني يجب أن أخبركَ عن أصـدقائي بالجامعـة أيضًا!

أوقفُ السيارة في شارع فرعي على الطريق وألتفت لها:

- لماذا تبكين الآن؟

- لأنني كنتُ مشتاقة لكَ كثيرًا، وأنتَ تأتي لتصرخ بي!!

تخفي وجهها بكفي يديها، ويداي خائرتان فوق عجلة القيادة، أصمت ويصمت العالم معي، أهبطُ من السيارة، أتنفس بصعوبة، ماذا أفعل؟ أهذه ملاكي التي تبكي في السيارة؟ وهذا أنا الذي يجعلها تبكي؟ ألستُ أنا من تركها تختار، ألم تقل لنفسكَ أنها ستختار؟ اختارت غيركَ فلماذا تعترض الآن دون أن تشرح لها حتى؟ تمالك ذاتك يا ناصر، هذه علياؤكَ تبكي وأنت السبب هذه المرَّة!!

نظرتُ للسماء، وللمرَّة الألف وجدتني أعاتب قدري بحزن عيني، بدمعة لا يراها غير إله تربطني به علاقة غريبة، أستمدُّ منه صبرًا على الأقل، لمثل هذه الأقدار.

ألتفت باتجاه الباب المحاذي لها أفتح الباب وأمسك بيدها، تهبط من السيارة وأعانقها، رائحتها تحتلُّني، ووفائي يسيطرُ عليَّ، عناقٌ تاريخي، عناقٌ كنتُ أتمناه منذُ قالوا لي لن تستطيع عناقها بعد اليوم، وأنا الذي كنتُ أتوق لهذا العناق كي أرمي بكل ما أخفيه هنا على هذا الكتف، ها هي بين يدي ورأسي فوق كتفها لكن قيود كلمة أخي أصبحت أثقل، أعند، أصعب، أهمسُ في أذنها:

- وأنا اشتقتكِ أكثر، بشكل مختلف كثيرًا.

نظرت في عيني، وكحل عينيها يصنع غيومًا حول جفنيها، أخذتُ من جيبي منديلًا وبدأتُ أمسحُ الدموع والكحل، سألتها بصوتٍ يحاول تهدئة الأمر:

- لا داعي لكل هذه الدموع، أنا أخافُ عليكِ فقط، ظننتُ بأنني أقربُ لكِ من أي شيء في هذا الكون!

تحاول أن تسيطرَ على دموعها:

- من قال إنكَ لست قريبًا، ومن قال إن وجود صديق لي يعني أنكَ لم تعد قريبًا.
- لكنه ليس مجرد صديق، على الأقل هذا ما رأيته في نظراتكما.

و التفتُّ أبحثُ عن شيء حولي، سلة قمامة ألقي فيها خيباتي المتواصلة، أو حتى إثمٌ صغير أحرق بهِ روحي المحترقة، علبة السجائر عند البائع على الرصيف، هذه هي! تراقبني أخطو إليه أشتري أول علبة سجائر في تاريخي، وولاعة سوداء بلون عينيها، أعودُ إليها وقد أشعلتُ أول سيجارة وبدأتُ أحترق معها! تنظرُ لي نظرات مستنكرة!

- منذُ متى؟
- منذُ اليوم!
- ما بكَ ناصر؟
- لا شيء تابعي؟ كيف تعرَّفتِ عليه؟

تبدأ تسرد لي قصصًا، ما تمنيتُ إلا أن أكون بطلها فقط، تقول إنها أخطأت بالدخول لحمام الذكور، وأنه كان أول من اصطدمت به، وأنها أصبحت تخجل كلَّ مرَّة تلتقيه، ثم تعرفت عليه عن طريق أصدقاء مشتركين نظرًا لكونهما يجتمعان كثيرًا في محاضرات متكررة، وهكذا بدأت صداقتهما.

- ماذا يعرف عن الماضي؟
- يعرف كل شيء، يعرف أنني من الدار وقد زار الدار وقابل الخالة إيمان قبل فترة.

أشعلُ سيجارة جديدة، وأبدأُ احتراقي:

- يبدو أنني آخر من يعلم هنا وآخر من تفكرون بإخباره!
- ليس الأمر هكذا لكن أنتَ مشغول ونحن لم...
- تحبينه؟

يفاجئها سؤالي، ترتبك.. ترفع رأسها وتقول لي:

- أنا لا أعرف كيف يكون الحب، نعم قرأتُ عنه في كل الكتب التي كنتَ تشركني فيها، كل الروايات والحكايات، لكنني لا أستطيع التمييز، كل ما أعرفه أن قلبي يسعدُ برؤيته، وأحبُّ أحاديثنا، وشيء كبير يشدني إليه.

أنظرُ في عينيها بطريقة شعرتُ بها بأن شراييني تريد أن تتفجر لتريها كيف يكون الحب!

- لا تعلمين كيف يكون الحب!

أصمت، نفس آخر من السيجارة، أفكرُ أن أمسك بيدها لأضعها على قلبي لعلَّ إجابة تصل إليها! لكنني أتراجع، سيِّدُ التراجع أنا، ما زلت! أقرر أن أشرح لها ببساطة ما عجزتُ أن أقولهُ لها من قبل:

- الحب يا عليا، أن ترهني حياتكِ لأحدهم، أن تسمحي له بأن يحتلَّكِ، فلا يكون الشروق شروقًا إلا به، ولا يكون الغروب غروبًا

إلا بغيابه، هو الهواء الذي تحيا به، وأن تعلم أنه بخير وأنه قريب منك يعني أن تزقزق عصافير قلبك. الحبُّ يا سيدتي أن أمنحكِ اسمي وعمري وشعري وقلمي وكل فكري وأرقي! ليلي نهاري أن أبقى على قدر من اللهفة التي لا تنتهي! ولن تنتهي.

تسألني بطريقة غريبة: هل جرَّبته؟

- ماذا أقولُ لكِ يا صغيرتي؟!

أصمت وانظر في مدى شارعٍ أمامي، نَفَسٌ آخر من السيجارة، يا سيجارة أشتعل معها وتشتعل معي، أنفثُ كل غضبي مع رمادِ قلبي المتآكل.

- قل لي الحقيقة، ها أنا أخبرتكَ سرِّي فلماذا لا تحكي لي من هي حبيبتك؟
- أفضّل أن أحتفظ باسمها لي.

تنظر لي نظرة لم أفهمها، وكأنه لم يرق لها أن في حياتي سرًّا!

- هل أصبحتَ أفضل الآن؟
- ليس تمامًا ما زلتُ بحاجة للراحة، سأوصلكِ للدار وأعود للفندق.
- لن أتركك!
- لا تبدئي الآن.
- قلتُ لكَ لن أتركك سأذهب معك.

في غرفة الفندق سمعتها تهاتف الخالة إيمان، هربتُ للحمَّام علَّني أختلي بألمي بوجهي بملامحي قبل أن تخونني، أطلتُ الوقوف تحت المياه الساخنة، علَّها تغسل وجع قلبي!

قطرة.. قطرة..

مياهٌ تغمرُ روحي المتعبة

وجراح عارية

تستنجد يدي لتعانقها

لتحاورها

لتطفئ فيها

لهيب المحرقة

قطرة.. قطرة

أنا الذي أضمِّدكم

أنا الذي أعالجكم

وأنتم الذين صنعتم

من قلبي لسجائركم مطفأة!

أنهيتُ عزف أحزاني، وضعتُ أمام المرآة قناعًا من التبلُّد، خرجتُ من الحمام وجدتُها تقف أمام الشرفة، يزدادُ سحر الشرفة كلَّما كبرتِ، هل كان يجب أن أقول لكِ أحبكِ قبل أربعة أعوامٍ حينما وقفتِ ذات الوقفة أمام ذات الشرفة؟ هل كان يجب أن أبادركِ حتى لا أخسركِ!

- نعيمًا، كيف تشعر أحسن؟

- نعم كثيرًا.
- الخالة إيمان في طريقها إلى هنا.
- لماذا أخبرتها؟ قلتُ لكِ لا تفعلي، لا تقلقيها!
- هي سألت عن تأخري ولن أخفي عنها، تعرفني!
- لا أظن!
- ما بكَ ناصر؟ كل هذا لأنني لم أخبركَ عن أوس؟
- لا يا صغيرتي لن نعيد الجدال، انتهى!

تأتي تجلس بجانبي، شعري مبتل والمياه تتساقط على كتفي:

- لم تجفف شعركَ حتى!

تحضر لي منشفة من الحمام، تضعها على رأسي. أخذت تجفف شعري، يداها الناعمتان الصغيرتان تلامسان أذني ووجهي وأنا المستسلم، ما أجمل أن أبقى ضعيفًا مستسلمًا هنا!

تدور السماء تدورُ الشرفة، هي عمَّان أم وارسو؟ هو جبل القلعة أم القصور الملكية البولندية؟ هي عليا أم أمي؟ أراها تجلس تعزف على العود، أقترب منها، أنحني أمام قدميها، تضع العود جانبًا وتأخذني في عناقٍ طفولي لم يمنحه لي أحدٌ من قبل، عناق حقيقي، وضعت رأسي فوق قدميها وبدأت بالغناء، كلمات لم أفهمها لكنها مريحة جدًّا، صوتها كان مريحًا أيضًا لكنه بدأ يرتفع ويرتفع، وجدتُ قطرة من الدموع تسقط فوق خدي، ثم أتت قطرة أخرى وحينما التفتُّ لأرى عينيها، إذا بها تبكي لكنها لم تعد أمي لم تعد حبيبتي، إنه هو أرى عينيه، هو الذي وضعكِ

أمامي وقال هذه دنياك يا بني، إنه الرجل الذي وضع قدري في سلَّته، لكنه يتحوَّل لشخص أعرفه، أنظر في ملامح وجهه من حضن قريب، ويفزعني أن أرى أبي! فأصرخ وأستيقظ.

أجدُ الخالة إيمان وعليا تربِّتان على كتفي وكأس الماء بين يدي الخالة إيمان، تتمتم بصلواتها، أستيقظ على ارتجاف الحقائق التي كنتُ أرفضها دومًا، هل بدأتُ أجن، تسألني الخالة إيمان ما بي، أحاول اختلاق قصة جديدة:

- أظنني جائعا قليلًا.
- سأحضر لكَ شيئًا يا ناصر، سأسأل المطبخ أن يرسلوا طعامًا للغرفة.

أستغل خروج عليا، ألتفتُ للخالة إيمان:

- هل تعرفين أي شيء عن عائلة عليا؟
- كيف لي أن أعرف؟ ناصر ما بك؟
- فقط أجيبي أسئلتي رجاءً.
- لم يأتِ شيء معها، لماذا تسأل الآن؟ ما بكَ ناصر، هل تهذي؟ هل أنتَ مريض؟
- أبدًا أنا فقط بدأتُ أشعر بأن شكوكي كانت حقيقية، خالة إيمان، هل ستصدقين إن قلتُ لكِ أن الذي وضع عليا أمام الميتم هو أبي؟!
- ناصر لا بدَّ أنك تهذي يا بني، ما هذه الفوضى أساسًا؟ لماذا أنت هنا؟

- خالة إيمان أقسم لكِ أنني لا أهذي، قد زارني شعور الريبة منذ أول مرَّه التقيته، دعيني أحكِ لكِ ما شعرتُ وما يحدث قبل أن تأتي عليا.

تلتفت نحو البوابة متوترة، تقف وتتجه للباب تتأكد أن عليا ليست في المكان، تعود وتقول لي:

- بهدوء اشرح لي ما يحدث معك.
- حينما قابلتُ والدي أول مرَّة كان شعورٌ كبير من الريبة يكبرُ داخلي ولم أستطع تفسيره، كان يكبر داخلي كلَّما التقت عيناي بعينيه؟ ظننته شيئا من الغضب وعدم الراحة! لكن كان يزداد الشعور كلما نظرتُ إليه ليلًا، ثم حينما ودَّعني في المطار اجتمعت الدموع في عينيه ورأيته، رأيت ذات العينين اللتين كانتا تطاردان طفولتي، والآن في منامي يزورني حلم، هي ذاتها، صدقيني أنا أشعرُ بأنه الشخص ذاته!
- ناصر هذا أمرٌ خطير، ثم كيف لابن ثمانية أعوام أن يتذكر؟ كل ما أخشاه أنكَ تعيش شيئًا من الفوضى بعد كل ما مرَّ عليك وما تحيا الآن.
- لم أجن بعد، لكنني لا أنكر أنني ناقشتُ الأمر بيني وبين نفسي كثيرًا، وأن تكون هذه هلوسات أمر ممكن جدًّا، لكن كيف أتأكد؟ ساعديني.

تصمت، وتغيب في أفكارها، وتقول لي دعني أفكر بالأمر، وصدقني سأحاول البحث، رغم أنني متأكدة أن كل هذه أوهام، لكن لن نترك الوساوس تكبر داخلك دون حلول!

لماذا أنت هنا أساسًا؟ لم تخبرني حتى!

- جئتُ لأفاجئكم!

أنظر للأرض وأتذكرُ ذلك الفتى، أتذكرُ ما جعلني أفقد وعيي وسعادتي للأبد، نظرتُ للخالة إيمان، قلتُ لها:

- ألم تعلمي بأنني أحبها! كيف تتركينها لغيري!

تصمت، تضع عينيها بعيدًا عني حتى لا تنهار أمام أحزان عيني، أو حتى لا تنحاز لأحد أبنائها أمام الآخر، نحنُ الذين جلدناها دومًا، ولم يكن منَّا شخص قادر أن يبعدها عن أحزاننا.

- أنتم يا ناصر تعب عمري، حصادي الذي أعيشه كل يوم، حينما عشقتُ رجلًا في الماضي دون أن يشعر، كان يُزهرُ قلبي وحيدًا في بعده، وكلَّما مرَّت الأيام فاض الحب دون أن يكون هناك من يشعر به، حتى وجدتكم في طريقي، فكنتم حبي الأبدي الذي يداوي جروحي، الآن أنتَ تسألني كيف تتركينها لغيري؟ وكيف لا أتركها؟! هل يختارُ الإنسان مصيره؟ هل اخترتُ لكَ شيئًا في السابق؟! لا أظن، هل اخترتُ لخالد أن يكون صاحب ميولٍ دينية، هل اخترتُ أن يتعاطى عمر المخدرات، أن تتزوَّج نور رجلًا يكبرها بخمسة عشر عامًا، أن يدخل مهنَّد كليَّة الشرطة؟ أنا كنتُ

فقط أهتم بكم وأروي جذوركم، أنتم الذين مرَّت عليكم كل الفصول، الربيع بسعادته، الصيف واختباراته ثم الخريف والسقوط وأخيرًا البرد والتعافي! كل نبتة فيكم خرجت من هذه الدار كانت تزهرُ بطريقةٍ مختلفةٍ، وباتجاهٍ مختلف، بعضكم أحب شمس الحق، وبعضكم تسلَّق ليل الظلام، لا أوجِّه أيًّا منكم، لكنني أحبكم، وأرويكم بروحي، فكيف تقول لي «تتركينها لغيري»؟!

- لكنني أشعرُ في هذه اللحظة أنني أعودُ لذات الرقعة، على باب الدار أنا! يتخلَّى عني العالم بأكمله، أنا لقيطٌ من جديد، قلبي يحترق، كم مرَّة يجب أن أخسر مركز جاذبيتي لهذه الحياة؟

نسمعُ أحدهم يطرق الباب، ونغط في صمتٍ يعذبني!

مرَّ يومان من الإجازة، وكانت أسوأ إجازة قد أقضيها فيك يا وطني، وكأن عمَّان نبذتني فجأة، كرهتني حينما تخلَّت عني أجمل نسائها، سريعًا أخبرتهم بأنني سأعود لوارسو، لكن المفاجأة أن حبيبها قرر أن يتقدم لها، واستغل وجودي بصفتي ولي أمر عليا، للمرَّة الأولى في حياتي تمنَّيتُ لو أنني لم أكن وليَّ أمركِ، للمرّة الأولى تمنَّيتُ لو أنني لا أعرفكِ، لا أنتمي لعينيكِ! للمرَّة الأولى في حياتي أتمنى لو أنكِ لم توجدي في عمري! آهٍ يا عمري، قولي لي كيف سيجلس أمامي ويحضر عائلته، ليقول لي امنحني حبيبتك؟ زوجني من تحب؟ ضع عباءتكَ على كتفها كي تخرج من ملَّتك الناصريَّة وتنتمي لحزبي أنا.. قولي لي كيف أراكِ تذهبين معه وألتفت!

كيف أوقِّع على عقد قرانكِ بصفتي ولي أمركِ دون أن أوافق حتى، طلبتُ من الخالة إيمان أن تعفيني، لكنني لن أنسى كيف أمسكت بساعدي وضغطت عليه وقالت: لن تُعفى، أنتَ الذي حملتها طفلة، واحتضنتها حتى أصبحت عروسًا، ستبقى ولي أمرها حتى لو قتلك هذا، إياك أن تجعلها تحزن يومًا، إياك أن تتخلَّى عن إخوتكَ في الدار يومًا، هذه وصيتي لك!

كل شيء كان صعبًا بعدها، حفل عقد القران، أن أراكِ بثوب الزفاف كالأميرات، أن أرى ذراعه حول خصركِ، وأشهد على سعادتكِ معه، كان صعبًا أن أراكِ بطلة مع رجلٍ آخر، ترقصين معه، تحتفلين به، تزهرين له، يضع يده حول خصرك وأموت ألف مرَّة، جاءت هبه صديقتكِ وبدأت ترقص معي، ونظرتِ في عيني نظرة اللبؤة التي لا تقبل شريكا في الدلال، نظرتكِ لم أفهمها! ثم تركتِ أوس وجئتِ ورقصتِ معي، كانت رقصة مؤلمة جدًّا، أول رقصة جمعتنا يا حبيبتي، كانت رقصة انتحار!

سمَّيتها رقصة الانتحار لأنها كانت بمثابة وداع للحياة وأمنيةٍ أخيرة يشهدُ عليها كل من نحب، يجتمعون ليزفوني لموتي بين قدمي مولاتي، أنا الذي سقطت مني ألف حضارةٍ وحضارة، ما كنتُ أعرفُ أن هذه الرقصة يا ملاكي ستهزمني لأبكي أمامكِ!

دموعي تنهار من عيني، ونحنُ نرقص فوق هذا اللحن الرمادي، لحنٌ لم يكن سعيدًا ولا حزينًا، كان فقط يعتمد على مشاعري ليكونها، ومن أحزنُ منِّي اليوم؟

خطوتان للأمام، وسؤالٌ ما زال جوابكِ عنه غير مؤكدٍ لي..

- تحبينه؟

بعينين مرتابتين، وقناعات لا مفهومة:

- نعم، وإلا لماذا سأقبل الزواج منه؟
- لكنكِ لم تمنحي ذاتك الفرصة للتعرف لغيره، كي تشعري بالحب!
- لكنني تعلَّقتُ به!
- لأي درجة تعلقتِ به؟ هل يكفي؟
- لدرجة تعلقي بك!

أتوقف عن الحركة، أضع عيني في عينيها، أستفسر:

- هل كنتُ مقياسكِ في الحب؟
- نعم!
- ولماذا لم تخبريني!
- لأنكَ تخرج مع إيفا، ولأنها حبيبتك، وأظنكَ سعيد.
- من الذي أخبركِ عن إيفا؟

صمتٌ، ويتغير إيقاع الموسيقى، وتبدأ الدبكة وتُشبكُ الأيدي، وتنسحبين من بين يدي للمرَّة الألف، تشبكين يدكِ بيد أوس والأخرى بيدي وتبدؤون بالرقص، أنا الذي يتقن الرقص على أحزانه.. توسطتُ الرقصة حينما سحبتني الخالة إيمان للمنتصف وناولتني العصا، رقصة الضياع سمَّيتها، تدورون حولي في قفزات وأغمضُ عيني، وأبدأ بالتمايل

مع العصا، والقفز والتلويح بها، لا أذكر يومًا أنني رقصتُ كما فعلتُ الليلة، أنا هذا الضياع الذي ترونه، أنا هذا الحزن الذي ينزف في عيني. كلِّي انكسار، تعالوا واسألوا روحي المتهاوية عن اختيارات تهرب مني، وعن أقدارٍ تُفرَضُ علي، ويُقال في النهاية إن الإنسان كان مُخيَّرًا! إلا أنا يا الله! كنتُ مُسيَّرًا في متاهة من الخيبات، يدورون حولي وأنظر في عينيها، وتحاولُ كتم شيءٍ عنِّي، هذه الطفلة التي كَبُرتْ في حضني، تغتالني بنظرات عينيها اليوم، رفعتُ العصا بين يدي واقتربتُ منه، وبطريقةٍ فاجأته وضعتها بين يديه، التفتُّ إليها قبَّلتُ جبينها، نظرتُ في عينيه وقلتُ له: اسمها عليا الناصري، وستبقى!

والتفتُّ باتجاه البوابة، وحيدًا جدًا كما خُلِقت!

خطأ مقصود..
الانتقام

الانتقام هو أعظم خطأ مقصود خلقه الإنسان، عدتُ لوارسو رجلًا آخرَ، ميتًا في جسد حي، دون أن تكون معي روحي، كنتُ أشبه أولئك الذين يعودون من المقبرة لبيوتهم بعد دفن عزيز، عدتُ مكسورًا، مهزومًا، جسدي جثة متحركة، هذه النكسات هي أشياء اعتدتها حقًّا! ما عادت شيئًا جديدًا، عدتُ لأجد والدي على حاله، أصبحنا اثنين حقًّا! فقدُ النساء شيء يغيِّر أقدار الرجال، من أنكرَ هذا كذب على نفسه، كنَّا صادقين جدًّا، لدرجة ألا نتحدث طوال ساعات، صمت، هو معها وأنا معها، جثتان هامدتان تنتظران حياة، مرَّ عام وما زال جُرحي ينزف وكأنهُ حدث للتو، متى أُشفى؟ سؤالٌ يجدد الجرح، هاتفتني بعدها كثيرًا الخالة إيمان، كانت الوحيدة التي تعلم ما أعيش، شاهدًا بعيد على هذا اليُتم الأزلي، أطمئن منها على عليا، وتسألني متى قد أحن وأحادثها فهي تُلِحُّ بالسؤال، وأصمت، تقول لي إنها بخير، سعيدة، فلماذا تحتاج صوتي أو حتى وجودي!؟

ثم سألتني مرَّة: هل تتواجد في البيت وحيدًا عادةً؟

- نعم لماذا؟
- أريدكَ أن تبحث في أشياء والدكَ عن جواز سفره الأردني، كنتُ أفكر في الأمر الذي سألتني عنه في زيارتك الأخيرة، وخطر لي أن

لا شيء سيثبت شكوكك أو ينفيها إلا جواز السفر، حينما تدخل حدود أي دولة سيختمون جوازك أليس كذلك؟

لا أجيبها، بل أنهي المكالمة وأنطلق مستغلًا عدم وجود والدي في البيت، بدأتُ أبحث عن شكوكي، عن هذا الطفل، عن هذه الأوهام!

ما سأجده اليوم سيثبت لي إن كنتُ بحاجةٍ لعلاج نفسي، أم بحاجةٍ لأنتقم لحبي من والدي! ما سأجده اليوم سيوازن المعادلات والحقائق، سيعرِّفني من أنا ومن هي ومن منَّا يملكُ الحق! سأعرف الماضي الذي أنجبنا وألقانا على أبوابٍ لم تجب عن أسئلتنا! مكتب والدي.. لا شيء، عرقٌ يهطل كالمطر فوق جبيني! غرفته التي لم أفكر يومًا في اختراقها، مجلدات كثيرة، أوراق كثيرة، مرَّت ساعة من البحث، خفتُ أن يعود خرجت أنظر من الباب، نظرتُ من النافذة، لا شيء، لا أحد، شربت كأسًا من الماء لتروي جفاف خوفي، وعدتُ لأكمل خزانة وملابس، حقائب قديمة، حقائب سفر، صور كثيرة، خربشات كثيرة باسم أمي، كلما كنتُ أجدُ اسم داليا مرسوما فوق ورقة أبكي! أحترق! وأموت! أتابع.. أبحث عنِّي هنا، في أوراق عمرها يتجاوز الثلاثين عامًا!

مغلفٌ بني، وجوازات سفر باللون الأخضر... المملكة الأردنية الهاشمية... هجمتُ عليها أفتشها، أول جواز سفر، صورة باسم داليا، لم أجد شيئًا، الآخر لا يحمل الكثير من الأختام اسم والدي صورته، جواز ثالث صورة والدي لكنه باسم أحمد الغريب.. شعرتُ بأن الخيوط بدأت

تتوضح، هنا الأسرار تتكشف، أمسكتُ ورقة وقلم وبدأتُ أكتب كل تاريخ فوق الجواز، كتبتُ أكثر من 7 تواريخ...

كانون أول 1989 دخول للاردن

آذار 1992 دخول للاردن

نوفمبر 1994 دخول للأردن

سبتمبر 1996 دخول للأردن

أبدأ بالحساب، عمر عليا الآن 24 عامًا، 2018 ناقص أي من تلك التواريخ؟ سيعطيني عمر حبيبتي!

أبدأ بعمل حساباتي، وسرعان ما يأتي عام التقائنا 1994، لقد كان في الأردن في ذلك العام، أتصل بالخالة إيمان...

- وجدت جواز سفر مزوَّرا ووجدت هذه التواريخ...
- هل أنت متأكد؟
- نعم، والآن ماذا تظنين أنني يجب أن أفعل؟!

بعد صمت طويل من كلينا، خرجتْ كلماتها متألمة!

- المواجهة يا ناصر، باسل الذي أعرفه قد يقدم على الكثير، لكنه لا يكذب، لم يكذب يومًا! لن يكذب يومًا!
- هل ما زلتِ تثقين به بعد كل هذا؟
- لم يثبت عليه شيء بعد!

- ماذا عن جواز سفره المزوَّر؟ أنا متأكد أنه كان هناك! وسأثبت لكِ الليلة!
- ناصر لا تتهور رجاءً..

وقبل أن تنهي كلامها كان باب البيت يُفتح وشبح المشتبه به يقترب مني يلقي تحية المساء وينظر في عيني منتظرًا جوابًا مني دون أن يأتي، صوت الخالة إيمان.

- ناصر هل هذا والدك، دعني أتحدث.

فضلتُ إغلاق الخط، لن أتركَ الأمر لقلبكِ الكبير يا خالة إيمان، أنا الآن أمام كل الحقائق التي أحتاج، أمام صندوق أسود على شكل أبي! لا بدَّ أن أفهم من هذا الذي أمامي، كنتُ أرتجفُ، غضبي يسبقني، أنتظر اعترافاته التي سترسم شكل القدر!

- ما بكَ يا ناصر؟ مع من كنتَ تتحدث؟
- ليس مهمًّا، المهم الآن أنني أريد أن أسألك سؤالًا يا والدي الذي اخترق حياتي فجأة كما غادرها فجأة! ما هو أعظم ذنب ارتكبته في حياتك؟

يتوجه للمطبخ ليحضر كأسًا من الماء بعدما وضع بعض مشترياته على الأرض!

- ما هي مناسبة هذا السؤال؟

- لـيس هنـاك مناسـبة محـددة، اعتـدتُ معـكَ أن أكـون الأب، أن تخطيء أنت وأن أتحمل أنا، أن تهرب أنت وأن أحارب أنا! ولأن في حياة كل شاب لحظة يقفها أمام والديه ليسألاه هكذا سؤال، فدعني أمارس دوري الكامل معك!

يجلس على الأريكة وينظر في عيني، يتنبه لجوازات السفر الخضراء في يدي، ويقول:

- ما الذي تريد أن تعرفه، ولماذا تبحث في الماضي؟
- أريدُ أن أعرف حجم الكوارث التي قد يقترفها باسل الفوزي، والتي اقترفها من قبل!
- هذا الماضي لا علاقة لك به، أمضيتُ هذا العمر أبعدكَ عن هذا الماضي، ولا أتخيلكَ تعود إليه الآن بعدما أصبحنا في أمان!
- أمان من ماذا؟ هل تعلم أن الأخطاء التي ارتكبناها بإرادتنا في الماضي لن تمنحنا أمانًا يومًا، وإلا لما وجدتكَ على هذه الحال! هل تسمي ما تحياه حياة؟ زجاجات النسيان هذه وصور أمي، أدوية مسكنة لروحٍ متهالكة! أنتَ لستَ حيًّا! أنتَ فقدتَ الشعور بالحياة منذ زمن!
- أنا سعيد بهذا القبر.

- وأنا سأكون سعيدًا لو قلتَ لي لماذا كنتَ تعود لعمَّان في رحلات متنوعة دون أن تمرَّ على دار الرعاية، دون أن تمرَّ بي وتراني؟ ترى طفلك الذي تركته في حرمان أبدي؟!
- لماذا، أكان سيجعلكَ الأمر سعيدًا؟
- لأنني سأعرف شيئًا ما زال يؤلمني من هذا الماضي، قد يعالجني ما ستقوله، قد يشفي جراحي اعترافك!
- منذُ متى تشفينا الاعترافات؟
- ماذا تقصد؟
- أقصدُ أنكَ قد تتحطم بعد ما أقوله؟!

يخرج سيجارة من علبة سجائره الذهبية، يشعلها بعد أن يضعها في فمه، يأخذ نفسًا طويلًا، ينفثه ويتنبَّه لتعرُّق جبيني، لتوتُّر نظراتي، يحاول تهدئتي:

- ألا تجلس؟
- أنا رأيتكَ، أنتَ لا تعلم شيئًا، أنا كنتُ أنظر في عينيكَ منذ أول لقاء لكلينا، أنتَ لا تعلم كم مرَّه أغمضتُ عيني على كابوس عينيك! وفي ذات الوقت كم مرَّة تمنيتُ أن أراهما دون أن أفهم أنكَ خوفي وحُلمي في شخصٍ واحد!

يضع سيجارته في مطفأة السجائر، يقف ويتوجه نحوي، يضع يده على كتفي:

- لا تلمني أكثر يا ناصر، هم دمَّرونا! وهم جعلوا منكَ ما أنتَ عليه!
- من هم من تقصد؟

يلتفت نحو الشرفة، ينظر للفضاء الخارجي ويبدأ:

- قلتُ لك إنني كنتُ بمثل عمركَ الآن حينما قررتُ أن أمارس العمل السياسي، كنتُ أعرفُ أنني يجب أن أمارس حريتي، أن أطالب بالتغيير الذي يمنعهم من التحكُّم بنا كبيت النحل، فقط تلك النحلة التي تختار غذاءها الملكي ستكون الملكة! كانت والدتك هي من قالت لي يومًا، نحنُ إما أن نشارك في ما نحياه، وإما أن نختار مكانًا لا يعنينا أمره لنعيش فيه، كانت تعشق العمل السياسي، تعشق الوطن، تعشق العروبة، حتى جاء اليوم الذي ألقوا القبض فيه علي، وخرجتُ من سجني ليزفوك لي يتيمًا دون أم، دون زوجة.

قالوا إنها لم تحتمل الخبر، لكن الذي عرفته لاحقًا أنهم بعد أن ألقوا القبض علي، عادوا وألقوا القبض عليها، وكانت في شهرها الأخير، أربعة ضباط أعرفهم وأعرف ما حدث معهم كما أعرفُ كف يدي، وقد انتقمتُ منهم الأربعة... ذات الانتقام الذي آلت له حياتي!

المقدم أحمد حسن، المقدم راغب علي، الملازم محمد سيف، الملازم بسام محمود، وكما حكموا على عائلتي بالشتات، حكمتُ عليهم بالضياع أيضًا، وانتهت القصة!

كان وجهي مصدومًا من كم الأسرار التي تتدفق من هذا الصندوق الأسود، كان قلبي ينبض بسرعة تكاد تتوقف، أيُّ عقوق هذا الذي يتدفق الآن!

- ماذا فعلتَ بهم؟ هل قتلتهم؟
- وماذا يفيدني موتهم؟ أنا كما تقول عني ميت! لكنني حي، هذا ما صنعته لكل واحد منهم!
- ماذا تعني؟

يأخذ السيجارة، يسحبُ نفسًا طويلًا قبل ان يطفئها! بدأ بالحديث والدخان يخرج مع كل كلمة، أعني أنني وكما خسرتُ زوجتي، طفلي ووظيفتي التي أحب وتشردتُ! فعلتُ بهم! وأن كلًّا من أطفالهم الثلاثة، كانوا على باب الرعاية دون أن يعلموا مصير كل طفل من هؤلاء الأطفال! أنا الذي أجبرتني ظروف صنعوها بظلمهم لي! كان لا بدَّ أن أمارس سلطاتي الدستورية والقانونية! أنا المحامي الذي يجلس أمامك أقمتُ محكمتي، وضعتُ من يراقبهم من يوصل لي أخبارهم، هم الذين لم يرحموا توسلات زوجة حامل، لم يرأفوا بكَ في رحمها! ماذا يهمهم هم؟ مُرتَّبات سيحصلون عليها بعد أداء وظيفة معينة، وكم من وظيفة صنعت من صاحبها مجرمًا دون أن يشعر!! أسوأ الوظائف تلك التي تجعلكَ لا تستخدم عقلك، تلك التي تمنحكَ أمرًا ويجب أن تنفذه وإلا، ثم قلَّما

نجد من يقول وإلا، لذلك كانوا أصحاب هذه الكلمة أبطالًا في مناصبهم، أبطالًا في قصة انتقامي!!

كنتُ أنظر في عينيه، لم أصدق هذا الكم الكبير من الغضب الذي ما زال يحترق داخل روحه، لكن في ذات الوقت أفكر بالأربعة الذين وضعهم على باب دار الرعاية؟ أيُّ اخوتي في الدار ارتكب معهم هذا المجرم هذا الاثم؟ كيف يجرؤ أن يكرر فعلته كل مرَّة، وماذا حدث لقائمته؟ ماذا كان يخطط كل هذه السنوات؟

- لستَ سوى مجرم! ليتني لم أعرفكَ حتى!
- يسهلُ أن تقول هذا، أنا الذي لا أتوقع لأحد أن يفهم ما أطلب، لكنني في حياتي التي كنتُ أرسمها لوطنٍ ديمقراطي، بيت دافئ وزوجة تستقبلني بضحكة وطفل يلعب في أحضاني! هل طلبتُ الكثير؟ هل تجاوزتُ حدود أحلامي البسيطة؟ أنا لم أسرق وطني؟! أنا لم أمارس ظلمًا على أحد! أنا وداليا كنَّا نمارس حقوقنا التي تعني وجودنا، تعني حريتنا؟ الغالبية الصامتة التي سترقص وسيعلو تصفيقها ليست جميع أطياف هذا الوطن!

ماذا كان ذنبنا؟ حتى قلبوا حياتي رأسًا على عقب، ماذا كان ذنبي حتى أبعدوني؟

بدأتُ أبكي، شعرتُ بكم الأسرار التي فُتِحت أمامي الآن تخنقني!

- وجاءت تلك الليلة، أنا الذي حينما تعلمتُ كيف أقرأ وجدتُ رسالتك التي تقول انتظرني كل ثلاثاء وفعلتُ، انتظرتكَ كل يوم ثلاثاء، انتظرتُ أمي أن تأتي لتحضنني، وإذا بكَ تأتي فعلًا، نعم أتيتَ تلك الليلة منحتني طفلة كانت أجمل شيء قد تمنحني إياه في كل هذا العمر! منحتني عشقًا! منحتني لقبًا حبًّا عمرًا، لكن ما أعظم خيبتي أن أعرف أنكَ رأيتني ووقفتَ أمامي دون أن تحضنني! دون أن تقول لي أنا والدكَ الذي تنتظره، يا لجبنكَ! وأنا الذي بسنواتي الثمان تلك لم أفهم سر عينيك! الآن حللتُ اللغز وليتني لم أفعل، عيناك الخائفتان والمترددتان مني، لا من تلك الطفلة التي انتقمتَ منها! هل حقًّا انتقمتَ منها؟! أظنكَ انتقمتَ منِّي لا منها، قتلتني لم تقتل غيري بها! تلك التي خرجتُ بها من هذا العالم، أجدكَ تسلبها والدها، تسلبها حياتها! كمية الانتقام في قصتي معكَ لا تنتهي، وكميَّة الأوجاع التي ستنهار معها لا تُحصى، والآن من هم الأطفال الآخرون؟
- طفلة اسمها هبة، وطفل اسمه مهنَّد، أحد الضبَّاط فقدت زوجته طفلها خلال عملية الولادة واكتفيتُ بذلك الانتقام القدري! كنتُ أنتظرُ كل واحد فيهم في دوره، لم أُلوِّث يدي بهم، اكتفيتُ بأن أحرمهم من فلذات أكبادهم، أن يُظلَموا كما ظُلِمت، ولأن الدار كانت لم تُسجَّل وقتها ضمن الأوراق الرسمية، لم يكونوا ليبحثوا

عنهم في دار غير مشمولة في سجلات الشرطة، ولا أظنكَ ستعشق هذه العليا لو قلتُ لكَ إن والدها كان مسؤولًا بالدرجة الأولى عن كل ما حدث لنا!

- كيف؟
- لقد كان ضابط الاستخبارات المسؤول عن مطاردتنا، قضية سياسية! هكذا اعتبرونا مصدر زعزعة لأمان الوطن! أن تكون وطنيًّا في بلاد عربية هذه تهمة!
- ما اسمه؟
- المقدم راغب العلي.
- هل ما زال على قيد الحياة؟
- لا فكرة لدي!

أبدأ بالصراخ.. أمسكتُ زجاجاته المترامیات هنا وهناك وبدأتُ بتكسير كل ما أمسك! أنا الذي ما عاد صبر هذا العالم يحتملني أكثر!

- لماذا قد يكون لكَ فكرة بعد كل هذه الجرائم التي ارتكبتها، باسمي وباسم أمي! نحنُ بريئان منكَ ومن لعنات الشياطين التي تسكنك!

كنتُ أصرخ فقد فقدتُ عقلي! أن تجد والدكَ الذي قضيت عمركَ تبحث عنه بهذه الكمية من الفظاعة، ما أسوأ ما قد يحدث بعدها! بدأتُ بجمع ثيابي وغادرته للأبد، بدأ يصرخ ويحاول أن يحتويني لكن الجسور

انهارت، ما عاد يمكن لهُ أن يحتوي شيئًا مني! حاول الإمساك بكتفي لكنني دفعته عني بقوة ومضيت!

أين أذهب؟ أين أسير؟ وارسو يا غربتي التي تشهدُ على ضياع روحي، منذُ دخلتكِ وأنا غريبٌ عنكِ، متعبٌ بكِ ومعكِ! مهزومٌ داخلي بهذا الماضي فتخيلي أن يكون حاضري أسوأ ومستقبلي كل هذا الخراب الذي سمعته للتو، ماذا أفعل ومن أين أبدأ؟ قل لي يا نهر وارسو الذي تختلط دموعي بضفته الآن! أين أذهب؟ وكيف أعالجُ كل تلك الكوارث؟ يرن الهاتف وأجد اسم الخالة إيمان على الشاشة، ماذا أقول لها يا الله؟ تلك التي استغفلها رجل مصنوع من أفكار الشيطان اسمه أبي! لن أجيبها، سأكتفي باستئجار غرفة فندقية حتى أعرف ماذا سأفعل بعد كل هذا الخراب الذي ورثته!

عدتُ لعمَّان بعد يوم واحد، توجَّهتُ لدار الرعاية. كان ذلك أول شيء فعلته، مررتُ على ذات البوابة.. هنا كان، هنا أعطاني السلة، تلك الزاوية التي شهدت عليَّ متجمدًا من الخوف، خائفًا من أبي!! تنبَّهت الخالة إيمان لوجودي، وهي التي لم تكن لتتعب من تفقُّد زهر الحديقة، كانت متوقعة لقدومي بادرتني:

- ماذا حدث يا ناصر، قال والدك إنك قررت العودة ما الذي حدث؟

لم أنطق كلمة، اكتفيت بالجلوس تحت ظل شجرة الليمون، كانت خيبتي في هذا الوجود أكبر من أن تحتمل! الكارثة أنني لو تعافيت، هذا

المجرم التي سبب كل هذه الجراح لإخوتي وأحبائي هو أبي، أبي الذي أمضيتُ عمري أبحث عنه، ماذا أقول لهم، وكيف أجد حلًّا؟ وماذا حدث لعائلاتهم؟

جلست الخالة إيمان بجانبي، وضعتُ رأسي في حضنها، هل أخبرها؟ هل أستطيع؟ وأغمضتُ عيني، علَّ حياتي كلها تكون كابوسًا، وأعودُ طفلًا ألاعب عليا وحينما نتعب من اللعب نعود لحضن الخالة إيمان، نغفو وننسى هذا العالم الذي يصفعكَ كل يوم لتنضج، لتصبح إما نكرة وإمّا شيئًا ذا قيمة في قلب أحدهم!

انتهت... أو... ربَّما...

الجزء الثاني..
حينما تكتب النساء

أستيقظُ دون صباح الخير بصوت ناصر، دون شمس ناصر، دون قهوة ناصر، دون ابتسامة ناصر، دون أن يجلس أمامي بحضور كامل أو حتى جزئي وهو الذي يبقى صامتًا في جل وقته يتأملني بصمت! يحكي بعينيه أكثر مما قد يحكي بشفتيه، هكذا هو ناصر! كل الصباحات التي لا تأتي بصوته باردة، كل الصباحات التي لا ينتظرني فيها أمام الباب، لا تملكُ طريقًا، كل البدايات دونه ناقصة، كل الحكايات دونه خاوية، وكل الأحداث دون بصمته، دون كونه فيها تنقصها الكثير من الألوان!

ها قد جاء يومٌ أفكِّر فيه بأنني لا أستطيع أن أكتب لكَ رسالة، لا أستطيع أن أبوح لك برغبة؟ لا أستطيع أن أرسل لكَ أغنيةً كانت تحكينا كثيرًا، كانت تصف شعورنا في كل لحظة، هكذا فجأة هل يمكن أن يحدث هذا؟ لماذا قد يغيب عني؟ لماذا قد يختفي هكذا؟ أنا بحاجته الآن أكثر من أي وقتٍ سابق، هل يظن زواجي يعني ألا أحتاج ذراعه، ألا أحتاج بوْحهُ ورسائله التي تروي روحي الجائعة، هل قلتُ لكَ من قبل إن هذه الأرض بمن عليها لو عانقوني كل يومٍ لما غطوا جزءًا من جوعي لحضن أمي؟ هل قلتُ لك من قبل إن هذا العالم الكبير يضيقُ بي دون أب أستند

عليه باسمي بجسدي وبقلبي؟ أتتركني حقًّا ليُتْمي، وأنتَ أبي وأمي وكل ما أعرف من عائلة؟!

أنا أحببتُ رجلًا نعم، تزوجتُ نعم، لكن من قال إنني قد أتخلَّى عنك؟! هل يتخلى المرء عن ماضيه؟ هل يتخلى القلب عن نبضه؟ هل يتخلى الإنسانُ عن اسمه أنتَ الذي وهبتني اسمكَ يا ناصري، وأصبحتُ بكَ عليا الناصري، عليا التي تخلَّى عنها أبٌ وأمٌ وكل شيء دون أن يتركوا لها غير كونها لقيطةَ عينيك! يتيمة عينيك!

وأنتَ الذي سردتَ لي كيف وجدتني مئة ألف مرَّة، وكأنكَ تذكِّرني بأنكَ شاهدٌ على كل حياتي، تعلمتُ أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وزرعت داخلي معها أن أشهد أن ناصر أبي وأمي وعائلتي وكل الماضي الذي أعرف وكل حاضرٍ دونه شرك، أي مستقبل يكون بعيدًا عنه ارتدادٌ عن مِلَّة الحياة!

استيقظتُ عليكَ تحملني بين ذراعيك، حضنكَ الذي غفوتُ فيه لا أذكر كم مرَّة، طفولتنا التي وزَّعت الضحكات على جدران الحي، وعلى أبناء الدار، خطواتنا التي أتعبت الطريق دون أن تتعب، ما أجمل ما كانت طفولتنا رغم أوجاعها! كنتَ تُزيِّنها لي بوجودكَ. أنا يتيمة لكَ يا ناصري، يتمي بكَ أكبر من يتمي بغيركَ! أنتَ كل شاهدٍ حقيقي في حياتي، كيف أخسركَ يا شريكي؟ كيف تضيعُ مني؟ هل ما زالت رسائلي تصل إليك؟

كيف أصفكَ يا عزيزي وكيف قد أصفُ شعوري؟

أنْ أكبرَ امرأةً بين يدي رجل صغير رافق كل أيامي، أستيقظُ عليه يعلم كل شيء عني، يعرفني قبل أن أقول شيئًا، لستُ بحاجة لأن أقصَّ عليه تاريخي وهو الذي صنعه، يغني في قلبي كلَّ شيء علَّمني إياه، يداه كانتا تعزفُ رغباتي، فور أن أحتاجه أجده، فور أن أطلبه يجيبني! كان كالمارد، كان كالجني، كان شيئا لا يغيب!

آه كيف يمكن أن تصف امرأة رجلًا كان كل شيء في حياتها، هو اللغة التي أكتبها وأقرؤها، فقد كان أوَّل من علَّمني الكتابة، هو الحجة والفكرة التي تدور في ذهني، فقد كان عرَّابي باختيار الكتب والقراءة والحوار، كبرتُ على شغفي به، على لهفة قلبي لملاقاته، لعناقه رغم أنهم يقولون لي هذا غريب عنكِ!

أحقًّا أنتَ غريب، وعناقكَ إثم! لكن كل خليَّة في جسدي تعرف حضنكَ، أنا التي كنتُ أنمو على رائحة وجودكَ، عناقكَ إثم! إن كان عناقكَ إثمي، فمرحبًا بآثام كل هذا العالم الذي يحفظ دون أن يفهم أنكَ أنا! نعم يقولون إنني متمرِّدة، وهذا ما أصبحتُ أسمعه كثيرًا من أوس، لكن التمرُّد كان أول ملعقة عسل وضعتها في فمي!

يقولون إنني مجنونة، أنا إن لم أجن يا ناصر شعرتُ بأنني أموت، وكأن جنوني الذي كَبُرَ بفضلك، ليس إلا أوكسجينا، ليس إلا هرمون سعادتي الذي يكون، جنوني هذا هو الحب الذي لا يموت مع الأيام! تمامًا مثلُ... حبكَ! حان وقتنا إذن، حان وقت غربتنا! أنتَ الذي غبتَ وقلتَ

سأعود! وأنا التي خفتُ أن أقيِّدكَ بي، خفتُ أن أكون أثقالًا تمنعك من التحليق في سماء امرأةٍ... اسمها إيفا يا ناصر!

اسمٌ وحيدٌ كفيل بأن يجعلني أبتعد، أنا التي هاتفتكَ محتاجة لك! مراهقة علَّقت كل عالمها بك! وإذا بك في عالم امرأة أخرى، جاء صوت والدك ليقول لي أسوأ نبأ قد أسمعه في حياتي:

- ناصر ليس هنا، هو برفقة صديقته إيفا، يخرج معها كل يوم تقريبًا، بالأمس أمضت النهار كاملًا معنا، أظنه يخطط للارتباط بها.

كلمات كافية بأن أطويني، أطوي مستقبلًا كان مرسومًا في ظلِّكَ، لكَ معكَ ولأجلكَ!

هنا طويتكَ، عامان تغيرتُ فيهما دون أن تنتبه حتى، عامان كنتُ فيهما أتحوّل أخرى، أصبحُ حرَّة منك، وفي ذات الوقت أُصبحُ شيئًا مختلفًا، أكثرُ النساء جنونًا تلك التي تحيا حياتين، وأنا كنتُ واحدة من تلك النساء اللواتي تحيا حياة الجنون والعقلانية! من يراني يظنني شيئًا، وحالما يقترب مني أكثر سيرى ما يخفيه جلدي من ألوانٍ، قدرتي الكبيرة على التحوُّر لأصبح بلون جديد كل مرَّة، لون القوة ولون الضعف لون الغضب ولون الانكسار، الأسوأ في كل هذا أنني بدأتُ أفقد قدرتي على أن أكون قوس قزح منذُ ابتعدتُ عنك!

أدمنتُ الكتابة، ولم أترك مجلة أو صحيفة إلا وراسلتها ليصبح لي عملي الخاص، مصدر دخل خاص، لن أعتمد على الخالة إيمان طوال

عمري، ها أنا أكتب تحت اسم مجهول، لقيطة عينيك... اسمي، وزاويتي الدائمة هي رسائل أنثوية لكَ! رغم أنكَ لم تكن تقرؤها، إلا أنها كانت تحكيني كثيرًا، كانت تشتاقك كثيرًا، تشكو أطباع الرجال وتناقش نظرياتهم العجيبة في الحب!

وجاء أوس، في زحمة الضياع الذي أعيشه وأنت بعيد، جاءت المصادفات التي تجعل أي أنثى تعشق اهتمام رجل قريب منها، يقول لها أنتِ جميلة اليوم، أنتِ متألقة، وأنتِ تعنين لي الكثير! وأنا أقبلُ بكِ، لقيطة من دار الرعاية وسلالتكِ 2000، أنا أقبلُ ماضيكِ المشوَّه، أنا أحبُّ جمال عينيكِ، وأحبكِ!

لقيطة عينيك اليوم، أصبحت تحبُّ رجلًا آخرَ، يهتم بها، لا يكترث بماضيها، لا يكترث برقمها 2000، يختارها رغم أنف ماضيها المختلف، ورغم أنف كل لا مألوف كانت تعيشه، يختارها ويخرج بها إلى الشمس، إلى الحياة التي كنتُ أتمناها معك، لولا وجود إيفا! أنا التي كنتُ أنتظرُ أول قارب نجاة لأتعلَّق به، أول قارب شراعي، ليس ضعفًا مني يا عرَّابي، لكنني في مجتمعي الشرقي أحارب جيوشًا من العيون التي تنتظر كي تنهش ضعفي، هكذا قالت لي هبة التي غادرتنا لتتزوج أول من طرق بابها، أعلم أنني لستُ هبة وأنكَ صنعتَ مني كاتبة مجنونة، وطبيبة نفسية تتدرب لتمتهن عملًا يساعدها على فهم كل ما عاشت، لم أكن يومًا امرأة تهزمها أفكار مجتمعها، لكنني كنتُ وحيدة، أخافُ الدخول بين

مجموعة من الأصدقاء، أخافُ حوارات التعارف، أخافُ أن يُسأل عن هذا التشوُّه الذي تخفيه ثيابي، حروق الماضي يا صديقي لا تزيلها عمليَّات التجميل كحروق الجسد، أخافُ أن يدعوني أحدهم لبيته، وأضطر في المقابل لدعوته لدار رعاية!

أخافُ أن يُحكى أن ما جعلها مميزة فقط وجودكَ في حياتها، أنا هذه الأنثى الممتلئة بأفكاركَ الاشتراكية وأحاديثكَ السياسيِّة، أنا التي كنتُ أظنني أكبرَ أنثى طبيعية وإذا بي أكتشفُ أنني هذا الجنون الذي قد يسبب لي الكثير من الكوارث، هذه الكوارث لم أكن أعرفُ بها من قبل، لكنني ومع أفكار أوس المحافظة، بدأتُ أفهم أنكَ زرعتَ داخلي قنابل وألغامًا كثيرة، وأن لا أحد يستطيع فك شيفرة هذه الألغام إلا من زرعها! كنتُ كلما اصطدمتُ مع أوس في أمرٍ ما، يقول لي أنتِ متمرِّدة كثيرًا!

كنتُ ألومكَ في قلبي وأقول، لو لم أتتلمذ على يديكَ يا ناصر، لبقيتُ تلك الطبيعية التي لا تفكِّر ولا تحتاجُ عقلًا، تلك التي لا تستخدم عقلها، ولا تحتاج لأن يكون لها طموح في هذا الكون بعيدًا عن زوج سعيد وقبيلة من الأطفال، لن أخفيكَ أنني تمنيتُ ألف مرَّة لو أنني أهدأ، لو أنني أتوقف عن هذا الشغف عن هذا التمرُّد، لكنه لم يكن شيئًا أستطيع التحكُّم به، كان فقط أنت صغيرٌ داخلي يكبر! ناصر طموح يكبرُ داخلي، أريد أن أقرأ، أن أتوسَّع في تجاربي، أن أسافر، أن أختبر ذاتي في ظل الألم والعجز والقوة!

أستيقظُ صباحًا لأقرأ ولأكتب وفنجان قهوة يُعادُ ملؤه أكثر من مرَّة، لكن أوس كان يبحث عن شبيهة لوالدته، عن تلك التي ستستيقظ لتخبز وتعد الولائم لأجل السلطان النائم، والأمير القادم، وحينما عرف أنني امرأةَ اللاواجب! أحبَّ ذلك، فهو يقول دائمًا إنه من أنصار المساواة وحقوق المرأة والمشاركة، لكن لن أنفي أنه ما زال يبحث عن الولائم كل صباح بين أطباق الكورن فليكس والقهوة والكتب والمقالات الممزقة، وبدأتُ أكتشف قصَّة الزواج يا صديقي، أن تجعل ضدَّان يحبان بعضهما بعضًا في بيت واحد هذا إعجاز، وقد كانت السعادة في قمَّتها، الكتابة في أوجها، والحب في أجمل معانيه، شهر وشهران، عام وعامان، وبدأت المضايقات التي كان يستميتُ أوس ليخفيها عنِّي تظهر على السطح، بدأت الكلمات المؤذية والأفكار المرهقة تطارد حياتنا، وبدأ الخارج الغريب يتسرَّب لنا من شق الباب على شكل أم تقلق على مستقبل ابنها، وأب يحتاج لحفيدٍ يحفظ تاريخه، أنا التي كنتُ منشغلة عن كل هذا العالم لأنجب كتابًا ومقالات في الطب النفسي وأسراره، وإنهاء تدريب لأزاول مهنة، حاولت التواصل معك بعدها كثيرًا يا ناصر، دون أن أتمكن من الوصول إليك، عامٌ من البُعد دون أن تحاول حتى أن تطمئن علي، أنا التي لن أتوقف عن احتياجك، واليوم وكعادتي أهاتف الخالة إيمان التي قالت لي: إنه لم يتصل بي منذُ فترة، ويقول إنه أضاع مستندًا فيه مجموعة

من المخطوطات وقت الزفاف، وقد وجدته حقًّا ووعدته أن أرسله له في البريد.

- هل تسمحين لي بالنظر إليه..
- ترددت قبل أن تقول لي حسنًا..

وفي مساء ذات اليوم كنتُ أستقل سيارة أوس وأتوجه للدار لأخذ المخطوط، غادرتها سريعًا أنا التي سرتُ لا أعلم أين أذهب بهذا المخطوط الذي أشتهي أن أراقصه، وأن أقبِّله، وأن أعانقه بعيدًا عن عيون كل البشر، كنتُ أقود السيارة في شوارع عمَّان دون أن أعلم لأي مكان وصلتُ، وجدتني قرب جبل القلعة، فقد كان يقول ناصر أن هذا الجبل هو الشاهد الوحيد على كل البدايات! أوقفت السيارة قرب المنظر البهي، ومن هنا أمسكتُ الأوراق وبدأت..

الإهداء...

لامرأةٍ لن تتكرر ربَّيتها على يدي

وإذا بها تصبح عالمي

- ارتجف جسدي مع هذا الإهداء، وشعرتُ قلبي ينبض بشدَّة، أنا التي أتهالك الآن أمام الماضي والحاضر، أكمل القراءة:

الإهداء...

إلى عليا...

حينما قال لي الغريب، اسمها عليا، ظننتُ أنه اسم أمي وأبي وتاريخي، أنا الذي كنتُ أنتظر العالم لينصفني بكِ... وقد كان!

ولادة لي...

عيناكِ اللتان تطاردانني

عيناكِ اللتان تحاصرانني

وأنا هذا المجهول أمامكِ

مبللٌ بحزني..

بأخطاء عمري..

بآلام حقيقتي..

أحبيني فقط...

وسأبعثُ سعادتي!

أحبيني فقط

وسأعلن لي ولادتي!

أحبيني..

وسيصبح لي اسم!

سيُخلَّد لقبًا

سيصبح لي وطنًا!

وستصير الشوارع لي

وأجراس الكنائس حين تغني

ستعمِّدني!
صوت الأذان يتدفَّق
في دهاليز عمري
أحبيني فقط
وأعدكِ
أن أنثرَني
أرضًا لعلياء عينيكِ..

كنتُ أقرأ رسائل انتحاري الذي ارتكبته بحبل حماقاتي، كنتُ أبكي، أضم الأوراق وأجيب عنها بأنني أحببتك يا أحمق! أحببتك لو تعرف! أخذتُ الأوراق لأقرب مكان أجدُ فيه طابعة، نسختُ المخطوط، وعدتُ للخالة إيمان، منحتها المخطوط الأصلي ودون أن تتنبه حتى لما صنعت، وغادرتها بعد أن كررت سؤالها بأنني لا أبدو بخير، لكنني أجبتها بأنه تعب الدراسة والعمل فقط!

عدتُ لبيتي دون أن أعود تمامًا، لمكتبي الصغير، طاولة صغيرة قرب النافذة المطلَّة على الحديقة والأزهار، وأوركيدا بيضاء تنمو كل عام مرَّة، ولا تحب شرب الماء، بل تحب امتصاص قطع الثلج، وذوبانها قطرة قطرة، وضعتُ الموسيقى، وبدأتُ أغوص في أعماق كاتب وشاعر، يرسمني فوق الورق، امرأة لا تشبه باقي النساء، أقرؤني في عينيه، كيف يرى شعري، كيف يصف أصابعي، كيف يتغزَّلُ بلون عيني، أنا التي أنهي

نصًّا وأقف أمام المرآة أمسك أصابعي وأحاول التعرَّف عليها من جديد، بلغة جديدة، تجعلني أحبُّ ذاتي ألف مرَّة بطريقة مختلفة كل مرَّة!

أذوب بين كلماتكَ، بين علامات استفهامكَ، أنا يا هذه الروح التي عشتُ لها، وعاشت لي دون أن نبوح حتى، كيف يمكن أن ينضج حب بهذا الكم، بهذا الحجم دون أن يحدث اعتراف يومًا، دون أن يحترق عود كبريت، دون أن تتعرَّى الأفكار وأن تظهر الأغصان، كان ربيعًا دائم الأوراق وصيفًا دائم الغطاء، لم تسقط أوراق هذا الحب يومًا! ولم يعرف به حتى قلبانا! لكثرة ما كانت تداريه كلمة أخي، ولكثرة ما تُبعدهُ كلمة أبي!

عاد أوس للبيت، حاول لفت نظري للسهر معه، لقضاء ليلتي معه، لكنني اعتذرتُ بأن لدي الكثير من الدراسة والعمل، عدتُ لأنكبَّ فوق الأوراق، في تلك الليلة كنتُ السمكة التي لا تملكُ خياشيمَ، كلما غطستُ في بحر كلماتكَ وأمواج سحركَ، وجدتني أعود للسطح سريعًا لأخرج وأتنفَّس حائلةً دون أن أغرق بك، ألهثُ وأعود لذاك القاع من الكلمات لتلك القصائد ومن ثم أهربُ للسطح لأتنفَّس، وبين كرٍّ وفرٍّ، أنهيتُ قراءة المخطوط، وأنهيتُ شحن ذاتي بك، كنتُ أروي اشتياقي لك، مع كل كلمة، وفي كل جملة!

هل يمكن أن تصافح أحدهم من خلال كتابه؟

هل يمكن أن تعانق أحدهم إذا ما عانقتَ رسائله؟

شعرتُ أنني كنتُ معكَ يا ناصر طوال هذه الليلة، تحدثنا كثيرًا، تعاركنا واختلفنا وتعانقنا، كنتَ معي كثيرًا! وانتهيتُ أكتب لك...

إليكَ أيها الناصري المجنون!

هل قلتُ لكَ قبل يومي هذا إنني أحبكَ حبًّا لن تفهمه السماء، لن تتقبله الأرض، لن تعترف به الجبال رغم أنه شاهقٌ أكثر منها! لن تعترف به النساء، رغم أنهنَّ جميعًا أنجبن منه، حبُّنا يا عزيزي هو الفطرة التي لم تلاعبها أي ديانة، هكذا خلِقَ فكنَّا!

أعترف لك بأنني أستنكره في كثير من الأحيان، وحينما أسمع صوتكَ، وأرى كلماتكَ، يُبعثُ من جديد، أقتل الشك فيك، وأبقي يقيني الذي ملأ روحي بأنكَ الشوق..

أحلامنا التي ما عادت تسعها الكتب، لم يعد يسعها النوم، ولا حتى اليقظة! أحلامنا يا صديقي كثيرة، لا تعرفُ انتهاءً، تشبه جوعنا، تشبه اختباراتنا البعيدة، تشبه مسؤولياتنا التي قيَّدت المغامر فيك والمجنونة فيَّ، أنتَ الذي كان يشتهي غرس أعلامه فوق كل أرض جديدة يستكشفها، هل قيَّدكَ التاريخُ والعمر؟

جنوني يا صديقي العزيز تقيَّد جدًّا! نعم، أعترف لك، وأعترف أنني حاولتُ أن أروِّض ذاتي به ومعه، لأكون امرأةً تليق بتاء التأنيث في قاموس شرقنا الموقَّر، لكنني اكتشفتُ بعدها أن هذا الجنون الذي أكممهُ يتحوَّر، ككل الحيوانات والكائنات التي تغيِّر جلدها لتتماشى مع لونٍ جديد، هذا

الجنون كان يتحوَّر معي، ليت الأمر يقتصر على اللون فقط، هذا الجنون الذي يتحوَّر ليصبح امرأةً داخل أخرى، كأن تكون عاشقة داخل صديقة، أو حبيبة داخل زوجة، أن تكون حميمة داخل باردة، أو سعيدة داخل غاضبة!! وكل ما أخشاه أن أنتهي في عيادة طبيب نفسي ليقول لي تحتاجين لأدوية الانفصام!

لكنني وإن حدث، لن ألتزم بأي دواء، تعرفني، هل يمكن أن أقتل انفصامي الذي يبعثُ داخلي الحياة؟ هل يمكن أن أتناول أدوية أقتل بها عليا التي ترقص وتغني وتراهق وتحب وتغضب وتشاكس! هل يمكن أن أتناول أدويةً تقتلك داخلي؟!

يا انفصامي... وهلوساتي واحتراقي على هاوية من العمر الجميل، ابق معي، حتى أكسر قيودك التي تراكمت في الغياب، دعني احرِّر فيكَ الأنا التي كانت تقتلني كل يوم عشقًا، دعني أسرق قبلة الحياة في تنفُّس صناعي يبعث داخلكَ مستكشفًا من جديد، جزيرتي تحتاجُ لرجل يجتمع فيه الموت والخلود، ووحدكَ القادر على تهدئة الأمواج، وحدكَ القادر أن يغرس علم أول جنون على سطحي أنا!

لا تقلق من المدِّ وأنت تبحر، المدود تعرف أننا يا صديقي حبيبان، ولا تقلق من الجزر أيضًا فهو الذي يعلم كيف يشعل نيران الحنين من جديد، لا تخف من السير دون حذاء فوق صخور شواطئي الحادة، ستنزف

أعلم، لكن الدماء التي تراها والآلام التي تشعر بها ستكون لا شيء حالما تصل لضفة السعادة!

هذه التجارب التي تحياها، ستكسر عنكَ كل قيدٍ خبأتَ صمتكَ فيه، هذه التجارب ستحرِّر روحكَ، انتصاركَ سيكون قصَّة الجنون التي ستكتبها، ستدفع بالملايين خلفكَ لأن يلقوا بأنفسهم في أول بحر عشق لا وقت فيه للخوف من المجهول! يا أعظم مجهول عرفته، كلَّما نبشتُ فيه، ازداد جهلي..

لا أنا أستطيع الوقوف هنا، ولا هو يتوقَّف عن كونه مجهولًا! ابقَ لي حتى يبقى لهذا العمر طعم ولون ورائحة...

البقية ستأتي

باعثتكَ للحياة من جديد

ملطَّخةٌ بالحبر، استيقظتُ على أوس يناولني فنجان القهوة بعد أن وجدني أغفو فوق جبال من الأوراق، ليسألني:

- ما كل هذا؟ هل أمضيتِ الليلة تكتبين؟
- كنتُ أقرأ قليلًا، وغفوت، صباح الخير.
- صباحكِ سكَّر يا أجمل كاتبة قد يراها العالم!

أضحك وأنا أفهم ما يرمي له، يريد افطارًا شهيًّا حتمًا.

طويتُ الصفحات، أخفيتها في قلبي، ليومٍ ألتقيك فيه، كنتُ محمَّلةٌ بك، مشاعري دومًا متعبة، مختلطة، وفي حالة فوضى، أحاول تجاهلها والانشغال بحلمي، بحروب النساء حينما يصارعن هذا العالم ليحققن أحلامهن!

كنتُ أتحرَّر من قيودي، وأنطلق لمهنتي التي أحببت، فضلتُ نسيانكَ بالعمل! دون أن أتوقف عن البحث عنك! تم افتتاح عيادتي، أمارس مهنتي، أعود لبيتي، أكتب مقالات طبية وخواطر للمجلة أحيانًا، وأعود للكتب التي أبحث فيها عنك دون أن أجدكَ! مرَّت الأعوام يا ناصر... هل حقًا تستطيع نسياني؟ فلماذا إذن لا أستطيع؟

النهاية الخطأ
نهاية البداية

للبدايات التي لم نكن نظنُّ أنها ستحدث، لكن الأخطاء التي تترك أرواحنا متعبة تحتاج دومًا ليدٍ تجتثها من عذابها الأزلي...

- اسمي باسل
- كم عمرك؟
- عمري كثير من الأعوام، عمري الحقيقي أم عمري الوهمي، عمري حينما كنتُ سعيدًا أم عمري حينما فارقتني الضحكة، عمري وأنا أنتصر، أم عمر هزائمي الذي يكاد يكون كهلًا الآن، أي الأعمار يا دكتورة تريدين؟
- لا بأس، دعنا نأخذ عمركَ الوهمي، الرقم المجرد فوق البطاقة.
- أظنني تجاوزتُ الـ 65.
- تدخن السجائر؟
- وأشرب الكحول أيضًا.
- أي أمراض جسدية؟
- لم أعد أكترث بتلك الأشياء، حينما تموتُ روحكَ! لا تشعر بألم جسدك، يقول طبيبي إنني بحاجة لجراحة في القلب لكنني لا أكترث.
- ما دمتَ لا تكترث لماذا جئتَ لي؟

- أريدُ أن أفهم ألغازًا تحيِّرني في هذا العمر، وقالوا لي إنكِ تتقنين حلَّها!
- أنا لا أصنع معجزات هنا، كما ترى أنا وقلم وورقة سنسمعك، لا يوجد عصا سحرية، لكن هناك كلماتكَ التي ستحكيها لي، وأسرارَكَ التي ستدخلني معكَ لعوالمٍ لم أكن فيها، سأساعدكَ على ترتيب مشاعرها، ترتيب أفكارها، وإخبارَكَ كيف ومتى وماذا كان يجب أن نفعل، وأن هنا خللا وهنا علاجا.
- أتظنين أنني قد أُشفى؟
- ولم لا؟ ما دمتَ تسعى سيحدث؟
- أنا كنتُ طوال عمري لا أسعى، قصتي ليست سهلة، لكنني لم أفهم سبب هذا الخراب الذي حلَّ فيها، لم أفهم لماذا أنا الذي اختاره القدر ليحدث كل هذا معه، لماذا أنا الذي يستشهد والدي، وأنا الذي يحب السياسة، ثم أنا الذي يُنفى من وطنه الذي حارب لأجله! ثم تموتُ زوجتي وأموتُ معها ويوقظني صوت طفلي الذي يستنجد بي، فأهجره هربًا منه ومني وحينما تمر السنين وأعتادُ غربتي وعزلتي وقلبي يموت جدًّا، لدرجة أنني نسيتُ أن هناك أحدًا لي في هذا العالم! يأتيني هو وأحاول ألا أتعلق به، أحاول ألا أتعلَّق به أبدًا، لكنني أنهزم فقد كنتُ أراها في عينيه، كنتُ أسمع صوتها يأتيني مع صوته، تناديني حبيبتي حينما ينظرُ لي، أقترب منه دون أن أرغب، دون أن أشعر حتى أنه قريب لهذا الحد! وفجأة..

صمت، يضع يديه على رأسه تائها!

- ماذا حدث؟

ينظرُ في عينيَّ، يقف، يقتربُ من مقعدي بخطوات واثقة، وبالمقابل أقفُ محاولةً مواراة ارتباكي، ما زال ينظرُ في عينيَّ نظرة لا أفهمها، نظرة حادة، وكأنه يرى غريمه..

- إن كنتَ تشعر بتعب..

يقاطعني:

- تخيلي أن تسرقهُ مني خطيئتي؟

يتوقف أمامي تمامًا، وأشعرُ بأنفاسه قريبة، أتوتر، العرق ينحدرُ من جبيني، وأحاول احتواء الموقف.

- دعني أطلب لكَ فنجانًا آخر من القهوة.

ألتفتُ وأقف قرب المكتب أطلب فنجانًا جديدًا من القهوة! ألتفتُ إليه لأجده يقف مُحدِّقًا بشهادتي الجامعية، وقد أشعل سيجارته متجاهلًا اللوحات التي تطلب عدم التدخين في العيادة!

- من أين أنتِ دكتورة؟

- من هنا من عمَّان

- من أي عائلة؟

- الناصري.

- لم أسمع بهذه العائلة من قبل.

أصمت، وأنا أنظرُ نحوه، ينظر إليَّ، وأشعرُ أن هذا المريض لا يمكن تشخيصه بسهولة، نظراته لي مريبة، ولا أستطيع التركيز بتحديد الخلل، لوم الذات، اكتئاب.. انفصام..

- تظنين أنكِ قادرةٌ على مساعدتي؟
- دعنا نحاول! قد..
- و لكن «قد» هذه تأتي بعواقب وخيمة أحيانًا؟
- هذا جزء من الحياة يا سيدي! نجاح أو خيبة أمل!
- وهل ستتحملين عواقب ما قد يصيبكِ؟

تفاجأتُ بسؤاله؟ ها هو فضول الطبيبة النفسية بدأ يختلط مع جنون الكاتبة الصغيرة التي ترافقني، أجبته بحماس كبير...

- من أين نبدأ؟

لم أكن أتخيل أن هذا المريض يحمل لعنات الماضي، وأن هذا الوحش الذي يسكنه، قد ينهش روحي لتقف هشَّة ضعيفة أمام زوايا حياتي، أمام صور الأشخاص، أمام الصورة التي لم تكن واضحة يومًا لكنها حينما أصبحت مكتملة أظهرت كميَّة التشوُّه الذي قد يسببه الآخر لك! فقط بدافع الانتقام!

أنا هذه الورقة الأخيرة التي سقطت بعد آخر اعتراف لهذا المجنون الذي أمامي والذي لم يذكر أسماء غير اسمه، لكنه يقول قصة مطابقة لحياتي! مطابقة تمامًا لي، لم أقاطعه، كنتُ خائفة، وفي ذات الوقت أتمنى

لو أن معي مسدسًا لأفرغه في رأس الإجرام الذي مزَّقنا، لكن إن كانت حقًّا قصتنا فهذا الرجل، هو والد الوحيد الذي منحني كل شيء، بدموع تنهمر على خدِّي سألته سؤالًا وحيدًا:

- هل هو على قيد الحياة؟

يناولني ورقة تحمل اسمًا ورقم هاتف وعنوانًا:

- كل إجابات الأسئلة هنا في هذا العنوان.

ويتأهب ليغادر.

- لماذا الآن؟

لأجل ناصر فقط، ولأنهُ يحبكِ!

أسقط بعدها على الأرض ولا يعود هناكَ وعيٌ لشيء، صدمة عصبية حادة، هذا ما قالوه حينما استيقظتُ بعدها في المستشفى، أوس بجانبي، الخالة إيمان، وهو.. الذي قاطعني لأربعة أعوام، ها هو الآن أمامي، يقف وحيدًا، مُنزويًا، ينظر لي بعينين عاشقتين، أكانت نظراته هكذا منذ الأزل؟ فلماذا إذن لم أتنبَّه، لم أفهم، أو أنه القدر الذي كان يحمينا من تاريخ الكوارث التي جمعتنا قبل أن يولد الحب.

أبقى صامتة لكن الدموع لا تكفُّ عن إغراق الوسائد، سُلطةُ الدموع لدى النساء قد تكون أقوى من غريزة البقاء، والأفكار التي تعصف في رأسي، يحاولون الحديث معي ولا أسمع شيئًا، فقط أنظر إليه للوحيد

المنزوي في هذه الغرفة، للوحيد الذي ينظرُ لي ولا يقترب! ولا ينطق شيئًا لكنني أسمع كل ما يقول.

أحبكَ والبقيَّةُ تأتي

عليا أحمد...

انتهت أو ربما

2021/10/9

فهرس المحتويات

الإهداء 5
بداية العاصفة.. إنها تمطر ذكريات 9
الخطأ الأول... هل شعرتِ بآخر قُبلة؟ 19
الخطأ الأجمل... من نحن؟ 37
الخالة إيمان 45
أخطاءٌ لذيذة.. عليا وناصر 53
الخطأ الثالث... هل تقتل رصاصة واحدة ثلاثة أشخاص؟ ربَّما!..... 61
خطأ لا يشبه باقي الأخطاء.. التخلِّي 72
أخطاءٌ تصنع أخطاء.. اليأس 81
أخطاءٌ قتلَتنا! 97
عليا وناصر 100
أخطاء خلقت معجزات 112
أخطاءٌ نضجت 130
كذبة العيون.. عيناهُ كل القصة 155
كذبةٌ أبعدتها عني.. وارسو من جديد 175
كذبة الأخوة.. ناصر.. لقيطٌ مرَّةً أخرى! 181
خطأ مقصود.. الانتقام 201

الجزء الثاني.. حينما تكتب النساء 214
النهاية الخطأ.. نهاية البداية..... 229